الدكتور وجدي الفيشاوى

لاتصلبوا المسيح

دراسة نقدية

الطبعة الثانية - ٢٠٠٤

الدكتور وجدي الفيشاوي

لا تصلبوا المسيح

الدكتور وجدي الفيشاوي

الدكتور وجدي الفيشاوي

لا تصلبوا المسيح

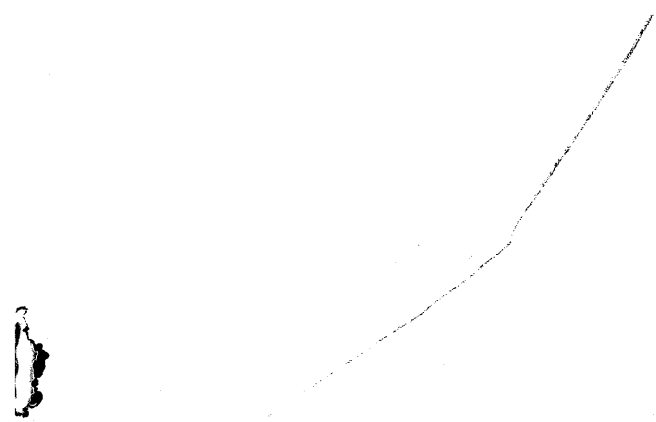

مقدمة

إلى ولدي عـابد

كي لا ينسى

مقدمة

لقد تناقضت الآراء وتضاربت حول شخصية المسيح وتعاليمه، وهذا التناقض والتضارب ليس فقط فى كتابات كبار المفكرين المسيحيين وعمالقة رجال الكهنوت، بل فيما ورد فى الأناجيل الأربعة المعتمدة أيضاً.

ولأن «المسيح» كان شخصية عبقرية، فذة ونادرة، ومن المستحيل أن تتكرر، فقد اختلف فى شأنه الذين يكتبون ويصورون ... اختلط الواقع بالخيال، وامتزج التاريخ بالأسطورة، بطريقة مثيرة ومستفزة.

يقول البعض إنه - كشخصية تاريخية - معروف الأب والأم، وحياته كتاب مفتوح يمكن قراءته فى سهولة ويسر. ويدعى آخرون أنه لم يكن فرداً بشراً، إنما هو ابن الله، الذى وجد قبل خلق العالم، ثم اتخذ صورة بشرية وهبط إلى الأرض لكى يكفر عن خطايا البشر ... وهو - فى رأى هؤلاء - الإله المتجسد بشراً. على حين ينكر بعض أساقفة الكنيسة الإنجليزية هذا الرأى، ويتمادى أحدهم فيعلن أن «المسيح» لم يضف شيئاً للفكر الإنسانى.

وهذا الكتاب يعرض آراء بعض كبار رجال الدين المسيحى، فضلاً عن آراء المتعمقين فى الفكر الدينى من الدارسين المسيحيين .. وعلى ضوء ذلك فإننا نناقش آراء المسيحيين أنفسهم فيما يختص بشخصية «المسيح»، ومنهج فكره، وجوهر تعاليمه. على أننا قد استبعدنا من هذه الدراسة تماماً كل ما يمت للإسلام بصلة وللمسلمين بنسبة، حتى لا يقال: دين ضد دين، وفكر ضد فكر، ابتغاء الفتنة ، حاشا لله.

وفى ختام هذه المقدمة القصيرة، لا بد أن أُشير بكل تقدير إلى الأستاذ الدكتور محمد نور الدين النجار، الذى تحمل عبئاً هائلاً فى مراجعة هذا

الكتاب. لقد قرأ، وناقش، وحقق، ودقق، وأصر على أن يضيف بعض الهوامش لتوضيح ما قد يبدو غامضاً أو ما ظن أنه قد يستغلق على فهم القارئ.

يهدى الله لنوره من يشاء. والله ولى التوفيق.

وجدى الفيشاوى

طنطا فى يناير ١٩٩٦

الفصل الأول

الحالة الدينية والاجتماعية في فلسطين قبل ميلاد المسيح

الفصل الأول

الحالة الدينية والاجتماعية فى فلسطين

قبل ميلاد المسيح

يتفق أغلب المؤرخين على أن عظمة الشعوب السامية تكمن فى أنها أول شعوب حملت رسالة التوحيد السماوية فى تاريخ البشرية كلها ... فالتوراة مثلاً، كتاب اليهود المقدس، تلك التى كتبت منذ القدم على ألواح من الحجر (١) ويرجع تاريخها إلى موسى عليه السلام، تعتبر أول دستور سماوى يدعو إلى عبادة وتقديس إله واحد.

ولقد أعلن اليهود ـ وما زالوا يعلنون ـ أن مملكة بلا حدود قد وعدوا بها وحجزت لهم. ويوماً ما ـ كما يدعون ـ ستصبح أورشليم عاصمة للعالم كله، وأن جميع الجنس البشرى سيخضع للسيطرة اليهودية. ولقد عمّق فيهم هذا الإحساس إيمانهم بأنهم شعب الله المختار، أى شعب مقدس بينه وبين الله ميثاق. وعلى ذلك فقد امتلأت أرواحهم بتوقعات كبيرة. إن كل شعوب الدنيا تضع الجنة فى البداية، أى فى بداية الخلق، ويبكى الشعراء ضياع العصر الذهبى. أما إسرائيل فتضع العصر الذهبى فى المستقبل.

منذ ما يزيد عن نصف قرن من ميلاد «يسوع»، احتلت جيوش «بومبى Pompei» فلسطين، وفرض عليها الحكم الرومانى سنة ٦٣ قبل الميلاد. ولأن روما فى ذلك الوقت كانت مشغولة بمشكلاتها وأمورها الخاصة، فقد رأت أنه من الأفضل أن تخلق سلالة من الملوك تجعلهم ألعوبة فى أيديها ليحكموا تحت سيطرتها وحمايتها. ولقد وجدت روما بغيتها فى أسرة «هيرود

---

(١) انظر سفر التثنية ٤:٩-١٤، ٩:٩-١١، والخروج ٢٤:٢١:١٨.

Herod»، ويطلق عليها اسم «الهيرودسيين» ولم يكونوا فى الأصل يهوداً، بل عرباً ينتمون إلى قبائل الأدوميين. كان على رأس هذه الأسرة «أنتيباتروس» الذى جلس على عرش فلسطين من عام ٦٣ إلى عام ٣٧ قبل الميلاد. وخلّفه على العرش ابنه «هيرودس العظيم Herod The Great »، الذى حكم حتى العام الرابع قبل الميلاد. وكان «هيرودس» قوياً، ذكياً، حاسماً، مدركاً فى شفافية نادرة لكل ما يدور حوله ... انطوى تحت لواء الدولة الرومانية، وأعلن ولاءه لها، واستعداده للذود عن سلطانها. وبذكاء وحصافة، حاول إرضاء السلطتين ـ الدينية والدنيوية ـ فى وقت واحد، كى يكسب تعاطف الإثنتين ورضاهما: أظهر غيرة شديدة على اليهودية التى اعتنقتها قبيلته على سبيل المداراة لا عن عقيدة وإيمان حقيقى، وفى نفس الوقت سلك مسلك الرومان فى أسلوب حياتهم وطرق تعاملهم.

وفى العام السادس بعد الميلاد أصبح الموقف فى فلسطين شديد الحرج، إذ قسمت الدولة إدارياً إلى ثلاثة أجزاء، فأصبح «هيرودس أنتيبوس» حاكماً على الجليل، وخضعت يهودا بما فيها أورشليم للحكم المباشر لدولة الرومان، حيث يدير أمورها حاكم رومانى مقره قيصرية (١). وأما الجزء الثالث وهو إيطورية ويقع على مشارف الشام، فقد كان من نصيب «فيلبس أخ أنتيبوس»، وأحد أبناء «هيرود» الكبير.

كان الحكم الرومانى وحشياً استبدادياً، وخير دليل على ذلك أنه عندما بدأ الحكم المباشر فى يهودا، تم صلب ما يزيد عن ثلاثة آلاف ثائر، كما اقتحم الهيكل ودنس ونهب، وفرضت ضرائب ثقيلة، واستخدمت وسائل تعذيب مروعة، وانتحر أناس كثيرون. ولم يتحسن الوضع عندما تولى «بيلاطس البنطى Pontius Pilate» (من عام ٢٦ إلى عام ٣٦ ميلادية)،

---

(١) مدينة قيصرية، كانت من أجمل مدن الساحل الفلسطيني، بناها هيرود الكبير تخليداً لذكرى الإمبراطور أغسطس.

لأنه كان فاسداً قاسياً على عكس ما تصوره الأناجيل.

ولم يكن من الممكن تجنب القوة الرومانية المتقدمة، إذ كان من المستحيل مقاومتها والقضاء عليها. وحالة كهذه جديرة بأن تخلق جواً نفسياً ممزقاً، وتوتراً روحياً يصعب التعايش معه. هذا إلى جانب البؤس الاجتماعى واليأس والتعاسة والمرض بكافة أنواعه من عمى وخرس وصمم وبرص ونزيف وصرع وجنون، وأجساد يقال أن قد سكنتها الشياطين.

لذا اتجهت أفكار الأتقياء من اليهود، ويقال أن أغلب يهود فلسطين آنذاك كانوا من الأتقياء، إلى توقع حدوث معجزة: شئ غامض جليل رهيب لابد وأن يحدث .. المسيح ممثلاً لله لا بد وأن يظهر وبقوة، ومع مجيئه تكون نهاية هذا العالم، كى يبدأ عالم جديد يكون الله نفسه فيه هو الملك. وهكذا يخلص الله شعبه المختار، ويعاقب من طغوا عليه وأذلوه.

ارتفعت صيحات صوفية تترنم بأنشودة الخلاص، وتمجد القادم المنتظر: «قولوا لخائفى القلوب تشددوا لاتخافوا. هو ذا إلهكم. الانتقام يأتى. جزاء الله. هو يأتى ويخلصكم. حينئذ تفتح عيون العمى وآذان الصم تتفتح. حينئذ يقفز الأعرج كالأيل ويترنم لسان الأخرس» (١) .. «روح السيد الرب علىَّ لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين أرسلنى لأعْصب منكسرى القلب لأنادى للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق» (٢).

وقبل أن نناقش مسألة المسح والمسيح، وقدوم المخلص المنتظر، نرى أنه لابد من عرض الفكر الدينى اليهودى فى الفترة التى ظهر فيها يسوع «المسيح».

عندما ننظر من بُعد، كدارسين غير يهود، تبدو لنا اليهودية كما لو

---

(١) إشعياء ٣٥: ٤-٧.

(٢) إشعياء ٦١: ١.

كانت نظاماً بسيطاً واضح المعالم، ذا خطوط فكرية قليلة قوية، وممارسة يمكن وصفها بسهولة، بل يفترض أنها أكثر سهولة فى الفهم. على حين أن اليهودية فى واقع الأمر ليست كذلك، إذا ما نظرنا إليها نظرة متأنية متعمقة.

صحيح أن شريعة موسى فى الأسفار الخمسة الأولى المسماة بالتوراة تبدو جلية لا لبس فيها، إلا أن الحالة النفسية والاجتماعية والسياسية والدينية لليهود قد تأثرت تأثراً شديداً إلى حد الانهيار تقريباً بعد سقوط أورشليم فى الحملة الثانية على يد «نبوخذ نصر Nebuchadnezzar» عام ٥٨٦ قبل الميلاد. ولقد كانت فترة السبى البابلى من أسوأ الفترات فى تاريخ اليهود، إذ سيقت أعداد كبيرة منهم فى الحملة الأولى، بما فيهم الملك «يهوياكين Jehoiachin» [١]، أسرى إلى بابل عام ٥٩٧ قبل الميلاد، وتم ترحيل عدد أكبر أيام «نبوخذ نصر».

بدأت الضربة ساحقة حين سقطت مملكة يهوذا. الذين أخذوا بعيداً كانوا أسرى حرب فى موكب ملك بابل، والذين عادوا أصبحوا رعايا «لقورش» ملك فارس. ولم يكن فى استطاعة الأسرى العائدين أن يقيموا مملكة. لقد سمح لهم بالعيش فى حى من أحياء أورشليم كرعايا للسلطة الفارسية، لا أكثر. ولم تقم مملكة يهودية إلا بعد أربعة قرون من العودة.

أما بخصوص الدين، فلم يكن هناك انفصال عن الماضى، فهؤلاء الذين عادوا جاءوا ومعهم كل ما هو جوهرى فى الديانة القديمة التى مثلها الأنبياء والكهنة، والتى تم التعبير عنها ليس فقط فى الشعائر القائمة، ولكن أيضاً فى الذكريات والتراث الذى يضرب فى عمق الماضى، كما هو مسجل كتابة أو منقول عن طريق الألسنة والشفاة. وبنى العائدون من أرض السبى هيكلاً لكى تقام فيه الشعائر فى نفس موقع الهيكل القديم. ولقد فعلوا هذا، لأن ذلك

(١) يسمي أحياناً «خونيا» الملك اليهودي رقم ١٩، تولي ملك أورشليم عاصمة مملكة يهوذا (٥٩٩ق.م) بعد وفاة والده الملك «يهويا قيم» الذي حكم من عام ٦٠٨ إلي عام ٥٥٩ق.م.

المكان، حسب عقيدتهم، هو المكان الذى اختاره الرب منذ قديم الأزل. لقد كان مع آبائهم، وكان معهم هم أنفسهم فى أرض السبى، وهو الآن معهم كما كان دائماً دون تغيير.

هكذا استمر المحتوى للدين اليهودى بعد فترة السبى، وهو يقوم أولاً وقبل كل شئ على فكرة الإيمان بإله واحد خالد لا إله إلا هو. وقد وضعت فترة السبى نهاية حاسمة للاعتراف بآلهة أخرى. لقد أنكر الأنبياء الأول عبادة الأوثان ونبذوها كخطر يهدد ديانة الأمة، وإثم اقترفه بعض اليهود فى فترات ضعفت فيها عقيدتهم. لكن بعد فترة السبى لم يعد هذا الخطر موجوداً، ومن ثم وقف اليهودى بذاته منفصلاً عن غيره فى إيمانه العميق بالتوحيد، وتطهرت اليهودية، كدين، من آخر آثار الوثنية التى كانت تعلق بها فى بعض الأحيان.

لم يعبد إله اليهودية على أنه إله واحد فقط، ولكنه عُبد أيضاً على أنه إله على صلة خاصة بشعب إسرائيل الذى اصطفاه من بين الشعوب الأخرى، وارتبط به بميثاق عقد فى البداية مع إبراهيم عليه السلام. ومن خلال موسى عليه السلام أوحى الرب لشعبه وبين لهم شريعته وكشف لهم عن إرادته .. راقبهم كشعب .. وباركهم. ولأنه اختارهم كان ينزل بهم العذاب ويعاقبهم كلما عصوه. لم تكن العلاقة بين إله إسرائيل وشعبه مجرد علاقة بين إله حاكم ورعية محكومة، فلقد كان المطلب الأساسى لإله إسرائيل من شعبه مطلباً أخلاقياً: كونوا أبراراً قدوسين لأننى بار قدوس. كان التركيز دائماً على الناحية الأخلاقية .. على الإنسان كما يجب أن يكون.

وقد يقال إن إله (العهد القديم) إله غيور وجبار وباطش ومنتقم. وربما يكون هذا صحيحاً فى البداية، وقد بدا كإله قبلى كبقية الآلهة القبلية الأخرى، ولكنه أصبح فيما بعد إله التقوى والقدسية والرحمة والعدالة،

ومن مفهوم العلاقة بين الله والإنسان فى بنى إسرائيل تولد الشعور بأن هذه العلاقة شديدة القوة، وشديدة الخصوصية، لدرجة تمثيلها بعلاقة الأب بالابن، وما تنم عنه هذه العلاقة من إخلاص وتفان وحب وعطاء. وهكذا أصبح بنو إسرائيل فى معتقدهم يقيناً أبناء الله.

كانت العبادة المنتظمة بكل طقوسها تتمركز فى الهيكل فقط، فى أورشليم، وكان الكهنة الذين يؤدون واجباتهم فى الهيكل يفعلون ذلك نيابة عن كل شعب إسرائيل. على أن واجب بقية الشعب، فى كل مكان بعيداً عن الهيكل، هو المحافظة على العرفين القديمين وهما: مراعاة السبت والختان.

أما فكرة الثواب والعقاب، فقد كانت تتمثل عند اليهود فى الرخاء المادى أو ضيق ذات اليد، حيث يطيع الإنسان ربه أو يعصيه. ولم تكن الديانة، التى عاد بها أهل السبى، تحتوى على أى أثر يشير إلى الإيمان بالبعث أو الخلود، كما أن الأمل فى المستقبل لم يكن يمتد إلى أكثر من الحياة على الأرض. وأما العصر الذهبى الذى تكلم عنه الأنبياء، وارتبط به اسم «المسيح»، فإنه إنما يشير إلى المجتمع الإسرائيلى وهو يعيش سيداً للعالم على الأرض فى وقت ما فى المستقبل.

ومما لاشك فيه أنه قد حدث تغيير بعد العودة من السبى، لكنه لم يكن واضحاً فى البداية، فاليهودية بعد العودة من السبى، تختلف عن الديانة القديمة، ذلك لأنها ركزت تركيزاً أكبر على الفرد فى كل ما يختص بأمور العقيدة، فضلاً عن أنها أنشأت ـ لأول مرة ـ مؤسسة لم تكن معروفة فى الديانة القديمة، ألا وهى المعبد Synagogue ، ذلك الذى أصبحت له أهمية جوهرية ما كان ليتصورها أحد.

ومن المتفق عليه أن الظهور المؤكد للمعبد لم يبدأ إلا بعد فترة طويلة

منذ السبى. ولقد قُدر لهذه المؤسسة أن تلعب دوراً محورياً، ليس فقط فى تاريخ اليهودية، بل فى تاريخ المسيحية أيضاً. لقد أصبح المعبد هو المؤسسة الرئيسية فى اليهودية، وأباً للكنيسة المسيحية فيما بعد.

وجوهر ما يقوم عليه المعبد هو العبادة الجماعية، والتعليم الدينى بواسطة أعضاء الجماعة أنفسهم لا عن طريق الكهنة. ولم يكن من الحتمى وجود مكان منفصل لمثل هذا اللقاء الجماعى، رغم أنه فيما بعد، أصبح من الأنسب والأفضل وجود مكان قائم بذاته، خصوصاً بعد أن أصبح المعبد مؤسسة لها كيانها وثقلها الدينى والاجتماعى. لكن مبنى المعبد لم يكن، كمبنى الهيكل، مقصوراً على مكان خاص لا يمكن تغييره، بل كان من الممكن إقامته فى أى مكان وبأى عدد، طبقاً لمتطلبات اليهود أينما كانوا.

وعلى ذلك، فإنه لكى نفهم كيف كانت البداية الأولى للمعبد، فإنه ليس من الضرورى أن نفترض أكثر من أن قلة من اليهود فى أرض السبى، كانوا يجتمعون هنا وهناك لكى يواسوا ويشجعوا بعضهم البعض.. كانوا بعيدين عن موطنهم، ولم يكن هناك هيكل تتركز حوله أفكارهم وطموحاتهم. لم يكن هناك داع قبل فترة السبى لإقامة أية عبادة جماعية بعيداً عن الهيكل، لكن الحاجة كانت تدعو إلى ذلك وبإلحاح فى أرض بابل لكى لا تموت الديانة موتاً كلياً. كان على يهود السبى أن يحافظوا على استمرارية الدين ولا يمكن القول إنهم كانوا فى وضع يسمح لهم بأن يقدموا على مجهود جماعى فى هذا السبيل. لكن ربما حدث أن شخصاً هنا وشخصاً هناك دعا جماعة من جيرانه وأخذوا يذكرون بعضهم البعض بما كان من تاريخ بنى إسرائيل، ويتدارسون أمور الدين، ويصلون لله كى لا يتخلى عنهم فى تلك الأرض الغريبة، ويتذكرون وعوده ورحمته بآبائهم. وربما تصادف وجود «كاهن» يقرأ لهم شيئاً من بعض الكتابات القديمة المقدسة. وتكررت هذه اللقاءات من حين لآخر لأنهم كانوا فى حاجة ماسة إليها.

وكانت هذه هى البداية الأولى للمعبد.

ومهما كانت بساطة هذه اللقاءات فى بدايتها، فإنها كانت من القوة والحيوية بحيث تم نقلها إلى أرض الوطن بعد أن عاد يهود السبى. وكانت أولى القواعد التى تم تثبيتها هى اللقاء المنتظم كل يوم سبت ، والقراءة من الكتاب المقدس للحضور المجتمعين. وهكذا انتظمت اللقاءات الأسبوعية للعبادة وتعليم الدين، مستقلة تماماً عن الكهنوت والشعائر والأضحيات وخاصية المكان، فأى جماعة من الأشخاص فى حاجة إلى إقامة مثل هذا النوع البسيط من العبادة كان بإمكانهم القيام بها فى أى مكان ولو سمحت لهم مواردهم فإنهم يخصصون مكاناً لاجتماعاتهم، وبذلك أصبح المعبد مظهراً منتظماً من مظاهر الحياة اليهودية. وربما تعتبر عملية إنشاء المعبد من أهم ما حققه اليهود طوال تاريخهم.

وعندما نصل إلى فترة «العهد الجديد» نجد أن المعبد قد عرف على أنه مؤسسة قديمة. هذا وقد انتشرت المعابد فى كل الأماكن التى بها تجمعات يهودية، ليس فقط فى يهودا والجليل، ولكن أيضاً فى معظم مدن الأمم المعروفة آنذاك، حيثما وجد اليهود.

وجنباً إلى جنب تواجد المعبد والهيكل الذى أُعيد بناؤه بعد العودة من السبى، فقد بناه «هيرودس» مرة أخرى قبل بداية (العهد الجديد) أى قبل بشارة يسوع « المسيح ».

كان الهيكل مؤسسة قومية شديدة القداسة .. كما كان المركز الوحيد لإقامة الطقوس الدينية القديمة القائمة على تقديم الذبائح والقرابين .. إنه المكان المقدس المرتبط ارتباطاً وثيقاً بإله إسرائيل. وفى قمة روعته كان الهيكل هو مجد بنى إسرائيل ومحل افتخارهم وكبريائهم، ولم يكن هناك ما ينازعه فى مكانته .

وعلى الرغم من ذلك، فإنه مع مرور الأيام والسنين، أصبح المعبد، بالنسبة للكثرة، يحظى باهتمام وحظوة أكثر من تلك التى يحظى بها الهيكل، فباستثناء هؤلاء الذين يعيشون فى أورشليم، كان اليهود يزورون الهيكل ثلاث مرات فقط كل عام. وعندما كانوا يذهبون إلى هناك، كانوا هم أنفسهم لا يشاركون فى الطقوس إذ كان ذلك مقصوراً على الكهنة فقط. وعلى الرغم من كل العظمة والأبهة والكمال والتمام الذى كانت تقام به الشعائر فى الهيكل، فإن عبادتهم فى المعبد كانت أقرب إلى نفوسهم، فقد كان المعبد ـ كما يقولون ـ بجوار عتبة البيت. ولقد تعودوا بحضورهم المنتظم، أو غير المنتظم أحياناً، على صورة من العبادة تختلف اختلافاً كبيراً عن تلك التى كانت فى الهيكل، إذ كان لكل منهم دور مباشر وهام كبقية جيرانه. ولم يكن فى المعبد من يحتل مكانة كمكانة القس أو راع الكنيسة فى العصر الحديث، ولو تصادف وجود «كاهن» فإنه لا يتمتع بأية ميزة خاصة سوى أن يطلب منه أن يكون أول من يقرأ التوراة، وأن يبارك الجمع، فالديانة فى المعبد، منذ البداية وحتى يومنا هذا، لم تكن ديانة طقوس أو كهنة وكهنوت أو ذبائح وأضحيات، وإنما كان أهم ما يميز المعبد هو التركيز على الفرد وتنمية اهتمامه بالدين.

فى عام ٧٠ بعد الميلاد هُدم الهيكل ودُمر وزال كل ما ارتبط به من طقوس وكهنوت. لكن المعبد استمر فى البقاء وازدهرت العبادة داخله ما يقرب من ستة قرون دون أن تتأثر بسقوط الهيكل. لقد حزن اليهود لفقدانهم الهيكل، ولكنهم تيقنوا أنهم يستطيعون الحياة بدونه، أما المعبد فلم يحلموا فى وقت من الأوقات أن تستمر حياتهم الدينية فى عدم وجوده. وخلال فترة (العهد الجديد) كلها كان المعبد، وليس الهيكل، هو العامل المؤثر فى ديانة الشعب اليهودى.

عامل آخر ساعد على تشكيل يهودية القرون التى تلت السبى،

كـان هذا العامـل هـو تأثير ما يعرف بالتـوراة. والرجل الذى خـلق هذا النفـوذ التوراتى، وجعله فائق الحد فى أهميته فى عصره وفـى كل العصور التى تلته هو «عزرا Ezra» (١).

«التوراة» كلمة عبرية عادة ما تترجم خطأ على أنها تعنى الشريعة، وهى ليست كذلك، وما كانت تعنى ذلك أبداً، وإنما معناها «التعاليم» .. وهى فى البداية وبصفة عامة أى نوع من التعاليم يقدمها شخص ما لشخص آخر، وبصورة أكثر تحديداً وتخصيصاً هى تعاليم الله التى تصل إلى البشر عن طريق كاهن أو نبى. والتعاليم الموحاة، والتى لا ترقى إليها تعاليم أخرى فى اليهودية، هى ما أُنزل على موسى، وسُجل فى الكتب الخمسة الأولى المنسوبة إليه، والتى هى ما تعرف عادة باسم «أسفار موسى الخمسة Pentateuch». هذه الكتب الخمسة كانت ـ وما زالت ـ تعرف باسم «التوراة». وهذا فقط يبين أن كلمة «التوراة» تُتَرجَم خطأ بكلمة «الشريعة»، ذلك لأنه يوجد فى الأسفار الخمسة الكثير مما لا صلة له بالشريعة على وجه الإطلاق.

كـان «عزرا» هو أول من وضع التـوراة فى أعلى وأسمى مراتب الدين اليهودى، إذ أنه عندما عاد من بابل أحضر معه توراة موسى، وهذا يعنى إما أنه أحضر الكتب الخمسة كما نعرفها الآن، أو أنه أحضر فقط مدونة كهنوتية. وعلى أية حال، فلقد أحضر معه ما اعتقد أنه تعاليم إلهية أُنزلت على موسى ليهدى بها الناس.

وفى قراءته لهـذه التعاليم، كـان «عزرا» يسيطر على الجمـوع بوقار تخشع له القلوب، طالباً من مستمعيه أن يحفظوا الكلمات القدسية فى أعمق أعماق نفوسهم، وأن يتحمل كل منهم مسئوليته فى تحقيق كلمة الله. لقد

---

(١) قامت شهرته على قيادة اليهود في العودة من السبي البابلي لإقامة دولة يهودية في فلسطين يعاونه في ذلك زروبابل. جاء إلي أورشليم في الشهر الخامس من السنة السابعة للملك أرتحشتا (عزرا ٧:٦-٨).

أنزلت التوراة لكل بنى إسرائيل، والميثاق القديم الذى تم فى سيناء لم يكن للكهنة فقط بل لكل الشعب، ما علم لا بد أن يحفظ ويطاع، وعلى الجميع أن يحتفظوا بالتوراة ويتقبلوها كأعلى سلطة ترشدهم لطريق الهداية فى الحياة.

ولقد قوبل «عزرا» فى البداية بشئ من المقاومة فى تنفيذ سياسته، وكان ذلك أمراً متوقعاً، ذلك لأنه لو طُبقت كل تعاليم التوراة، فإن علاقة اليهود بغير اليهود فى الوقت الذى عاد فيه «عزرا» كانت لا بد أن تتغير، فالزواج من غير اليهود، على سبيل المثال، كان ممنوعاً منعاً قاطعاً فى التوراة، وعلى ذلك فكل ما تم من زيجات من هذا النوع لابد من فسخها، وما أراده «عزرا» هو إيجاد حد فاصل بين اليهود وغير اليهود. وإذا ما طُبقت كل قواعد التوراة الخاصة بقوانين الزواج والطعام والنظافة ومراعاة السبت، إلى آخر ما جاء من تعاليم، ونفذت تنفيذاً صارماً ، فإن الانفصال الكامل بين اليهود وغيرهم من الأمم يكون قد حدث فعلاً.

كان هَم «عزرا» الأول هو أن يفرض كل تعاليم التوراة فرضاً ودون استثناء، وعلى الجميع الطاعة والتنفيذ، وبالتأكيد لم تكن هذه الموانع والسدود بين اليهود وغيرهم من اختراع «عزرا»، وإنما كانت موجودة منذ القدم، كل ما فعله «عزرا» هو أنه طبقها بقوة وحزم.

استدعت الضرورة شرح التوراة لكى تصبح تعاليمها واضحة وقابلة للتطبيق، وكان لابد، ومنذ البداية، أن يوجد من يستطيع تكريس حياته لدراسة التوراة وتفسير نصوصها. ومن المحتمل جداً أن «عزرا» نفسه فعل ذلك، إذ أطلق عليه اسم «الكاهن الكاتب». ولقد أطلق لقب «كاتب» على كل من تخصص فى دراسة وتفسير التوراة، منذ زمن «عزرا» وما بعده. فالكتبة إذن هم هؤلاء الذين اهتدوا بهدى «عزرا» وجعلوا من التوراة السلطة الأسمى فى سلوك البشر.

أما عن أهم الفرق الدينية اليهودية التى انتشرت فى أرض فلسطين قبل أن يبدأ يسوع «المسيح» رسالته، فقد كان أبرزها: الصدوقيون والفريسيون والإسينيون Essenes والقناؤون Zealots. هذا إلى جانب السامريين والهيرودسيين والمتهودين وعامة الشعب اليهودى الذى لم يطلق عليهم اسم مميز.

والسؤال: كيف نشأت بعض هذه الأسماء؟ وكيف أصبحت معروفة ومميزة؟

لكى نصل إلى إجابة واضحة، يجب أن نرجع إلى الوراء، ونلقى نظرة على ما جاء فى التوراة. كانت التوراة، كما هو منصوص عليه فى كتب موسى الخمسة، تحتوى على توجيهات واضحة بخصوص هذا الأمر أو ذاك، لكنها لم تكن تتضمن نصوصاً تعالج كل القضايا والحالات التى تواجه الشعب اليهودى. وعلى ذلك فقد كان على الكهنة من وقت لآخر أن يمدوا الشعب بالتعاليم الدينية التى يحتاجها كلما تطلبت الضرورة ذلك. هذه التوجيهات أو التعاليم كان يطلق عليها اسم Gezroth ، ولقد كانوا يصدرونها لأنهم منحوا هذا الحق فى التوراة نفسها: «إذا عَسر عليك أمر فى القضاء بين دم ودم أو بين دعوى ودعوى أو بين ضربة وضربة من أمور الخصومات فى أبوابك فقم واصعد إلى المكان الذى يختاره الرب إلهك، وأذهب إلى الكهنة اللاويين وإلى القاضى الذى يكون فى تلك الأيام، واسأل فيخبروك بأمر القضاء. فتعمل حسب الأمر الذى يخبرونك به من ذلك المكان الذى يختاره الرب وتحرص أن تعمل حسب كل ما يعلمونك. حسب الشريعة التى يعلمونك والقضاء الذى يقولونه لك تعمل» (١).

لم يدّع الكهنة أن أوامرهم فى حد ذاتها تشكل جزءاً من التوراة، بل

---

(١) التثنية ١٧ : ٨-١١.

إنها إضافات لما أُنزل على موسى، مصرح بها. والغرض منها هو القضاء فى أمور يواجهها الشعب اليهودى، ولم يشر إليها موسى عليه السلام.

ومع تكاثر هذه «الأوامر» وتزايد عددها أصبح التركيز عليها متزايداً مع قلة التركيز فى نفس الوقت على تعاليم التوراة نفسها، لدرجة أن التوراة مع مرور الزمن أصبحت تبدو وكأنها أثر لمعتقد قديم، لها احترامها وجلالها بالتأكيد، لكن بلا تأثير فعال لما يجب عمله فى تلك الفترة من تاريخ اليهود. وبدأت السلطة الفعلية الحقيقية، رغم أنها ليست الاسمية، تتحول من التوراة إلى «الأوامر»، من الكتاب الذى أنزل من أجل إسرائيل كلها، إلى «الكهنة» الذين كانوا مجرد جزء من إسرائيل.

من هنا كان الخلاف بين الفريسيين والصدوقيين، وهما من أشهر الفرق الدينية وأكثرها نفوذاً وقت ظهور «المسيح». وليس فى أى من هذين الإسمين ما يشير إلى أصول الخلاف الحقيقى بينهما، كما أنه ليس من المؤكد معرفة ما يشيرا إليه.

وكلمة «فريسى Pharisee»، على أية حال، تفيد فى أصلها معنى «المعتزل» أو «المنعزل» أو «المفروز». وقد ذكرت هذه الكلمة لأول مرة حوالى عام ١٠٦ قبل الميلاد، عندما حدث انقسام علنى بين الصدوقيين ومن انفصلوا عنهم أو اختلفوا معهم آنذاك. وربما أطلق عليهم خصومهم هذا الاسم، واستخدموه هم أنفسهم، لأنهم ابتعدوا عن طريق الجماعة ولم يتبعوا السلف. أما بالنسبة لهم أنفسهم فقد كانت الكلمة تعنى فى جمعها المميزين المفضلين عند الله، الذين نأوا بأنفسهم عن جموع اليهود، وذلك بمراعاتهم الصارمة لقواعد الطهارة والنجاسة والطعام والشراب والعشور والقرابين وما شابه ذلك، كى تتطابق حياتهم تطابقاً كاملاً مع ما جاء فى التوراة. وكان من الممكن أن يطلق على الفريسيين أى اسم آخر، وما كان ذلك ليحدث أى

تأثير يذكر على مجريات الواقع. المهم هو أن هؤلاء الرجال كانوا مصممين على أن يجعلوا من التوراة نبراساً لهم ولكل من تصل إليه دائرة نفوذهم.

أما كلمة «صدوقى Saducee»، فهى أيضاً غير معروفة الأصل، وعادة ما يقال إنها مشتقة من اسم «صدوق Zadok» الكاهن الأكبر فى عهد سليمان، وقد استخدمت الكلمة كلقب عام للفرقة التى ينتمى إليها الكهنة من ذوى النفوذ. وربما يكون هذا صحيحاً، لكن كل الكهنة لم يكونوا صدوقيين وكل الصدوقيين لم يكونوا كهنة.

وككل اليهود، كان الصدوقيون يقبلون التوراة، وكانوا مخلصين فى ولائهم لها، لكنهم قصروا ولاءهم على كتب موسى الخمسة ورفضوا كل ما عداها. وحيث أن كتب موسى الخمسة لم تذكر البعث أو الحياة الأخرى أو الملائكة، لذا فإنهم أنكروا وجودها ولم يؤمنوا بها.

من جهة أخرى كان الصدوقيون يتعاطفون مع السياسة القومية، ومن الممكن أن يقال إنهم كانوا ينتمون إلى الطبقة الحاكمة، لو صح هذا التعبير فى بلد حكمه «هيرود»، وسقط فى النهاية فريسة بين مخالب الرومان. على أية حال، ليس من المؤكد أن نقول إن الصدوقيين كانوا حزباً سياسياً، كما أنه من الصعب أن نعتبرهم مذهباً دينياً خالصاً، إذ أنهم حاولوا الحفاظ على سلطانهم الدينى، وكانوا أصحاب الكلمة الأولى فيما يختص بأمور الهيكل، وكأنهم جعلوا من أنفسهم ارستقراطية دينية متميزة، وفى نفس الوقت تقربوا إلى أصحاب السلطان من الرومان وأخذوا عنهم رفاهية الحياة ونعيم العيش.

وعندما حدث الانشقاق بين الفريسيين والصدوقيين، كانت الجماعة الأولى تمثل اتجاهاً دينياً خالصاً، كانوا مسالمين تماماً تجاه أى خلاف، ولم يكونوا أبداً كثرة فى العدد، ففى فترة (العهد الجديد) كانوا حوالى ستة آلاف فريسى، لكن نفوذهم من خلال المعبد كان قوياً على عامة الشعب، وكانوا

يمارسون هذا النفوذ من الجانب الدينى فقط، لا الجانب الوطنى أو القومى.

وإذا كان الصدوقيون قد قبلوا كتب موسى الخمسة ورفضوا كل ما عداها، فإن الفريسيين قد جعلوا من التوراة وتعاليم الآباء حجر الزاوية لعقيدتهم الدينية، وأخذوا على عاتقهم تعلم وتعليم كل ما يجب على الإنسان أن يفعله كى «يسير فى طريق الله». وكلما توصل الفريسيون إلى قاعدة من قواعد الهداية فى مبدأ معين، أطلقوا عليها «هالاخا» أى تشريع.

وتفسير أى «هالاخا»، تلك التى تعنى أى قاعدة من قواعد الدين، يعتبر مسئولية خطيرة، لأنه يصل فى الحقيقة إلى رسم الشريعة لكل من تقبل نظام الفريسيين. ولم يسمح أبداً لمعلم واحد أن يحدد «الهالاخا»، إنما كان هذا يحدث فقط بعد تفكير عميق ومناقشات جادة بين أكثر المعلمين تجربة واحتراماً، وكانوا يصلون إلى القرار بأغلبية الأصوات، وهذه القواعد التشريعية كانت تحفظ جيداً، ينقلها المعلم إلى التلميذ، لهداية الأجيال المتتالية.

وقد تمت هذه العملية قبل فترة «العهد الجديد» عندما قدّم الفريسيون تفسيرهم وشروحهم لأجزاء من التوراة لم تكن قد فهمت أو شرحت من قبل. وهناك إشارة إليها فى «العهد الجديد»، حيث أطلقت عليها عبارة «تقليد الشيوخ»[1]. ولقد أصبحت لهذه الأعراف أهميتها كقواعد للسلوك القويم.

لم يقم الفريسيون بتفسير التوراة من الناحية التشريعية فقط، لكنهم قاموا أيضاً بتوضيح ما فيها من مذهبية لاهوتية، وهذا ما أطلقوا عليه اسم «الهاجادا» أى القصص، فالتعاليم الخاصة بطبيعة «الله» وصفاته وتسييره للكون، وعلاقة الإنسان بربه، تقع كلها فى نطاق «الهاجادا». وهكذا نرى أنه

---

(١) مرقص ٧ : ٣.

بينما كانت «الهالاخا» محددة فى قواعد معروفة للسلوك وملزمة لكل من يتبع النظام الفريسى، فإن «الهاجادا»، لم تتطور أبداً إلى نظام أخلاقى ملزم أو مقنن. وعلى ذلك، فإنه من الخطأ أن نطلق اسم «الشريعة» على «التوراة»، ذلك لأن الشريعة موجودة فى «الهالاخا»، أما «الهاجادا» فليست شريعة، ولكنها ثمرة الخيال المطلق لعقول الأتقياء عندما تخلق بحرية فيما وراء الطبيعية.

ويجب أن يقال إن «الهالاخا» و«الهاجادا» من نتاج العقلية الفريسية، وهما يميزان الفريسيين عن بقية الطوائف اليهودية، كما يجب أن يذكر هنا أن الفريسيين لم يكونوا أصحاب وجاهة أو نفوذ اجتماعى أو سياسى، ولم يسعوا إلى ذلك، فقد كان هذا متروكاً للصدوقيين، لكن تأثيرهم الدينى على مختلف فئات الشعب اليهودى كان واضحاً ومتميزاً.

على أنه كان هناك «كتبة» من الفريسيين، و«كتبة» من الصدوقيين، و«كتبة» لا ينتمون لأى من الفرقتين ، ولقب «كاتب»، كما سبق وأشرنا، قديم قدم «عزرا» نفسه إذ أنه أول من أطلق عليه لقب الكاهن «الكاتب، فقيه الشريعة»، والمقصود بهذا اللقب، كى يصبح أكثر وضوحاً، هو «معلم التوراة». غير أنه كان هناك لقب آخر لمعلم التوراة أيام يسوع ، وهو «ربى Rabbi» ومعناها الحرفى «معلمى». ولم يكن هناك أى اختلاف واضح بين «الكاتب» و«فقيه الشريعة» و«المعلم»، إذ كان عملهم الرئيسى هو تعلم التوراة وتعليمها. وعلى الرغم من أنهم كانوا أكثر الرجال علماً فى عصرهم، فإنهم لم يكونوا طبقة تحترف الاشتغال بالتوراة كمورد للرزق، فقد كان من الممكن للرجل أن يكون «كاتباً»، بينما يعمل بالتجارة أو أية مهنة أخرى.

وكان أغلب الكتبة فى فترة «العهد الجديد» من التجار وأصحاب الحرف، كما كان أغلبهم من الذين درسوا التوراة وعلموها على نحو ما كان

ينهج الفريسيون. لكن ليس معنى هذا أن يكون الكاتب بالضرورة فريسياً، إذ ربما يكون معلماً واسع الخبرة ودارساً للتوراة على طريقة الفريسيين، ويظل رغم ذلك خارج نطاق الجماعة الفريسية. كما كان من الممكن، أيضاً، ألا يتبع الكاتب المنهج الفريسى فى تفسيره للتوراة. ولو وجد كاتب صدوقى فإن دوره كان لايزيد عن نسخ نص التوراة، ذلك لأن الصدوقيين لم يكن لهم منهج فى تفسير التوراة، مثلما كان للفريسيين.

كان تاريخ اليهود أثناء القرن السابق لظهور «المسيح» يتميز بالاضطرابات المتزايدة خصوصاً منذ عام ٦٣ قبل الميلاد، عندما بدأت الحكومة الرومانية تلعب دوراً نشطاً فى السياسة اليهودية.

لم يكن «هيرود» الذى يجلس على العرش يهودياً، وكان عصره مثيراً لمشاعر رعاياه، غير الراغبين فى حكمه، من الناحيتين السياسية والقومية .. كان طموحاً ماكراً، قاسياً مبذراً، وخلال فترة حكمه الطويل (٣٧ـ٤ قبل الميلاد)، سبب الكثير من التعاسة للشعب اليهودى، بسبب استبداده واعتناقه لكل ما هو رومانى، وفرضه ضرائب ثقيلة واستهانته بالديانة اليهودية. هذا هو «هيرود»، كما رآه وأحس به اليهود: المستبد الظالم. ورغم مقدرته الفذة فى إدارة شئون الحكم، إلا أن الذين منحوه لقب «العظيم» لم يكونوا يهوداً.

فى هذه الفترة بدأ الاضطراب يتزايد، ووجد من الأسباب ما يستدعى قيام فرقتين جديدتين هما: الإسينيون Essenes والقناؤون Zealots . وقد يكون الإسينيون فرعاً نما من الفريسية، لكن القنائين لم يكونوا فريسيين على وجه الإطلاق، كما أنهم لم يكونوا صدوقيين، فقد كانوا يمثلون مبدأ وسياسة تختلف تماماً عما يعتنقه أصحاب هاتين الفرقتين .

لقد أثمر الاضطهاد رد فعل فى اتجاهين متضادين: من جهة كان هناك هؤلاء الذين يئسوا من محاولة الحفاظ على دينهم، وسط المخاطر التى

يتعرضون لها فى المدن والقرى، وعلى ذلك فقد اختاروا الانسحاب إلى أماكن منعزلة، حيث يستطيعون إقامة مجتمعات قائمة بذاتها، يمكنهم فيها ممارسة الحياة الدينية التى يرغبونها فى سلام وأمان. هؤلاء كانوا هم الإسينيين. وأصل هذا الاسم، فى حالتهم أيضاً، غير معروف، لكن ربما اشتق من كلمة «آس» بمعنى طبيب، وقد كانوا بالفعل يمارسون التطبيب، ويتميزون بالرداء الأبيض البسيط، وقد بدأ ظهورهم عام ١٥٠ قبل الميلاد.

كان الإسينيون زهاداً فى أسلوب معيشتهم، ويمكن القول إنهم مارسوا نوعاً من الشيوعية فى أسلوب حياتهم بلا رئيس أو مرؤوس، فلقد انسحبوا من عالم موبوء قاس وعاشوا حياة بسيطة مستقيمة صارمة. وقد يقال إن نظامهم هو الفريسية فى أقصى حالات تطرفها، لكن يجب الإشارة إلى أنهم كانوا يختلفون عن الفريسيين من ناحيتين: أولاً زهدهم، ثانياً اعتزالهم. فالزهد أو التنسك لم يكن مقبولاً لدى الفريسيين كمنهج حياة. الفريسى يرى، كما يرى اليهود عامة، أن كل ما أنعم الله به علينا يجب أن نستمتع به، شاكرين وغير مسرفين. إن رفض نعم الله معناه عدم عبادته، وإهمال الجسد والإساءة إليه لا يعتبر تقوى، وقد خلقه الله ليكون فى صحبة الروح.

وما يفرق بين الإسينيين والفريسيين أيضاً هو العيش فى مجتمعات منعزلة، إذ يرى الفريسى أنه من واجب الإنسان أن يعيش فى العالم، حيث خلقه الله وقَدَّر له أن يعيش، وأن يواجه الإغراء والمحن، ويحمل أعباءه، ويتحمل مخاطره، ويعبد الله دون أن ينسحب من دنياه مهما كانت النتائج. لقد عانى اليهود الكثير أثناء حكم «هيرود»، ومن أتى بعده، حتى سقوط أورشليم، ومع ذلك تحمل الفريسيون كل أنواع الاضطهاد دون إجفال ودون مقاومة، بينما وجد الإسينيون راحتهم فى الهرب، وسلامتهم فى الاعتزال. وكقاعدة عاش الإسينيون فى جماعات منعزلة بالقرب من البحر الميت، يعملون بالزراعة والصناعات اليدوية الصغيرة، يحرّمون على أنفسهم التجارة

وحمل السلاح.

ويعتقد معظم الدارسين المحدثين أن لفائف البحر الميت الشهيرة Dead Sea Scrolls هى فى جوهرها وثائق إسينية. ولا يوجد أدنى شك فى أن جماعة النساك الذين عاشوا فى «قمران» كانوا جماعة إسينية، يؤمنون كبقية الإسينيين فى مختلف صوامعهم بفكرة قدوم المسيح المخلص من نسل داود، ويتمسكون بتوقيت خاص يحتفل، طبقاً له، بالفصح يوم الأربعاء، لا يوم الجمعة، وهذا يتفق مع ما جاء فى «إنجيل يوحنا».

وبما أن الإسينين قد انسحبوا من الحياة العامة لمواطنيهم، فمن الطبيعى، إذن، ألا يتركوا أى أثر يذكر على الحياة العامة سواء كان ذلك فيما يختص بالدين أو بأى شئ آخر. ويؤكد كثير من الدارسين أن الإسينيين كان لهم تأثير على المسيحية، ويظهر ذلك بوضوح فى إباحة الكنيسة المسيحية لنظام الاعتزال والرهبنة، ومع ذلك فلم يرد للإسينيين ذكر فى الأناجيل أو حتى فى الكتابات الفريسية. ورغم عدم خطورتهم كجماعة، فإن اعتزالهم يدل دلالة واضحة على نتيجة اضطهاد اليهود فى عصر هيرود وما بعده. إن سلوكهم هو رد الفعل السلبى لهذا الاضطهاد.

وعلى النقيض المفرط من الإسينيين كان القناؤون الذين يمثلون رد الفعل الإيجابى العنيف، فهؤلاء لم يواجهوا الطاغية والطغيان بالانسحاب إلى مكان آمن، بل واجهوه بالثبات والقتال، أحياناً حتى الموت.

إن الاسم Zelotes هو المقابل اليونانى للكلمة العبرية Kannai القناء أى الغيور أو صاحب الحمية المتحمس المقاتل، وأحياناً كان يطلق عليهم اسم Sicarri أى حملة الخناجر.

القناؤون فى الأصل حزب دينى، لكن ما جعل منهم حزباً يحسب له حساب لم يكن الدين فقط ، على أنه يمكن أن يقال إنه الدين من وجهة

نظر قومية. والمؤسس الحقيقى لهذا الحزب أو لهذه الفرقة هو: «يهوذا الجليلى بن حزقيا»، الذى أعدمه «هيرود» فى بداية حكمه بحجة أنه زعيم عصابة من اللصوص. غير أن الذى أطلق عليه «هيرود» (زعيم عصابة)، كان أول من قاد حركة التمرد التى أدت فيما بعد إلى الحرب الكبيرة ما بين عامى ٦٦، ٧٠ بعد الميلاد.

ومما لا شك فيه أن فرقة القنائين قد اتخذت شكلاً محددا ومنظماً، بقيادة «يهوذا الجليلى»، حوالى العام السادس بعد الميلاد. وكانت التوراة بالنسبة لهم، كما كانت بالنسبة للفريسيين والصدوقيين والإسينيين، هى جوهر الدين. وكان هذا هو الأساس المشترك بينهم جميعاً، لكن القنائين لم يجعلوا مهمتهم تفسير التوراة، أو جعلها موضوعاً لدراسة تتسم بالصبر والمسالمة. لقد خرجوا للقتال من أجلها، ليمجدوا إله إسرائيل وشعب إسرائيل كشعب الله المختار، وكانوا على استعداد للقتال والمعاناة والموت.

لم يكونوا فريسيين، ولم يكن من الممكن أن يكونوا كذلك، لأن الفريسيين، تبعاً للمبدأ الأساسى عندهم، كانوا دعاة سلام، يعلمون الخضوع وعدم المقاومة، لإنها إرادة الله فيما يختص بشعبه، حتى ولو عانى من الاضطهاد. كانوا يؤمنون بأن الملك الوحيد الذى يحكم إسرائيل هو الله، ولا يمكن أن يكون هناك ملك غيره. وعندما يرى الملك أن الوقت قد أصبح مناسباً، سيرسل مسيحه ليقيم مملكته، وحتى ذلك الحين يجب ألا يقوم البشر من جانبهم لدفعه أو لإرغامه، لو صح التعبير، على أن يفعل ذلك.

ومن المعروف أن مركز قيادة القنائين كان فى الجليل، وأن «يهوذا» مؤسسها كان من تلك المنطقة. وعلى ذلك فالقناؤون كانوا هم الفرقة الوحيدة التى أتاحت ليسوع الفرصة للاتصال بهم، حيث لم يكن فى الجليل صدوقيون، إذ كان مقرهم أورشليم العاصمة حيث الهيكل، وكان عدد

الفريسيين فى الجليل قليلاً، أما الإسينيون فقد عاشوا فى الصحراء بالقرب من البحر الميت ولم تكن لهم صلة بالجليل، وباستثناء القنائين، كانت اليهودية هناك فى الجليل يمثلها العامة.

بعد القنائين يأتى الهيرودسيون الذين جاء ذكرهم فى «إنجيل متى»: «حينئذ ذهب الفريسيون وتشاوروا لكى يصطادوه بكلمة، فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيرودسيين قائلين يا معلم نعلم أنك صادق» (١). كما ذكروا أيضاً فى «إنجيل مرقص»: «ثم أرسلوا إليه قوماً من الفريسيين والهيرودسيين لكى يصطادوه بكلمة»(٢). ومن المحتمل أن قد جاء ذكرهم فيما قاله يسوع لتلاميذه، طالباً منهم أن يتحرزوا «من خمير الفريسيين وخمير هيرودس» (٣).

لكن باستثناء الحقيقة الواضحة عن صلتهم «بهيرودس» لا يوجد ما يدل على طبيعة الهيرودسيين أو ما يمثلونه من مبادئ وآراء ولا توجد حقائق مؤكدة تدعم الرأى القائل: (إن الهيرودسيين كانوا يؤمنون بأن هيرودس العظيم هو المسيح)، فليس من المؤكد أنهم كانوا حزباً دينياً، ومن المحتمل أنهم لم يكونوا يهوداً.

أما العامة من الشعب اليهودى، فقد كان الفريسيون يشيرون إليهم على أنهم Amha-aretz أى «أهل الأرض»، وهذا ليس اسم حزب أو فرقة، لكنه يشير إلى كل اليهود الذين لم يصلوا فى فهم نصوص التوراة وتطبيقها إلى المستوى الفريسى. و«أهل الأرض» أو «العامة» عموماً قد تعنى كل اليهود الذين لم ينطووا تحت لواءات محددة توضح وضعهم الدينى، وأيضاً هؤلاء الذين لم ينالوا حظاً من التعليم الدينى.

---

(١) متي ٢٢:١٥.
(٢) مرقص ١٢:١٣.
(٣) مرقص ٨ : ١٥.

ومن الواضح أن «أهل الأرض» لم يكونوا نوعية واحدة فيما يختص بالناحية الاجتماعية أو الاقتصادية، فقد كان بينهم الغنى والفقير، والرأسمالى والعامل والتاجر والفلاح والحرفى وجابى الضرائب. ولم يكن أى منهم مرغماً على الذهاب إلى المعبد، فكان منهم من يذهب، ومنهم نادراً ما يذهب، أو لا يذهب على وجه الإطلاق .. هؤلاء الذين كان يسوع يشير إليهم على أنهم غنم بلا راع: «فلما خرج يسوع رأى جمعاً كثيراً فتحنن عليهم إذ كانوا كخراف لا راعى لها فابتدأ يعلمهم كثيراً»(١). وكان جديداً وغريباً عليهم أن يروا يسوع وهو يذهب إليهم أينما كانوا فى الحقول أو بجانب البحيرة أو على جانب التل أو فى طرق بعيدة.

ونختتم موضوع الطوائف والنحل اليهودية بإشارة عابرة إلى المتهودين والسامريين. أما المتهودون أو المهتدون حديثاً فهؤلاء هم الأشخاص الذين اعتنقوا الديانة اليهودية وكانوا من قبل يتبعون بعض صور من الديانات الوثنية، ومن الواضح أنهم لم يكونوا حزباً أو نحلة. لقد أقدموا على اعتناق الديانة اليهودية، وكان بإمكانهم أن ينضموا إلى أى من الفرق السابقة، لكنهم كانوا من الناحية الفعلية أقرب إلى الفريسيين ، ذلك لأن المعبد «المجمع» كان هو العامل الأول فى تعليم اليهودية لمن يريد أن يتعلم .

وأما السامريون فهم خليط من اليهود والآشوريين، لا يعترفون إلا بكتب موسى الخمسة، ويعتقدون أنهم دون غيرهم هم «الإسرائيليون»، وقد أقاموا هيكلاً خاصاً بهم فى «جرزيم».

ومن الأهمية بمكان قبل أن نختتم هذا الفصل، أن نناقش بعض المعتقدات الرئيسية فى الديانة اليهودية، حيث إن قارئ الأناجيل يجد بها الكثير من الإشارات والأفكار اليهودية، فالجو العام فى الأناجيل الثلاثة الأولى

---

(١) مرقص ٦ : ٣٤.

يهودى. وبالنسبة لـ «العهد الجديد» عموماً، لو أبعد العنصر اليهودى، فإن ما يتبقى منه يصبح غير مفهوم وبلا معنى.

إن كل الأشخاص الرئيسيين ـ تقريباً ـ الذين أسهموا فى قيام المسيحية كانوا يهوداً. ويجب ألا ننسى أن «يسوع» نفسه كان يهودياً، ولا يبدو أنه اعتبر نفسه غير ذلك أبداً. وعلى الرغم من أنه كان قد انتقد ـ بقسوة ـ المعلمين الدينيين فى عصره، فإنه كان يشاركهم الكثير من معتقداتهم.

وتمثل آراء الفريسيين، إحدى الفرق الدينية اليهودية التى سبق أن أشرنا إليها، اكتمالاً لم يعرف لغيرها من الفرق الأخرى التى تمثل اليهودية، فلقد تركت هذه الفرقة تراثاً ضخماً ناقشت فيه العقيدة بكل أبعادها، على حين لم يترك الصدوقيون تراثاً من نفس النوع، وربما لم يتركوا شيئاً على وجه الإطلاق. أما الإسينيون فلهم كتبهم المقدسة، وما تحتويه تلك الكتب غير معروف. وأما القناؤون فقد تركوا الكثير من الكتب، لكنها غير معتمدة Apocryphal.

خلال فترة ما بين السبى وظهور «يسوع»، استخدمت لأول مرة، عبارة «الأب الذى فى السماء»، فى المناجاة مع الله أو فى الحديث عنه، فقد استخدمها الفريسيون منذ زمن طويل قبل ظهور «يسوع» وأصبحت العبارة مألوفة فى لغة المعبد. وكان من الطبيعى أن يتعلم «يسوع» استخدامها، ومن خلاله استخدمها المسيحيون، وما زالوا حتى اليوم. على أن أول من نطق بها واستخدمها، كانت شفاه اليهود.

وهنا يثار سؤال: هل كانت عبارة «أبينا الذى فى السماء»، تشير إلى أن الله هو أب لكل البشر، أم لليهود فقط؟ يعتقد اليهود أن البشر يعيشون دون تلك المعرفة عن الله، وهى التى أوحى بها فى التوراة لبنى إسرائيل. الله، إذن، هو الأب الذى فى السماء بالنسبة لكل البشر، لكن اليهود فقط هم الذين

يدركون ذلك ويعرفونه عن يقين، وكانوا يرددون هذه العبارة دائماً كلما ذهبوا إلى المعبد للصلاة، ولم تكن عبارة «الأب الذى فى السماء» فقط هى المستخدمة فى الإشارة إلى الله، إذ كان هناك الاسم القديم «يهوه Jah-veh»، غير أن استخدام هذا الاسم كان مقصوراً على الكهنة فى طقوس الهيكل. وعلى ذلك، فعندما كان «يسوع» يتحدث كثيراً عن أبيه الذى فى السماء فإنه لم يكن قد ابتدع فكراً جديداً، وإنما سار طبقاً للفكر اليهودى الفريسى الذى نشأ عليه وتعلمه (١).

ونأتى الآن لفكرة البعث، تلك العقيدة التى تقوم عليها المسيحية فى جوهرها، فقد كان الاعتقاد السائد فى البداية، أن أرواح الموتى تذهب إلى «عالم الموتى السفلى Sheol»، حيث تبقى فى حالة شبحية دون أمل فى تغيير أو خلاص. أما كيف ومتى بدأت فكرة الإيمان بالبعث فى العقلية اليهودية، فهذا ما يمكن أن يقع فى إطار التخمين.

تميزت الفترة ما بين «عزرا» و «العهد الجديد» بحياة دينية مكثفة، خصوصاً بالنسبة للفريسيين ومن يعتنقون أفكارهم. وبدأت فكرة بعث الموتى تتخذ شكلاً واضحاً: هناك أمل فى عالم الموتى السفلى، لأنه يأتى يوم فى مستقبل الزمن ينادى فيه على الأموات كى يعودوا للحياة من جديد.. والوقت الذى سيحل فيه بعث الموتى هو، بالطبع، عصر المسيح .. غير أن حياة البعث هذه ستكون على الأرض، هذه هى فكرة البعث فى أبسط صورها.

وكان إيمان الفريسيين بالبعث، هو إيمان ببعث الروح والجسد معاً، وليس مجرد إيمان بخلود الروح. وطبيعة الإنسان البشرية تتكون من جسد وروح، وكلاهما، من وجهة نظرهم، من أصل مقدس. وإعادة إنسان ميت إلى الحياة، يستدعى بالضرورة إعادته جسداً وروحاً، وإلا فإن الإنسان الذى

---

(١) نناقش هذه الفكرة بتوسع فيما بعد .

سيعاد إلى الحياة، فى هذه الحالة، لن يكون إنساناً. ثم طور الفريسيون عقيدتهم فى البعث، فلم يتخلوا أبداً عن إيمانهم بمقدم المسيح وعصره الذهبى بالنسبة لليهود، إلا أنه بجانب هذا بدأت الإشارة إلى حياة أخرى فى المستقبل، حياة فى السماء لا على الأرض، وعندها يحكم على الأخيار والأشرار ويكون الحكم بالسعادة أو الشقاء حكماً أبدياً.

أما «الصدوقيون» الذين كانوا يحتلون مكانة بارزة فى المجتمع اليهودى فى فترة «العهد الجديد»، فقد كانوا ينكرون بعث الموتى ولا يؤمنون بالملائكة أو الشياطين، لكنهم كبقية اليهود، كانوا يؤمنون بما جاء فى التوراة، أى كتب موسى الخمسة، واكتفوا بالسير فى الدروب القديمة. وكانوا يشكون فى أى تجديد سواء كان ذلك فى أمور العقيدة أو السلوك، كما أنهم لم يبذلوا أى مجهود، بل لم يحاولوا شرح معنى، أو زيادة نفوذ التوراة، كما فعل الفريسيون. وكانوا محافظين فى أمور الدين، يلتزمون بمراعاة التقاليد الرسمية، ولم يقوموا بأى جهد لتعليم الناس. على أن نفوذهم كان كبيراً، من خلال قيامهم، تقريباً، بكل طقوس الهيكل. وكان الهيكل فى إدارته وصيانته وطقوسه، إنما يعتمد، أساساً، على الصدوقيين الذين ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بأسر الكهان العظام.

حقاً أنه كان الهيكل، فى بداية «العهد الجديد»، فى قمة مجده، كحرم دينى مقدس، ذائع الصيت. كما كان «هيرود العظيم» قد جدّد بناءه بصورة رائعة. على أن اليهود كانوا يعتقدون أن الهيكل فى البدايات الأولى كان مجرد خيمة يتجلى الرب فيها للأنبياء والكهان، وينزل عليهم وحيه. ثم تحول الهيكل الخيمة إلى هيكل من خشب، يمكن فكه ونقله إلى أى مكان، وقد حدث هذا أيام التيه. ثم بنى سليمان هيكله الذى ارتفع قدره وسما شأنه حتى هدمه البابليون، بعد أن ظل شامخاً ما يقرب من أربعة قرون.

وفى عام ٥٣٦ قبل الميلاد أمر «قورش» ملك فارس بإعادة بنائه، وبعد خمسة قرون جدده «هيرود» وأضاف إليه.

كان الهيكل من الناحية الخارجية، على الأقل، أبدع وأروع مايتفاخر به اليهود، كما كان من أعظم المواطن التى تستحق المشاهدة فى عالم ذلك الزمان، حيث يفد إليه المسافرون الذين لا صلة لهم باليهودية، هذا بالإضافة إلى الجماهير الغفيرة التى كانت تذهب إلى أورشليم فى الأعياد الثلاثة الكبيرة كل عام. وكان على كل فرد أن يدفع نصف «شاقل» (وهو ما يساوى خمسة عشر قرشاً فى ذلك الزمان) مساهمة فى دعم الهيكل. وبعد هدمه تحول النصف شاقل إلى ضريبة تدفع للحكومة الرومانية.

على أن نظام الهيكل كمؤسسة قديمة ذات شهرة واسعة، كان لا يخلو من الفساد والانحطاط فى بعض العادات البعيدة كل البعد عن الروحانية، كالاتجار فى الماشية وبيع العملة. وكان هذا الاتجار على نطاق واسع بحيث استدعى لوم «يسوع» وقسوته فى التعامل مع القائمين به، إذ أن هذا السلوك فى البيع والشراء، داخل معبد مقدس، يبدو غير لائق تماماً، ويتناقض مع ما يتسم به الدين من روحانية خالصة. أما إذا وضعنا هذا السلوك فى إطاره، لا كسلوك مستقل بذاته، فإننا نجد أنه كان يشكل ركناً أساسياً من أركان الديانة اليهودية. فالعابد المتعبد يريد أن يجد ما سيضحى به من ماشية، فى نفس المكان، كما أنه فى حاجة إلى أن يغير عملته المحلية بالعملة المتداولة فى أورشليم، على الأقل كى يدفع ضريبة الهيكل. ومن الناحية النظرية، لا الفعلية، لم تكن هذه العمليات من أجل الربح الخاص، مثل العمليات التجارية البحتة، بل كان الكهنة يقومون بها لخدمة الهيكل من جهة، ولخدمة المتعبدين من جهة أخرى. أضف إلى ذلك أنهم لم يكونوا يقومون بهذه الأعمال داخل الهيكل نفسه، بل كانوا يقومون بها فى الساحة الخارجية المعروفة باسم «ساحة الجويم»، ولم تكن لها أية قدسية، وإنما كان يدخلها

الجوييم، أى غير اليهود، بحرية كاملة.

وكانت إدارة «الهيكل» والقيام على شئونه تتطلب عدداً كبيراً من الكهنة واللاويين من سلالة هارون، وكان على رأسهم جميعاً الكاهن الأعظم (رئيس الكهنة)، وكان منصبه فى الأزمنة الأولى، وراثياً. غير أن هذا المنصب منذ زمن «هيرود» وحتى سقوط الهيكل كان عرضة لتغيرات متعددة وفجائية حسب ما يرتئيه الملك أو الحاكم الرومانى، لدرجة أنه أصبح من الممكن، فى بعض الحالات، وجود أكثر من شخص فى منصب رئيس الكهنة. ومن الكهنة العظام الذين ورد ذكرهم فى «العهد الجديد» نجد «حنانيا Hananiah وقيافا Caiapha »، وهما مذكوران معاً، إذ كان حنانيا أبا لزوجة قيافا. وفى إنجيل لوقا كان يوسف قيافا هو الذى يحتل المنصب رسمياً، وظل يشغله، تقريباً، من عام ١٨ إلى عام ٣٦ بعد الميلاد.

ويقوم «الهيكل» وسط ساحة واسعة مسورة، تسمى «ساحة الجوييم»، وتقود هذه الساحة من خلال بوابة كبيرة إلى ثلاث ساحات أخرى، هى : ساحة النساء، وساحة إسرائيل، وساحة الكهنة. أما الأولى فكانت تسمى ساحة النساء لأنها كانت الساحة الوحيدة التى يسمح بدخول النساء إليها، فى الوقت الذى لم يكن يسمح لهن بدخول الساحتين الأخريين إلا لأغراض خاصة. ونتج عن ذلك أن اليهود من الجنسين ومن مختلف الأعمار كانوا يجتمعون فى ساحة النساء، وكانت تلك الساحة هى الجزء المستخدم، من الهيكل، بصورة عامة وباستمرار. وفى هذه الساحة كذلك كانت الجماهير تلتقى فى كل المناسبات المثيرة للاهتمام. وعندما صاحت الجماهير «أوصنا لابن داود» عند دخول «يسوع» إلى الهيكل، كانوا فى هذه الساحة، وفيها أيضاً كان «يسوع» يجلس يومياً ويعلم.

ويرتبط بالهيكل ارتباطاً وثيقاً ما يسمى بـ «المجمع المقدس» وهى

ترجمة غير دقيقة للكلمة العبرية «السنهدرين»، تلك التى يجب أن تستخدم كما هى ، وما تشير إليه هو «المجمع الأعلى» تحت رئاسة الكاهن الأعظم. ومنذ تأسيسه، ربما فى عام ١٩٠ قبل الميلاد، وحتى بداية حكم هيرود كان السنهدرين يتمتع بنصيب كبير فى إدارة شئون الحكم غير أنه قد نزعت كل سلطاته تقريباً أثناء حكم هيرود ومارسها الملك، ولم يسمح الرومان للسنهدرين بالعمل إلا فى أضيق الحدود، وانتهى وجود السنهدرين بعد سقوط أورشليم عام ٧٠ بعد الميلاد.

وعلى أية حال كان السنهدرين، طوال مدة وجوده، يمثل ما يمكن تسميته بـ «المجلس الأعلى للدولة». وإذا كانت أهميته السياسية قد اختفت تقريباً، فإنه ظل يحتفظ بقدر كبير من قوته التشريعية، إذ كان بإمكانه أن يصدر حكماً بالموت. وعلى الرغم من أنه كان يصدر الحكم، فإنه كان لا يملك القدرة على التنفيذ. ففى حالة عقوبة الموت، كان لا بد من الحصول على موافقة الحاكم الرومانى، أو على الأصح لو ثبت الحكم، كان ينفذ بأوامر الحاكم ويقوم ضباطه بذلك، ما عدا حالة الرجم.

وكان من المفترض أن يتكون السنهدرين من سبعين عضواً، بالإضافة إلى رئيس الكهنة. إلا أنه ليس من المؤكد إن كان هذا يمثل الحقيقة أم لا. وكل ما يمكن قوله: أنه كان يضم أفضل الشخصيات البارزة، خصوصاً هؤلاء الذين يرتبطون ارتباطاً وثيقاً برئيس الكهنة، وبعض أصحاب النفوذ، ولم يكن للفريسيين أغلبية فى السنهدرين، إذ كان أعضاؤه فى مجملهم ينتمون إلى طائفة الصدوقيين، وهؤلاء هم الذين حكموا على «يسوع» بالموت.

الفصل الثاني

الأناجـــيل

الفصل الثانى

الأناجيل

قبل أن نبدأ الكتابة عن حياة يسوع «المسيح» لا بد من الإشارة إلى الأناجيل، إذ أنها تعتبر المرجع الدينى الوحيد فى هذا المجال. وقد كتبت الأناجيل بلغة ما عرفها يسوع وما تحدث بها أبداً، وهى اللغة اليونانية. كلمة إنجيل، إذن، كلمة يونانية ومعناها: الخبر السار أو البشارة. والأناجيل المعتمدة، من بين الأناجيل الموجودة حالياً، هى: «إنجيل مرقص» و «إنجيل متى» و«إنجيل لوقا» و «إنجيل يوحنا». ويدعى البعض أنه فى الفترة ما بين عام ٢٠٠ و ٣٠٠ ميلادية، وجد ما يزيد عن ٢٤٠ إنجيلا، وفى رواية أخرى أربعة آلاف إنجيل أو أكثر. وقد تم اختيار هذه الأناجيل الأربعة من بينها، على أنها هى الأناجيل المعترف بها، أى المعتمدة، وتحريم استخدام بقية الأناجيل، بل وتشديد العقوبة على من يستخدمها إلى حد الموت. وقد تمت عملية اختيار الأناجيل الأربعة المعترف بها فى «مجمع نيقية Nicene Council» تحت رعاية الامبراطور الوثنى قنسطنطين Constantine [1].

١- إنجيل مرقص: عادة ما ينظر إلى «إنجيل مرقص» على أنه أقدم الأناجيل، وقد كتب حوالى عام ٧٠ ميلادية، أى فى فترة ما أثناء التمرد الذى حدث فيما بين عامى ٦٦ و ٧٤ ميلادية. وكاتب هذا الإنجيل غير معروف على وجه التحديد، ومن ثم لم تكن له أية صلة أو معرفة شخصية

---

(١) عقد هذا المجمع في مدينة روما عام ٣٢٥ ميلادية، وهذا هو المجمع الأول الذي كان له أثر بعيد في حياة التدين المسيحي، وهو أخطر في شأنه من كل مجمع، لأنه بدأ التخطيط لعقيدة التثليث. ومن أخطر المجامع التي لها صلة بقضايا التثليث، إلي جانب مجمع نيقية، مجمع قسطنطينية الأول المنعقد في سنة ٣٨١م، ومجمع إفسوس المنعقد في سنة ٣٤١م، ومجمع خلقيدونية المنعقد في سنة ٤٥١م.

بيسوع، كما أنه لم يكن من بين تلاميذه المقربين، لكن يبدو أنه قد عاش فى أورشليم، ويبدو أيضاً أنه قد رافق «بطرس Peter» ودوّن ما سمعه منه دون ترتيب أو تنظيم.

وإذا كان «مرقص» من أهالى أورشليم، كما يقرر كلمنت Clement الاسكندرى، فإن إنجيله قد ألف فى روما باللغة اليونانية، وقد توجه به إلى جمهور يونانى رومانى. وعلى ذلك فقد اتخذ فى أسلوبه منهجاً يضمن له البقاء، فإذا كان «مرقص» يرغب فى أن يبقى إنجيله، ويكون له تأثير على الشعب الرومانى، فإنه لم يكن فى استطاعته أن يقدم «يسوع» كثائر أو متمرد أو حتى كمعترض على السلطة الرومانية، وما كان بإمكانه أن يظهر «يسوع» كصاحب توجهات سياسية. ولكى يضمن بقاء الرسالة فإنه كان مضطراً أن يعفى الرومان تماماً من إثم موت «يسوع»، ويضع اللوم كله على بعض اليهود. وقد تم اتباع مثل هذا الأسلوب، ليس فى الأناجيل الأخرى فقط، بل فى الكنيسة القديمة أيضاً، ولولا هذه الطريقة فى عرض الدعوة ما عاشت الكنيسة وما استمرت الأناجيل.

٢ـ إنجيل لوقا: هناك إجماع على تفضيل «إنجيل مرقص» ووضعه فى الأولوية، كذلك توجد حقيقة مؤكدة، هى أن «متى» و «لوقا» استخدماه عند كتابة إنجيليهما. يعتقد الدارسون أن «إنجيل لوقا» يرجع إلى حوالى عام ٨٠ ميلادية. وقد صاحب «لوقا» «بولس الرسول Saint Paul» ودوّن ما سمعه منه، بالإضافة إلى ما أخذه من «إنجيل مرقص». ويبدو أن «لوقا» نفسه كان عالم لاهوت يونانياً، وكان عليه هو أيضاً أن يرضى الرومان ولا يكتب ما يسئ إليهم. ولقد سنحت له الفرصة كى يستفسر ويبحث بنفسه فى أرض فلسطين ويلتقى بشهود من الدرجة الأولى، وعلى ذلك فقد كتب إنجيله على أساس من المصادر المكتوبة بالإضافة إلى استفساراته الشخصية.

٣- إنجيل متى: فى الوقت الذى كتب فيه «إنجيل متى» ، حوالى عام ٨٥ ميلادية [١] كان إبعاد اللوم عن الرومان قد أصبح قاعدة راسخة وغير قابلة للتساؤل. والواقع أن أكثر من نصف «إنجيل متى» مأخوذ مباشرة من «مرقص» ، وقد أُلف أصلاً باليونانية، ويعكس ملامح يونانية محددة. ويبدو أن المؤلف كان يهودياً، من المحتمل أنه لاجئ من فلسطين. كما أنه يجب عدم الخلط بينه وبين الحوارى الذى يحمل نفس الاسم، والذى عاش قبله بزمن، ومن المحتمل كذلك أنه لم يكن يعرف الآرامية.

وتعرف أناجيل : «مرقص» و «لوقا» و «متى» باسم أناجيل المقابلة Synoptic Gospels أى الأناجيل المتشابهة النظرة أو المحتوى أو الترتيب، وهى بالطبع ليست كذلك على الرغم من وجود الكثير من التشابهات فيما بينها، الأمر الذى يوحى أنها مشتقة من أصل واحد مشترك، قد يكون تراثاً شفوياً، أو يكون وثيقة قديمة فقدت ولم يعد لها وجود، ويقال إنها نسخة بدائية آرامية تسجل أقوال «يسوع» يشار إليها حالياً بحرف Q ، الحرف الأول من كلمة Quelle الألمانية، ومعناها «الأصل» أو «المنبع». وهذا هو ما يفرق بين هذه الأناجيل، وإنجيل «يوحنا» الذى ينم عن أصول مختلفة.

٤- إنجيل يوحنا: لا يعرف أى شئ من أى نوع عن مؤلف الإنجيل الرابع، وليس هناك سبب يدعو إلى تسميته بـ «إنجيل يوحنا» ، وباستثناء يوحنا المعمدان، فإن الاسم لايذكر فى أى مكان فى الإنجيل نفسه. وعلى أية حال فإن إرجاعه إلى شخص اسمه «يوحنا» قد أصبح مقبولاً فى التراث بصورة عامة.

و«إنجيل يوحنا» هو أحدث أناجيل «العهد الجديد» كتب حوالى عام

---

(١) لا يمكن تحديد تاريخ كتابة أي من الأناجيل بصورة قاطعة، ويقال أن إنجيلي لوقا ومتي قد كتبا في الفترة ما بين عامي ٧٠، ٩٠ ميلادية.

مائة ميلادية، فى منطقة مجاورة لمدينة «إفسوس Ephesus» اليونانية. ولهذا الإنجيل عدة ملامح محددة وواضحة، فعلى سبيل المثال لا يوجد به أى وصف لميلاد «يسوع»، كما أن مضمونه يختلف أيضاً: تركز الأناجيل الثلاثة الأولى على نشاط يسوع فى المنطقة الشمالية من الجليل، ويبدو التركيز ثانوياً على ما يحدث فى الجنوب، أى فى يهودا وأورشليم، بما فى ذلك عملية الصلب، أما الإنجيل الرابع، على العكس من ذلك، يذكر القليل نسبياً عن الجليل، ويركز على الأحداث فى يهودا وأورشليم حتى نهاية حياة «يسوع». وأما ما يحكيه عن عملية الصلب فربما يعتمد على شهود عيان، كما أنه يحتوى على مجموعة من الأحداث لا توجد فى الأناجيل الأخرى مثل : حفل الزواج فى «قانا Cana»، وكذا الدور الذى قام به يوسف الراماتى [1]، ومعه نيقوديموس، فى عملية دفن «يسوع».

وعلى هذا الأساس يقترح بعض الدارسين المحدثين أن «إنجيل يوحنا»، رغم أنه الأخير فى تاريخ كتابته، فإنه ربما يكون أكثر الأناجيل دقة من الناحية التاريخية، ويمكن الاعتماد عليه والثقة فيما جاء به، بصورة يتفوق بها على الأناجيل الثلاثة الأخرى.

ويفضل الدارسون والنقاد أن يكون ترتيب الأناجيل على النحو التالى: إنجيل مرقص يليه إنجيل متى، ثم إنجيل لوقا فإنجيل يوحنا.

والوثائق التاريخية مهما كان نوعها، كتلك التى تصدر عن شهود عيان أو مصادر موثوق بها، لا يمكن أن تكون معصومة من الخطأ، إذ أنها قد تتعارض وغالباً ما تختلف فى التفاصيل، ولا يمكن استثناء الأناجيل من مثل هذه الاختلافات.

إن الادعاء بأن الأناجيل الأربعة معصومة عصمة كلية، يعتبر كارثة، إذ

---

(١) نسبة إلي الرامة، مدينة في فلسطين (د. محمد النجار).

أن القديس «لوقا» والقديس «متى» كانا يستخدمان ما كتبه «مرقص» ويصححانه، كما قام «يوحنا» بتصحيح الجميع. ومن الواضح أن كلا منهم، يعتبر أن ما كتبه صحيح، لكنه لا يمكن أن يصل إلى حد العصمة، ومن ثم فهناك اختلاف فى التفاصيل. غير أن هذه الاختلافات لا تمس النقاط الأساسية، فالشخصية الرئيسية كما تصورها الأناجيل، هى نفس الشخصية ببشريتها وقدسيتها: ابن الله وابن الإنسان، بتكوينها الطبيعى، ومعجزاتها الخارقة للطبيعة.

وهنا يمكن إثارة مشكلتين على جانب بالغ من الأهمية هما:

أولاً ـ هناك المشكلة اللغوية، فقد تكلم «يسوع» بلهجة عبرية، هى الآرامية، على حين كتبت الأناجيل باللغة اليونانية (١).

ثانياً ـ هناك مشكلة الوقت، فقد مات «يسوع» حوالى عام ٣٠ ميلادية، ولم يكتب أول الأناجيل إلا بعد ذلك بأربعين عاماً ـ على الأقل.

أما «يسوع» فقد كان يستخدم لهجة محلية، وهذا معناه أن كل أقواله وأفعاله قد نقلت بهذه اللهجة فقط، وهى الآرامية، كما قلنا من قبل، وأما النصوص الأصلية للأناجيل كلها، فهى مكتوبة باللغة اليونانية، ولا يوجد على وجه الإطلاق ما يثبت أنها مترجمة عن نصوص آرامية قديمة، وتأسيساً على ذلك فإن رجالاً يتحدثون لغة مختلفة، هم الذين قاموا بنقل الرسالة المسيحية. على أن الأمر الواضح أنه كان من المستحيل التأكد من صحة النصوص، أو من سلامة جوهر الرسالة، وطبقاً لهذا الاعتقاد، فإنه يصبح من

---

(١) الحقيقة أن سكان فلسطين في عهد المسيح قد تخاطبوا بلغات أهمها: اللغة العبرية، واللغة الآرامية، واللغة اليونانية، وكانت الآرامية، أسبق اللغات انتشاراً في فلسطين، تليها العبرية، ثم اليونانية (د. محمد النجار).

المستحيل تقريباً عدم إثارة الشك فى أن شيئاً من سوء الفهم أو التحريف قد أصاب الرسالة الأصلية.

ويزداد هذا الشك عندما نتذكر أن أربعين عاماً قد مرت بين موت «يسوع» وظهور أول إنجيل، أربعين عاماً كانت كلمات «يسوع» خلالها تنقل عن طريق الرواة. ومن هنا تكمن الصعوبة فى معرفة أى شئ حقيقى مؤكد، يمكن الاعتماد عليه عن حياة «يسوع» عندما يكون التراث شفهياً وغير معروف المصدر، ولم تتم كتابته إلا بعد مدة طويلة، وبلغة غير اللغة التى كان يستخدمها «يسوع».

ويكمن السبب الرئيسى لتأخير عملية كتابة الأناجيل فى النظام الاجتماعى للجماعات المسيحية الأولى .. فى أن غالبية المسيحيين الأول إنما كانوا ينتمون إلي الطبقة الفقيرة، وربما إلى أدنى طبقات المجتمع .. قرويين من عبيد الإقطاع وصيادين وحرفيين، وما إلى ذلك .. وهؤلاء بالطبع لم يكونوا يملكون الرغبة أو المقدرة على الكتابة. كما أن المسيحيين الأول لم يرد على خاطرهم أبداً أن تاريخ الكنيسة سيمتد على الأقل لمدة ألفى عام، فقد كانوا، نتيجة لبؤسهم الاجتماعى والروحى، يتوقعون حدوث المعجزة الكبرى فى أى يوم، وفى أية لحظة، عندما يعود المسيح «جالساً عن يمين القوة، وآتياً على سحاب السماء» (١)، كى يضع نهاية لشرور هذا العالم. غير أنه قد مرت السنون ولم يعد المسيح، وتحقق هؤلاء المسيحيون من أن أملهم هذا لايزيد عن كونه مجرد وهم، وأن عليهم أن يتعايشوا مع ظروفهم، وأن يعدوا أنفسهم لفترات أطول فى التاريخ.

كان الجيل الأول من المسيحيين، الذين لهم تجربة شخصية مع «يسوع»، والذين يستطيعون التحدث عما سمعوه من أقواله، وشاهدوه من

---

(١) متى ٢٦ : ٦٤.

أعمـاله .. كـان هذا الجيل على وشك الاندثار، وعلى ذلك فقـد كـان من الضرورى تسجيل ذكرياتهم، أو ما أخذ على أنه ذكرياتهم.

ويرى «كارل لودفيج شميت Karl Ludwig Schmidt » و «مارتين ديليوس Martin Dibelius » و «رودلف بلتمان Rudolf Bultman »، أن البداية كانت مجموعة من الأقوال والأفعال المنفصلة ليسوع .. أمثال وأقوال وأخبار عن معجزات تناقلها المسيحيون الأول، واستخدموها فى مواعظهم التى كانت تهدف إلى جعل الناس يعتنقون العقيدة المسيحية. وكان جوهر مواعظهم هو أن «يسوع» قد مات كى يكفر عن خطايا البشر، وأن الله قد أقامه من بين الموتى، وأنه سيهبط من السماء، آتياً فوق السحاب فى المستقبل القريب، كى يحقق العدالة بين البشر. وقد تم جمع هذه الأقوال المتناثرة والمتعددة، وأعطيت صورة متسقة، لتكون قصة واحدة متكاملة.

وتاريخ «يسوع»، طبقاً لأصحاب النظرية السابقة، ما هو إلا من نسج كتاب الأناجيل، وتعبيراً عن آرائهم، فهم الذين خلقوا الشكل العام لأحاديث «يسوع» وأفعاله المتفرقة، لكى تبدو فى صورة متكاملة. وبنفس الطريقة، فهم الذين اخترعوا الأزمنة والأماكن والظروف: بيت، طريق، جبل، قارب، وجبة طعام، جمهور من الناس، اتباع، معارضون، خصوم، وهكذا، كما صوروا «يسوع» بطرق مختلفة: ابن الله، ابن الإنسان، وعبد الله المعذب.

ويدعى بلتمان Bultman أن الأناجيل ما هى إلا «أساطير دينية مطولة»، تهدف إلى تصوير «يسوع» بصورة حية واضحة فى عقول المسيحيين، عندما يجتمعون للعبادة، تذكرهم بتعاليمه وأحداث حياته وأسرار الخلاص.

وبالنظر إلى الأناجيل من الناحية الأدبية الصرفة، يقول «كال Kahl»: إنه لايمكن اعتبارها من روائع الأدب، وإنما هى أعمال ثانوية صغيرة.

الفصل الثالث

الميلاد والنشأة

الفصل الثالث
الميلاد والنشأة

ولد «يسوع» فى الناصرة، وهى مدينة صغيرة فى الجليل، لم يكن لها شأن يذكر قبل ميلاده. ولقد عرف طوال حياته باسم «الناصرى». وكانت الجليل جزءاً من الشاطئ الشمالى لفلسطين، وعرفت فى التاريخ القديم باسم «كنعان»، وأطلق عليها اليونانيون فيما بعد اسم «فينيقية»، وقد دخلت فى مملكة داود بعد إنشائها. وكان أغلب أهل الجليل عرباً يتكلمون الآرامية، وينطقون العبرية بلكنة تبدو بوضوح، أنها أجنبية، وكان من السهل على أهل الجنوب التعرف على القادمين من الجليل بمجرد الاستماع إلى بعض جمل ينطقونها.

وتاريخ ميلاد «يسوع» غير معروف على وجه التحديد، فلقد ولد أيام حكم «أغسطس Augustus» حوالى عام ٧٥٠ بالتاريخ الرومانى، وربما قبل عدة سنوات من العام الأول لذلك التقويم الذى يتخذه العالم المسيحى تاريخاً يبدأ بيوم ميلاده.

ويرى أغلب المؤرخين أن «يسوع» لم يولد فى السنة الأولى للميلاد، لكنه يسبقها ربما بأربع سنوات. والاسم «يسوع» مشتق من «يشوع Joshua»، وهو اسم مألوف فى ذلك الوقت. وكان «يشوع بن نون» خادم موسى عليه السلام، هو الذى كلمه الرب، بعد موت موسى قائلاً: «موسى عبدى قد مات، فالآن قم أعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم أى لبنى إسرائيل» (١).

---

(١) يشوع ١ : ٢.

ويقـول «إرنست رينان Ernest Renan » فى كـتـابه (حـيـاة يسوع)، إنه قد أتى من عامة الناس، فأبوه «يوسف» ـ كان يعمل نجاراً ـ وأمه «مريم» عاشا حياتهما فى ظروف متواضعة، يكسبان قوتهما بكدهما، «وهى حالة مألوفة فى الشرق» (١).

ويتفق «ميدلتون مرى Middleton Murry » مع رينان فى هذا الرأى عندما يقرر أن «يسوع» هو ابن «يوسف النجار»، وأمه «مريم» ، وقد ولد بقرية الناصرة فى الجليل، فى بيت فقير، ولم تر أمه فيه أى شئ شاذ أو غير عادى، إذ أنه من النادر أن يكون العباقرة المتميزين أطفالاً غير عاديين(٢). أما أبوه فقد كان غير مؤثر على وجه الإطلاق، لدرجة أنه لم يشر إليه، حتى بمجرد الذكر فى النسخة القديمة من «إنجيل مرقص». واحتمال أنه كان نجاراً ربما تم استنتاجه من حقيقة أن «يسوع» نفسه عمل بالنجارة. ومن الواضح أن «يوسف» الأب قد اختفى من حياة «يسوع» فى سن مبكرة، كما أنه من المحتمل كذلك أن يكون قد مات و «يسوع» لا يزال صبياً، ولهذا كان يسوع دائماً ينسب إلى أمه : ابن مريم.

وتروى الأناجيل أنه كان ليسوع أربعة أخوة، هم «يعقوب James، ويوسى Joses، ويهوذا Judas ، وسمعان Simon » ، وعلى الأقل أختان: «أليس هذا هو النجار ابن مريم وأخو يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان، أوليست أخواته ههنا عندنا»(٣). ولا نستطيع أن نحدد ترتيبه بينهم إذ تتعارض الأقوال، فمن وجهة نظر «مرى» أنه كان بين الأصغر لا بين الأكبر، أما «رينان» فيقول: «يبدو أنه كان أكبرهم»، لكنهم كانوا مغمورين، إذ أنه من الواضح أن الشخوص الأربعة الذين كانوا ينادون بأخوته، إنما كانوا أبناء

---

(1) Ernest Renan, The Life of Jesus, P. 42.
(2) John Middleton Murry, The life of Jesus, p. 14

(٣) مرقص ٦ : ٣.

خالته، وكان من بينهم «يعقوب الذى أصبح غاية فى الأهمية فى السنوات الأولى لتطور المسيحية» (١).

ومن المعروف أنه كان لمريم أم «يسوع» أخت اسمها أيضاً : «مريم»، تزوجت من شخص يدعى «ألفيوس Alpheus » أو «كليوفاس Cleophas »، وأصبحت أماً لمجموعة من الأبناء الذين لعبوا دوراً بين تلاميذ يسوع الأول. وأبناء الخالة، هؤلاء هم الذين لازموا «يسوع» ولقبوا بإخوة السيد أو «إخوة الرب»، فى نفس الوقت الذى عارضه فيه إخوته من أمه وأبيه. إن الإخوة الحقيقيين ليسوع، مثل أمهم، لم تصبح لهم أهمية الا بعد موت يسوع، أما الأختان فقد تزوجتا فى الناصرة، حيث قضى السنين الأولى من زمن صباه.

ورغم أنه قد حدثت قطيعة كاملة بين «يسوع» وأسرته، منذ تعميده وحتى موته، فإنه من المجحف أن نقول إنه ربما كان هكذا فى فترة طفولته. ربما كان طفلاً انعزالياً، إلا أنه بالتأكيد لم يكن تعيساً، فقد كان يلعب مثل كل الأطفال الصغار فى الأفراح والمآتم والأسواق، وكان يرقب بعينين شغوفتين متطلعتين ما يحدث فى بيت فقير: العجين وقد ترك ليتخمر، كنس أرضية البيت، البحث عن قطعة نقود ضائعة، رتق ثوب قديم جداً لدرجة أن الرقعة الجديدة كانت تزيد من تمزق الثوب القديم. ويعلق «مرى» قائلاً: لابد وأن أمه كانت على درجة ملحوظة من الفقر(٢).

كانت طفولة «يسوع» ضحلة من الناحية المادية، وبهذا المعنى فقط. فلقد ذاق طعم الفقر، ومن الممكن أن نفترض أن ضيق الموارد المادية، فى بداية حياته المبكرة، كان السبب الأساسى، إلى حد ما، لصفتين متضاربتين تميزت بهما رجولته: قوة تحمله، وضعف تكوينه الجسدى. لقد قضى بعد

---

(١) ربنان : ص ٤٢.

(٢) مري ، حياة يسوع، ص ١٥.

تعميده عدة أسابيع فى الصحراء وهو لايكاد يقتات شيئاً، وبعد أن بدأ رسالته عاش حياة قاسية لا استقرار فيها ورغم ذلك كان يؤدى رسالته على أكمل وجه. لكنه بعد أن «وضع على الصليب، مات خلال ست ساعات» • على حين أن الشخص العادى، عادة، يتحمل الصلب لمدة يومين. ومن الممكن أن يكون ضعفه الجسدى ناتجاً عن المتطلبات الملحة التى فرضتها روحه على جسده: الروح ترغب، لكن الجسد ضعيف •

لقد كانت طفولة «يسوع» على قدر هائل من الأهمية بالنسبة له. كان يتذكرها، فى أيام عمره التالية، على أنها مرحلة البراءة والكمال: الأطفال يرثون ملكوت الله. ولقد أحب الأطفال دوما، ووبخ من حاول إبعادهم عنه، إنهم تجسيد الصفاء والنقاء والتلقائية والأمان والتحرر من كل شك وانقسام، وما كان له أن ينسى ذلك أبداً •

وعلى عكس ما يقوله «رينان» و «مرى» ، يدعى مؤلفو كتاب «الدم المقدس Holy Blood, Holy Grail » ، أنه لا يوجد ما يدل على أن «يسوع» كان نجاراً فقيراً بل العكس هو الصحيح، إذ يبدو أنه كان على درجة جيدة من التعليم، وأنه قد تم إعداده كى يصبح حبرا، هذا إلى جانب أنه كان يختلط بالأثرياء وأصحاب النفوذ ـ تماماً كما كان يتصل بالفقراء ـ من أمثال يوسف الراماتى ونيقوديموس، كما أن وجوده فى حفل الزواج الفخم فى «قانا» إنما يدل على مكانة اجتماعية مرموقة [1] •

لقد قلنا من قبل إن «يوسف النجار» لم يكن له دور يذكر فى تنشئة «يسوع» وتربيته، وربما مات ويسوع فى مرحلة صباه، وهكذا نقول فى شأن أمه مريم التى لا يخبرنا كتبة الأناجيل بالكثير عنها، بيد أن شهادتهم أنها

(1) Michael Baigent, Richard Leigh, and Henry Lincoln: Holy Blood, Holy Grail, p. 346.

كانت تعارض رسالته أثناء حياته، لا يمكن زعزعتها، وربما فعلت ذلك بدافع الشفقة على ولدها، وبدافع الحب أيضاً والخوف عليه من نتائج ما هو مقدم عليه. ولا شك أن الفريسيين قد استغلوا تقواها وخوفها لكى يدفعوها إلى محاولة إعادة ولدها إلى موطنه فى الناصرة، وربما أخبروها أنه قد جدف فى «كفر ناحوم» ، وكانت السيدة الحائرة تميل إلى القول بأن ولدها «مجنون»، ولا خطر منه على العقيدة، وربما توسلت إلى كبار رجال الدين بقولها: لا تؤذوه، لقد كان غريب الأطوار منذ صباه، دعونى أحاول أن أعيده إلى حيث كان.

وسلوك «مريم» أم «يسوع» أثناء حياته، يمكن تفسيره على أنه السلوك الطبيعى لأم قروية بسيطة، تقية نقية، ومحبة لولدها. أما عن صرامة «يسوع» فى معاملتها فيمكن تفسيره على أنها صرامة الابن الذى كان عليه أن يختار بين عاطفته وقدره. على أن الحقيقة المؤكدة هى أن «مريم» الأم لم يكن لها دور يذكر فى حياة «يسوع» كصاحب رسالة، ولم يكن لها دور فى موته، إذ لم تكن حتى بالقرب من الصليب فى الساعات الأخيرة، وربما كانت تبكيه فى الناصرة. وما ركز «يسوع» اهتمامه أبداً، من بداية رسالته وحتى نهايتها، على أمه وأخوته، فقد ورد: «وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجاً طالبين أن يكلموه فقال له واحد هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجاً طالبين أن يكلموك، فأجاب وقال للقائل له: من هى أمى؟ ومن هم إخوتى؟، ثم مد يده نحو تلاميذه وقال ها أمى وإخوتى، لأن من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى وأختى وأمى» (١).

كان هذا ما ذكره بعض المفكرين ورجال الدين المسيحى فى الغرب عن ميلاد «يسوع». فماذا قال البعض الآخر؟ وماذا تقول الأناجيل؟.

---

(٢) متى ١٢ : ٤٦ - ٥٠.

يقـــول «ديل وإلين روتون Dale and Elain Rhoton» فى كتابهما: (كيف نعرف How Can We Know): إنه قد تمت البشارة بميلاد يسوع قبل أن يولد بسبعمائة عام: «ولكن يعطيكم السيد نفسه آية، ها العذراء تحبل وتلد ابناء وتدعو اسمه عمانوئيل، زبداً وعسلاً يأكل متى عرف أن يرفض الشر ويختار الخير» (١). هذا ما رآه «إشعياء بن آموص» من جهة يهوذا وأورشليم. وفى قول الرب الذى صار إلى ميخا المورشتى فى أيام يوثام، وآحاز، وحزقيا، ملوك يهوذا (عام ٧٠٠ قبل الميلاد)، عن ولادة يسوع فى بيت لحم: «أما أنت يا بيت لحم أفراته وأنت صغيرة أن تكونى بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لى الذى يكون متسلطاً على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل» (٢).

وتأتى الأناجيل مؤكدة أن ما رواه كل من «إشعياء وميخا» قد تحقق، فيقول «لوقا»: «أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم. فدخل إليها الملاك وقال سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك، مباركة أنت فى النساء. فلما رأته اضطربت من كلامه، وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية. فقال لها الملاك لاتخافى يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله وها أنت ستحبلين وتلدين إبناً وتسميه يسوع. هذا يكون عظيماً وابن العلى يدعى ويعطيه الرب الإله كرسى داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية. فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً. فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلى تظللك، فلذلك القدوس المولود منك يدعى ابن الله» (٣).

---

(١) إشعيا ٧ : ١٤-١٥.

(١) ميخا ٥ : ٢.

(٣) لوقا ١ : ٢٦-٣٥.

ويؤكد «متى» ولادة «يسوع» من أم عذراء، تحبل من الروح القدس، ويسمى ولدها «يسوع» الذى جاء ليكفر عن خطايا البشر: «أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا، لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس، فيوسف رجلها إذ كان باراً ولم يشأ أن يشهرها أراد تخليتها سراً، ولكن فيما هو متفكر فى هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له فى حلم قائلاً: يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذى حبل به فيها هو من الروح القدس، فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع، لأنه يخلص شعبه من خطاياهم وهذا كله كان لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل هو ذا العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعون اسمه عمانوئيل الذى تفسيره الله معنا» (١). والنبى القائل الذى يشير «متى» إلى نبوءته هو: «إشعياء»، وقد تم ذكره من قبل.

ويقول «إشعياء» أيضاً فى نبوءته الخاصة بميلاد ذلك المخلص الذى سيتحمل آلام البشر وأوجاعهم، ويساق إلى الموت من أجلهم، دون أن يفتح فاه: «لأنه يولد لنا ولد ونعطى إبناً وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أبا أبدياً رئيس السلام لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسى داود وعلى مملكته»(٢). ويقرر كُتّاب الأناجيل أن «الولد» المشار إليه فى نبوة إشعياء، هو يسوع «المسيح» ولا أحد غيره.

ويعلق «يوكيم كال Joachim Kahl» على نبوءة «العهد القديم» والقول بأنها قد تحققت فى «العهد الجديد» بقوله: «إن الذين قاموا بتحرير هذه الكتب فى مرحلة متأخرة، غيروا بعض كلمات النصوص المتوارثة لتلائم رغباتهم واحتياجاتهم، ولقد تمادوا إلى حد تغيير بعض النصوص الأصلية وذلك لكى توائم ظروفاً تاريخية مختلفة، لدرجة أن قد يصبح معناها على

(١) متى ١ : ١٨-٢٣.
(٢) إشعياء ٩ : ٦-٧.

العكس من المعنى الأصلى تماماً. ولقد صنع مؤلفوا «العهد الجديد» نفس الشئ، فلكى يثبتوا أن «يسوع» هو المسيح الموعود، أعطوا تفسيرات جديدة تماماً لنصوص «العهد القديم»، دون مراعاة لسياق النص، أو معنى الكلمات، وربطوها مباشرة بيسوع.

ويعلق «كال» على استخدام «متى» لكلمات النبى إشعياء: «ولكن يعطيكم السيد نفسه آية، ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل»، بقوله: إذا كان إشعياء يعلن أن علامة سوف تعطى للملك آحاز، كما يقول النص، فلكى يكون لهذه العلامة معنى، إذا لا بد وأن تعطى وآحاز على قيد الحياة،أما أن تعطى العلامة بعد عدة قرون ، فهذا كلام لا معنى له (١).

ويضيف «كال»: أنه بالإضافة إلى تحريف المعنى، يوجد تناقض بين كتاب الأناجيل، فيما يختص بميلاد «يسوع»، حيث يقرر كل من «متى» و «لوقا» أن يسوع قد ولد من عذراء، كما هو واضح فى المقتطفات السابقة، أما «يوحنا» فيرى أن يسوع لم يولد من عذراء، أو غير عذراء، بل هو كائن سماوى، وجد قبل خلق العالم، ثم هبط إلى الأرض، واتخذ شكلاً بشرياً، وبعد أن أتم عملية الخلاص، عاد إلى حيث كان فى عالم الخلود: «فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله ... والكلمة صار جسداً، وحل بيننا ورأينا مجده مجداً، كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً»(٢).

والاختلاف بين ما يقول به «متى» و «لوقا»، وما يقرره «يوحنا» واضح كل الوضوح، ومتناقض كل التناقض، ولا يمكن التوفيق بين الرأيين. فطبقاً للرأى الأول أصبح «يسوع» ابن الله بعد أن ولد بطريقة اعجازية بواسطة الروح

---

(1) Joachim Kahl, The Misery of Christianity, P. 167.

(٢) يوحنا ١ : ١-١٤.

القدس، وطبقاً للرأى الثانى، كان «يسوع» يعيش كابن لله مع أبيه منذ الأزل

ويزداد التناقض بين الأناجيل، عندما يقدم «مرقص» وجهة نظر ثالثة: لم يولد «يسوع» من عذراء، ولم يكن له أى وجود قبل وجوده الجسدى، ولكنه استهل حياته كابن لله، بعد أن عمده «يوحنا»: «وفى تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنا فى الأردن، وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السموات وقد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه، وكان صوت من السماوات أنت ابنى الحبيب الذى سررت به» (١).

وهناك رأى رابع فى رسالة «بولس الرسول» إلى أهل رومية يدل على أنه فى المجتمع المسيحى الأول، لم يبدأ اعتبار يسوع كمسيح إلا بعد قيامه من بين الموتى: «بولس عبد يسوع المسيح المدعو رسولاً المفرز لإنجيل الله الذى سبق فوعد به بأنبيائه فى الكتب المقدسة عن ابنه. الذى صار من نسل داود من جهة الجسد وتعين ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات» (٢).

هكذا تتضارب الآراء وتتناقض، ولا يستطيع هؤلاء الذين أقاموا المسيحية وكتبوا أناجيلها أن يجمعوا على رأى واحد.

وينص إنجيل «متى» على أن يسوع قد ولد فى بيت لحم (٣)، لا فى الناصرة، أثناء حكم «أغسطس قيصر»، حيث كانت تعيش أمه وخطيبها يوسف. ولقد أمر «أغسطس قيصر» ، فى تلك الآونة، أن يُكتتب كل أهل المسكونة، وكان هذا أول اكتتاب من نوعه فى تاريخ فلسطين إبان الحكم الرومانى. وقد جرى هذا الإكتتاب الأول حين كان «كيرينيوس» والياً على سورية، فقد ذهب الجميع ليكتتبوا، كل واحد إلى مدينته، وصعد يوسف

---

(١) مرقص ١ : ٩-١١.

(٢) رسالة بولس الرسول إلي أهل رومية ١ : ١-٣.

(٣) بلدة قريبة من القدس علي بعد ستة أميال (د. محمد النجار).

أيضاً من الجليل، من مدينة الناصرة، إلى اليهودية، إلى مدينة داود التى تدعى بيت لحم، لكونه من بيت داود وعشيرته، ليكتتب مع مريم، امرأته المخطوبة، وهى حبلى، وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد، فولدت ابنها البكر، وقمطته وأضجعته المذود إذ لم يكن لهما موضع فى المنزل»(١).

وطبقاً لما يرويه «لوقا» يظهر ملاك الرب لمجموعة من الرعاة فى جوف الليل يبشرهم بميلاد «المسيح المخلص»، ويحدد لهم علامة : إنه طفل مقمط مضجع فى مذود، لا تخافوا، يقول لهم المَلَكْ، «فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب، إنه ولد لكم اليوم فى مدينة داود مخلص هو المسيح الرب، وهذه لكم العلامة تجدون طفلاً مقمطاً مضجعاً فى مذود، وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السموى مسبحين لله وقائلين المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة»(٢).

أما «متى» فلا يذكر شيئاً عن الرعاة، إذ أنه بدلاً من قصة الرعاة، فهو يحكى قصة عن المجوس الذين أتوا من المشرق إلى أورشليم يسألون عن المولود ملك اليهود، الذى رأوا نجمه فى المشرق، وأتوا كى يسجدوا له. وعندما سمع عن ذلك الملك «هيرودس»، جمع رؤساء الكهنة وسألهم: أين يولد المسيح؟ فحددوا له بيت لحم مكاناً لمولده «لأنه هكذا مكتوب بالنبى». وعندئذ «دعا هيرودس المجوس سراً وتحقق منهم زمان النجم الذى ظهر، ثم أرسلهم إلى بيت لحم وقال اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبى، ومتى وجدتموه فاخبرونى لكى آتى أنا أيضاً وأسجد له. فلما سمعوا من الملك ذهبوا وإذا النجم الذى فى المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف حيث كان الصبى ... وأتوا إلى البيت، ورأوا الصبى مع مريم أمه فخروا وسجدوا له، ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهباً ولباناً ومراً»(٣).

---

(١) لوقا ٢ : ١-٧.
(٢) لوقا ٢ : ١٠-١٤.
(٣) متى ٢ : ٧-١٢.

لكن المجوس لم يرجعوا إلى «هيرودس» إذ أوحى إليهم فى حلم ألا يعودوا إليه وأن يسلكوا فى عودتهم طريقاً آخر.

وعندها غضب «هيرودس» غضباً شديداً لأن المجوس استخفوا به وسخروا منه، وأمر بأن يقتل كل الأطفال الرضع فى بيت لحم وكل تخومها، من ابن سنتين فما دون ذلك. ويظهر ملاك الرب ليوسف، ويطلب منه أن يأخذ الطفل وأمه ويهرب إلى أرض مصر حتى يأتيه الأمر بالعودة: «قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى أرض مصر وكن هناك حتى أقول لك لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه. فقام وأخذ الصبى وأمه ليلاً، وانصرف إلى مصر، وكان هناك إلى وفاة هيرودس لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل من مصر دعوت ابنى» (١).

ولا يذكر «لوقا» شيئاً عن الهرب إلى مصر، فالحدث بأكمله غير مذكور فى إنجيله، بل تتوالى الأحداث، دون انقطاع، فى أرض فلسطين، فبعد ثمانية أيام يتم ختان «يسوع»، -حسب الشريعة اليهودية، ويطلق عليه اسم «يسوع» كما بشر بذلك الملاك قبل أن يولد الصبى. ثم إنه بعد أن تتطهر أمه، يصعد به إلى أورشليم، «ليقدموه للرب كما هو مكتوب فى ناموس الرب إن كل ذكر فاتح رحم يدعى قدوساً للرب، ولكى يقدموا ذبيحة كما قيل فى ناموس الرب زوج يمام أو فرخى حمام» (٢).

ومرة ثانية يظهر التناقض بين الأناجيل، فطبقاً لما جاء فى «لوقا» عند ميلاد يسوع، قام الرعاة بزيارته، أما «متى» فيقول إن الذين قاموا بزيارته هم المجوس الذين أتوا من المشرق وسجدوا له وقدموا له ذهباً ولباناً ومراً. ويجزم «لوقا» أن أسرة يسوع كانت تعيش فى الناصرة ثم ارتحلت الأسرة إلى بيت

---

(١) متى ٢ : ١٣-١٥.

(٢) لوقا ٢ : ٢٣-٢٤.

لحم حيث ولد «يسوع» فى فقر «المذود»، أما «متى» فيقرر أن أسرة «يسوع» كانت تعيش فى بيت لحم بصورة دائمة، وقد ولد «يسوع» نفسه فى بيت، وفى بحبوحة من العيش. وفى «متى» نجد أن اضطهاد «هيرودس» للأبرياء يدفع الأسرة للهرب إلى مصر وعند العودة فقط تستقر الأسرة فى الناصرة.

هذا التضارب بين ما جاء فى الإنجيلين يخلو من المنطق، فإما أن يكون أحدهما على صواب والآخر على خطأ، أو أن يكون الإثنان على خطأ «ولا يمكن القول بعدم الطعن فى الأناجيل، وكيف يمكن ذلك إذا كانت الأناجيل كل منها يطعن فى الآخر ويختلف معه»(١).

لقد تعلم «يسوع» القراءة والكتابة، لا بالأسلوب المتبع قديماً وحسب، بل المتبع حديثاً فى بعض الأحيان، ألا وهو حفظ الكتاب عن ظهر قلب، على أنه من المشكوك فيه أنه كان يفهم الكتابات العبرية فى أصولها القديمة. ويقول من أرخوا له: إنه كان يقتبس منها طبقاً لترجمات باللغة الآرامية Aramean.

ولا يبدو أن «يسوع» قد تلقى أى تعليم على مستوى عال، فى أى مدرسة متخصصة من مدارس «الكتبة» إذ لم يكن ميسراً له إلا التعليم على يد قارئ النصوص التوراتية فى «المجمع». ومن ثم لم يحصل على أى لقب يؤهله لأن يبدو فى أعين العامة على أنه من أهل المعرفة، وعلى الرغم من ذلك فإنه من الخطأ مجرد تخيل أن يوصف «يسوع» بالجهل، فلقد علم نفسه، وأحاط بالشريعة والأنبياء. فعل ذلك بسهولة ويسر وتمكن خلاق، دون حاجة إلى معلم، فقد كان يحس أنه يعرف، وكان، حقاً، يعرف كلمات الله الحقيقية الأصيلة من بين كلمات الأنبياء المتعددة، وثار على الشريعة الجامدة وآلاف التفسيرات التافهة: إن كان هذا هو الدين فلن يتبعه كما هو.

---

(١) كتاب : الدم المقدس، ص ٣١٧.

وعن هذه السنوات من التمرد فى مجال المعرفة ، لا يعرف النقاد ودارسو الأديان شيئاً له ثقل فى الميزان. على أن هناك إشارة فى «لوقا» تصفه وهو فى الهيكل، يجلس بين المعلمين، وكان آنذاك فى الثانية عشرة من عمره: «ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد، وبعدما أكملوا الأيام بقى عند رجوعها الصبى يسوع فى أورشليم ويوسف وأمه لم يعلما، وإذ ظناه بين الرفقة ذهبا يطلبانه، وبعد ثلاثة أيام وجداه فى الهيكل جالساً فى وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته» (١).

وبعيد عن المنطق أن يكون «يسوع» على علم باللغة اليونانية، إذ لم تكن اليونانية منتشرة فى يهودا Judea إلا بين الطبقات الحاكمة والمدن التى يسكنها الوثنيون، مثل قيصرية. وإنما كانت اللغة الأصلية ليسوع، هى اللهجة السورية مختلطة بالعبرية، وكانت سائدة آنذاك فى فلسطين. كذلك فإنه من غير المحتمل أن يكون «يسوع» على دراية بالثقافة اليونانية، إذ كان من الصعب وصولها إلى مدن صغيرة كالناصرة.

كان «يسوع» يهودى الميلاد والنشأة، وكانت معرفته مقتصرة على اليهودية. ومن حسن حظه أنه كان يجهل التعاليم السكولاستية الغريبة التى كان يتم تعليمها فى أورشليم والتى تكون منها «التلمود Talmud» فيما بعد. غير أنه يمكن أن نفترض أن تعاليم «هيلل Hillel» كانت معروفة له، فلقد عاش «هيلل» قبل «يسوع» بما يقرب من خمسين عاماً، وترك أقوالاً مأثورة مشابهة، إن لم تكن مطابقة، لما قال به يسوع. ويمكن القول أن «هيلل»، بفقره الذى تحمله فى رضى، ورقة شخصيته وسماحتها، ومعارضته للكهنة، وتعريته للمنافقين، كان هو المعلم الحقيقى ليسوع، فيما لو جاز لنا أن نتحدث عن معلم ليسوع بشخصيته الفذة الفريدة، وأصالته الفائقة النادرة.

(١) لوقا ٢ : ٤٣-٤٦.

لقد تأثر «يسوع» ،حقاً، تأثراً عميقاً بدراسته للعهد القديم: التوراة والأنبياء، فلقد استشف بعبقريته الفذة طلاوة شعر التوراة وحلاوته، أما الشريعة فلم يتأثر بها كثيراً. كان يعتقد أن باستطاعته أن يفعل شيئاً أفضل، لكن الترانيم المقدسة في المزامير، كانت تتواءم بصورة رائعة مع شاعرية روحه. كما أن الأنبياء، إشعياء على وجه الخصوص وأتباعه في سجل زمن السبي، بأحلامهم للمستقبل وبلاغتهم الدافقة وهجائهم المائج الشيق، إنما كانوا مدرسة تعلم منها وأضافت إليه. أما عن مقدم المسيح بكل أمجاده ورهبته، وسقوط الأمم الواحدة تلو الأخرى، وجائحة السماء والأرض، فقد كانت كلها مصدر إثراء مألوف لخياله.

ولم يكن «يسوع» يعرف الكثير عن أحوال العالم المعاصر له بصورة عامة، ولا يبدو أنه حاول أن يعرف، ويمكن معرفة ذلك ببساطة من دراسة كلماته. وربما يقال إنه لم يهتم بشئون هذا العالم لأنه كان يبشر بملكوت الله ويتوقع بداية حياة جديدة في عالم آخر. كانت الأرض تبدو له مقسمة إلى ممالك يحارب بعضها بعضاً، ولم تكن عنده فكرة كافية عن القوة الرومانية أو عن حالة الأمن السائدة آنذاك، كان اسم قيصر فقط هو كل ما وصل إليه.

كما كانت معرفة «يسوع» قليلة جداً أو ربما منعدمة فيما يختص بالفكر «الحديث»، ذلك الفكر الذي أبدعه اليونان وكان أساساً للفلسفة كلها، والذي يقوم على نبذ فكرة الآلهة ذات النزوات المتقلبة، التي صورتها العصور القديمة بكل بساطتها على أنها تحكم العالم وتسيطر على أقدار البشر. لقد صرح «لوكريشيس Lucretius» قبل قرن واحد من ظهور «يسوع»، أن نظام الطبيعة العام غير متغير، أي أن كل ما يدور في العالم يحدث طبقاً لقوانين، لا طبقاً لمعجزات ما وراء الطبيعة. ولقد كان عدم الإيمان بالمعجزات معترفاً به عالمياً في كل المدارس المتقدمة لكل الدول التي أخذت بالعلوم اليونانية، ولم يكن «يسوع» يعرف شيئاً عن هذا التقدم.

وعلى الرغم من أنه ولد فى عصر أعلن فيه مبدأ العلم الإيجابى، فإنه عاش كلية تحت سيطرة فكر يحلق به فيما وراء الطبيعة، ولم يكن اليهود متعطشين للمعجزة كما كانوا آنذاك، ولم يكن «يسوع» يختلف عمن حوله فيما يختص بهذه النقطة: كان يؤمن بالشيطان ويعتبره عبقرية شريرة، وكان يتخيل ، ككل من حوله، أن الأمراض العصبية سببها الشياطين التى تسكن جسد المريض وتعصف به، ولم يكن المعجز هو الاستثناء بالنسبة له، فالرجل الذى لا يعرف شيئاً مطلقاً عن قوانين الطبيعة، والذى يعتقد أنه بالصلاة يستطيع أن يغير طريق السحاب ويبرئ المرضى ويقهر الموت، مثل هذا الرجل لا يجد شيئاً شاذاً فيما هو معجز، طالما آمن بأن الأشياء كلها مسيرة بمشيئة إلهية.

هكذا كانت الحالة الفكرية ليسوع، وبصورة متعمقة مستمرة. وكانت النتيجة أن ولدت فيه إيماناً راسخاً بوجود علاقة حميمة بين الإنسان وربه، هذا إلى جانب عقيدة ثابتة عن قوة الإنسان الهائلة، وربما الخارقة، عندما يؤمن بالله. وكان هذا الإيمان العميق الذى لا يهتز، هو سر قوته .

ويسر صناع الأسطورة أن يظهروا «يسوع» منذ طفولته ثائراً ضد السلطة الأبوية، وسالكاً طريقاً غير مألوف، لكى يحقق رسالته. ومن المؤكد أنه كان لايكترث كثيراً بصلة القرابة أو صلة الرحم، ولا يبدو أن أسرته كان تحبه، وأحياناً، كما أشرنا من قبل، كان يبدو جافاً فى تعامله معهم. وككل الرجال الذين يخضعون خضوعاً تاماً لسيطرة فكرة واحدة، أصبح «يسوع» لا يكترث كثيراً بصلة الدم، بل إن الرابطة الوحيدة التى كان يعترف بها هى رابطة الإيمان بما آمن هو به: «هؤلاء هم أمى وأخوتى»، هكذا قال وهو يشير إلى تلاميذه. إن من ينفذ مشيئة الرب، هو أبوه وأمه وأخوه وأخته. وكان من الصعب على بسطاء الناس أن يفهموا ما يرمى إليه، فقد صاحت امرأة يوماً وهى تمر بالقرب منه: بوركت البطن التى أنجبتك، والثدى الذى أرضعك،

لكنه قال: بل الأفضل، مبارك من يسمع كلمات الرب ويحفظها.

ولا يعرف المؤرخون شيئاً عن حياة «يسوع» فى الفترة ما بين العشرين والثلاثين، بل إننا لا نعرف عن حياته شيئاً سوى ما تحكيه كلماته، وما يمكن أن نستنتجه منها، فكل ما نعرفه أنه أصبح ما كان. ومن الصعب أن نتخيل ما حدث له، طبقاً لمفهومنا عن كيفية صناعة عظماء الرجال. لقد قاسى، وكان عليه أن يقاسى، إذ لا يستطيع أى رجل أن يتعلم الحب اللانهائى إلا من خلال معاناة لا نهائية. ومن المحتمل أنه أخطأ، فلا يمكن أن يكون «يسوع» مجرد دعى عندما ذهب إلى «يوحنا» لكى يعمده، والتعميد تكفير عن الخطايا. إنه آخر رجل على وجه الأرض يسعى إلى مثل هذا التعميد، إن لم يكن مدركاً كل الإدراك أنه فى حاجة إليه. لقد كان من أشد الرجال احتقاراً للمظاهر الدينية الفارغة ، ومن الغباء أن نكثر من التفكير فى طبيعة كيف أخطأ «يسوع» إذ يكفى أنه اعتقد أنه أخطأ.

وعندما علم بظهور «يوحنا المعمدان» ، مبشراً بنهاية العالم، وداعياً اليهود إلى أن يتوبوا ويتطهروا، عندها هبط يسوع من أرض الجليل إلى مكان صحراوى بجوار نهر الأردن، كى يعمده يوحنا.

كان يسوع حينئذ فى الثلاثين من عمره، وفى هذه السن، وفى ذلك المكان، يدخل «يسوع» ، لأول مرة، صفحات التاريخ، وتبدأ معرفتنا الحقيقية به، من لحظة أن عمده «يوحنا».

الفصل الرابع

يوحنا المعمدان

الفصل الرابع
يوحنا المعمدان

حوالى العام الثامن والعشرين الميلادى (الخامس عشر من حكم «طيباريوس Tiberius قيصر» [١]، انتشرت فى ربوع فلسطين شهرة «يوحنا المعمدان»، وهو ناسك شاب اتسم بالصرامة الحادة والحماس المتدفق، كان من سلالة الكهنة، فأبوه «زكريا» وهو من فرقة «أبيا»، وأمه «إليصابات» وهى من بنات «هرون»، ولم يكن لهما ولد، إذ كانت «إليصابات» عاقراً، وكان كلاهما متقدماً فى أيامهما [٢].

ويبدو مولد «يوحنا»، حسب رواية «لوقا»، على أنه إرادة إلهية ومعجزة ربانية، حيث تصيب القرعة الكاهن زكريا فيدخل إلى الهيكل ويبخر، ويظهر له فجأة ملك عن يمين مذبح البخور فيضطرب اضطرابا شديداً ويتملكه خوف يهز كيانه كله، ويطمئنه الملاك قائلاً: لا تخف، لقد تقبل دعاؤك، امرأتك إليصابات ستلد لك ولداً وتسميه يوحنا. وتعجب زكريا من قوله متسائلاً: كيف وأنا شيخ وامرأتى متقدمة فى أيامها؟ فأجاب الملاك وقال «أنا جبرائيل الواقف قدام الله وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا، وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذى يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامى الذى سيتم فى حينه» [٣].

وتمت أيام إليصابات وولدت ابنا أسمته «يوحنا». وكان ذلك فى مكان بالقرب من «حبرون»، أو ربما فى «حبرون» نفسها، وهى مدينة قديمة، تقع

---

(١) كان بيلاطس البنطي واليا علي اليهودية، وهيرودس رئيس ربع علي الجليل، وفيلبس أخوه رئيس ربع علي إيطورية وكورة تراخونيتس، وليسانيوس رئيس ربع علي الأبلية (لوقا ٣ - ١).

(٢) لوقا ١ - ٧.

(٣) لوقا ١ - ١٩ : ٢٠.

على مسافة قصيرة من صحراء يهودا، وتبعد عن الصحراء العربية مسافة ساعات قليلة.

ومنذ طفولته كان «يوحنا» منذوراً Nazir، عاش حياة تنسك وبتولة، اجتذبته الصحراء التى كانت تحيط به، فعاش فيها حياة الزهاد، يلبس رداء من وبر الجمل، ويعيش على الجراد والعسل البرى، وأحاط به عدد من التلاميذ يقاسمونه حياته الجافة ويدرسون تعاليمه القاسية. ويعتقد البعض أن «يوحنا» كان إيسينياً، ذلك لأنه لم يكن بالطبع فريسياً، فالفريسيون لم يتعودوا أبداً كبح جماح الجسد وإضعافه أو إهانته، لقد كان بالنسبة لهم هبة من عند الله، وكل هبات الله يجب الاستمتاع بها فى اعتدال وتعقل. ويمكن القول بأن هذا الناسك القوى العنيف المنذر، هو آخر الأنبياء العظام فى بنى إسرائيل.

وكان أهم ما يميز فرقة «يوحنا» هو التعميد أى الاغتسال الكامل بالماء، ولهذا أطلق عليه اسم «يوحنا المعمدان» أى يوحنا المغتسل. لقد كان الوضوء مألوفاً لدى اليهود، غير أن يوحنا قد أعطى أهمية للاغتسال لم تكن له من قبل، إذ جعله رمزاً للتوبة وطهارة الجسد والروح، ولقد ركز يوحنا نشاطه فى ذلك الجزء من صحراء يهودا بالقرب من البحر الميت. وفى الفترات التى كان يمارس فيها التعميد كان يذهب إلى شاطئ نهر الأردن. كان يصرخ فى البرية قائلاً: «أعدوا طريق الرب اصنعوا سبله مستقيمة»، وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه: «يا أولاد الأفاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى، فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة، ولا تبتدئوا تقولون فى أنفسكم لنا إبراهيم أباً، لأنى أقول لكم إن الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم، والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجرة، فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى فى النار»[1].

(١) لوقا ٣ : ٧-١٠.

اعتبره الناس نبياً، وتخيله البعض «إيليا Elias »، وقد عاد من بين الموتى، وكانت فكرة البعث بعد الموت بهذه الصورة فكرة واسعة الانتشار فى زمن الميلاد، إذ كان يظن أن الله سيبعث من القبور بعض الأنبياء الأولين، لكى يقودوا إسرائيل إلى قدرها النهائى. واعتقد البعض أن «يوحنا» هو المسيح نفسه، رغم أنه لم يشر إلى أى ادعاء من هذا النوع: «وإذا كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون فى قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح، أجاب يوحنا الجميع قائلاً أنا أعمدكم بماء ولكن يأتى من هو أقوى منى الذى لست أهلاً أن أحل سيور حذائه، هو سيعمدكم بالروح القدس ونار»(١).

لقد أنكر «يوحنا» أنه المسيح، وأنكر كذلك أنه «إيليا»، وأنكر أيضاً أنه نبى، وذلك عندما أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من هو «فاعترف ولم ينكر أنى لست أنا المسيح. فسألوه إذا ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال لست أنا . النبى أنت؟ فأجاب لا، فقالوا له من أنت؟ لنعطى جواباً للذين أرسلونا، ماذا تقول عن نفسك، قال أنا صوت صارخ فى البرية، قوّموا طريق الرب كما قال إشعياء النبى»(٢).

وقد سأل المرسلون، إذا لم يكن المسيح أو إيليا أو النبى فلماذا يعمد؟ ومن الواضح أن الكهنة والكتبة لم يقدروا «يوحنا» حق قدره، بل ولم يوفوه ما يستحقه من توقير واحترام، إذ كانوا يعارضون إحياء النبوة ويعادون كل المتحمسين فى مجال الدعوة، بيد أن شعبية يوحنا كانت ترهبهم لذا لم يجرؤ أحدهم على التحدث ضده.

كان التعميد بالنسبة ليوحنا، مجرد علامة مقدر لها أن توحى، وتعد عقول الناس للسير فى طريق الرب.

---

(١) لوقا ٣ : ١٥-١٦.
(٢) يوحنا ١ : ٢٠-٢٣.

لقد كان متشبعاً دون أدنى شك، بالأمل فى قدوم المسيح، وكان سلوكه يتطابق مع هذا الأمل: توبوا فإن ملكوت السماء قريب. التوبة (وكان التعميد رمزاً لها)، وإعطاء الزكاة وإطعام الجائع ومساعدة المحتاج، والتمسك بالحق والعدل، وإصلاح العادات غير السوية، كانت كلها، من وجهة نظر يوحنا، الوسيلة العظمى التى تمهد للأحداث القادمة، وذلك على الرغم من أننا لا ندرى بالضبط، كيف كان تصوره لتلك الأحداث القادمة. إلا أنه من المؤكد على أية حال أنه كان يعظ بقوة ضد نفس خصوم يسوع: كبار الكهنة الأغنياء والكتبة والفريسيين، باختصار، ضد اليهودية الرسمية. ومثل يسوع رحبت به الطبقات المحتقرة، ولم يكترث هو بأبناء إبراهيم، وكان يردد دائماً: أن الله يستطيع أن يصنع من حجارة الطريق أبناء لإبراهيم. كانت النغمة السائدة فى تعاليمه حادة وقاسية، وكان الأسلوب الذى يستخدمه ضد خصومه عنيفاً غاية العنف، أما تلاميذه فقد عاشوا، كما عاش هو ، حياة شديدة التقشف، يصومون أغلب الوقت، وتبدو على وجوههم مسحة حزن عميق.

وعلى الرغم من أن مركز نشاط يوحنا كان فى يهودا فإن شهرته قد انتشرت انتشاراً سريعاً حتى وصلت يسوع فى الجليل، وكان يسوع قد نجح بأحاديثه الأولى، فى أن يجمع حوله حلقة صغيرة من المستعمين. ومدفوعاً بأن يرى معلماً يشترك معه فى كثير من التعاليم، ترك يسوع الجليل يرافقه ذلك العدد القليل من تلاميذه، واتجهوا جميعاً إلى يوحنا ورحب يوحنا بهذه المجموعة الجديدة من حوارىى الجليل، ووافق على أن يظلوا جماعة قائمة بذاتها، غير مندمجة فى تلاميذه.

كان المعلمان شابين، ولقد أحب كل منهما الآخر. وللوهلة الأولى، يدهشنا سلوك يوحنا هذا ويدعونا للتساؤل، فالتواضع ولين الجانب لم يكونا أبداً سمة من سمات العقلية اليهودية القديمة. ويوحنا بالذات كان يتسم فى كرازته بالحدة والعنف، ولقد كان من المتوقع ألا يحتمل المنافسة أو نصف

الولاء. غير أن هذا تفسير خاطئ يقوم على عدم فهم لشخصية يوحنا، فلقد كان فى مثل سن يسوع يكبره بستة أشهر فقط، أى أنه كان فى مستوى الأخ لا الأب، ويجب ألا ننسى صلة القرابة بينهما، كما هو منصوص عليه فى إنجيل «لوقا»: «وها هى ذى إليصابات نسيبتك هى أيضاً حبلى بابن فى شيخوختها وهذا الشهر السادس لتلك المدعوة عاقراً لأنه ليس شئ غير ممكن لدى الله» (١).

كان هدف الشابين المتحمسين واحداً، تدفعهما نفس الآمال وتثيرهما نفس البغضاء، وعلى ذلك فقد آزر كل منهما الآخر. ولقد استشف يوحنا روحاً قريبة من روحه فى أعماق يسوع، لذلك تقبله دون تحفظات، وعمده هو وتلاميذه، ويجب أن نؤكد هنا أن يوحنا هو أول من دعى إلى التعميد للتكفير عن الخطايا، وما جاء من قبله أحد أبداً وعمد يهودياً لكى يكفر عن خطاياه.

هنا يجب أن نلقى نظرة على الأناجيل ونتفحص ما جاء بها، فيما يختص بتعميد يسوع. ولا نبالغ عندما نقول إن الأقوال متضاربة، فإنجيل «يوحنا» ينص صراحة ودون مواربة على أن يوحنا كان يعرف يسوع منذ البداية، وما خالجه شك قط فى أن هذا المقبل إليه هو المخلص المنتظر: «وفى الغد نظر يوحنا يسوع مقبلاً إليه فقال هو ذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم، هذا هو الذى قلت عنه يأتى بعدى رجل صار قدامى لأنه كان قبلى، وأنا لم أكن أعرفه، لكن ليظهر لإسرائيل لذلك جئت أعمد بالماء. وشهد يوحنا قائلاً إنى قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء، فاستقر عليه، وأنا لم أكن أعرفه لكن الذى أرسلنى لأعمد بالماء ذاك قال لى الذى ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا الذى يعمد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله» (٢).

---

(١) لوقا ١ : ٣٦-٣٧.

(٢) يوحنا ١ : ٢٩-٣٤.

وكلام يوحنا واضح شديد الوضوح، لم يكن يعرف يسوع لكنه عندما أقبل عليه عرفه وشهد له، علانية وبقوة، أنه ابن الله. ولا يوجد هنا أى ذكر لتعميد يسوع، ولا يوجد أى دليل على أن يوحنا قد عمده. لكن «متى» يقرر بوضوح أن يسوع قد ذهب إلى يوحنا ليعتمد، وسمح له يوحنا وعمده. «حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى يوحنا ليعتمد منه، ولكن يوحنا منعه قائلاً أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتى إلى، فأجاب يسوع وقال له اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر. حينئذ سمح له، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء» (١).

أما «مرقص» فيشير إلى عملية تعميد يسوع بكلمات قليلة مختصرة: «وفى تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنا فى الأردن»(٢). صحيح أنه تحدث عن الأقوى منه الذى يأتى بعده ويعمد بالروح القدس، لكن لا يوجد أى دليل على أنه كان يقصد بكلماته تلك يسوع الناصرى الواقف بين يديه كى يعتمد منه، فيوحنا هنا لا يعرف. ونرجح حقيقة أنه كان لا يعرف، حتى وهو فى السجن، أى فى آخر أيامه قبل أن تقطع رأسه، كان لا يعرف. لهذا عندما سمع بأعمال يسوع أرسل اثنين من تلاميذه يسألان: هل يسوع هو ذلك المخلص المنتظر، أم ليس هو، وعليهم انتظار غيره؟ إن يوحنا فى أخريات حياته لايعرف، ولهذا يسأل : «أما يوحنا فلما سمع فى السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه، وقال له أنت هو الآتى أم ننتظر آخر» (٣). والتناقض واضح ولا يحتاج إلى كلمة تعليق. كان من المستحيل على يوحنا أن يدرك، ولو للحظة واحدة، أن الأعظم والأقوى كان بين الجمع الذى يستمع إليه، أو أنه أتى كى يعتمد منه.

ويقول «مرى Murry»، وهو مفكر مسيحى ثاقب النظرة عميق

---

(١) متى ٣ : ١٣-١٦.
(٢) مرقص ١-٩.
(٣) متى ١١ : ١-٣.

الفكر، إنه من الواجب علينا، قبل أن نحاول الاقتراب من فهم التاريخ الحقيقى لحياة يسوع وإنجازاته، أن نبعد عن عقولنا تماماً فكرة تلك العقيدة المسيحية التى تدعى أن يسوع كان منذ بداية حياته هو «المسيح»، لقد حدث ذلك فى مستقبل الأيام فقط. والإيمان بأن يسوع هو «المسيح» أصبح ممكنا فقط بعد موته، أما فى ذلك الوقت، عندما كان يستمع إلى يوحنا المعمدان، فإن الفكرة كانت بعيدة عن خاطره تماماً، وما كان من الممكن أن ترد على خاطر أى إنسان آخر (١).

ما كان لأحد أن يتخيل أيام يسوع، أنه من الممكن أن يكون المسيح رجلاً يحيا بين الرجال. هذه الفكرة كانت مستبعدة تماماً، فقد كانوا ينتظرون كائناً «فوطبيعى» لا بشرى، تظلم عند مقدمه الشمس، وتطوى السماوات طى السجل. ونجد لمحة من وصفه فى «سفر دانيال»، حيث يبدو مثل ابن إنسان، قادماً مع السحاب إلى الأرض، يقول: «كنت أرى فى رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن الإنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه، فأعطى سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدى ما لن يزول وملكوته مالا ينقرض (٢).

فكرة «المسيح» رجلاً بشراً، كان من المستحيل تصديقها أو الإيمان بها، إذ كانت تعد بالنسبة لليهودى ضرباً من ضروب المستحيل، لهذا كان من الطبيعى ألا يتعرف يوحنا على يسوع باعتباره «المسيح» المنتظر، وما كان يمكنه ذلك، فما كان يسوع بالذى ينتظره ويتوقعه. إنه ما كان يتوقع رجلاً بشراً، ولكن وجوداً قدسياً، مع مقدمه تكون نهاية العالم.

إن ما حدث ليسوع، وهو خارج من مياه نهر الأردن، حدث له وحده: «فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السموات قد انفتحت له فرأى

---

(١) مري، حياة يسوع، ص ٢٨.

(٢) دانيال ٧ : ١٢-١٤.

روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه، وصوت من السماء قائلاً هذا هو ابنى الحبيب الذى سررت به» (١). كان هذا الحدث ميلاداً جديداً وفجائياً، لقد سيطر عليه شئ لم يكن منه، إحتوى روحه واحتضنه فى رقة ولطف وحنو كما لو كان حمامة، وامتزجت المفاجأة بالسعادة، والسلام بالانشراح، سلام وانشراح ليسا منه، ورغم ذلك كانا ينبعان من داخله. وفى مستقبل أيامه تحدث عن كيف تسعد السماء بتوبة خطاء واحد، أكثر من سعادتها بتسع وتسعين ممن لا يحتاجون إلى التوبة. ذلك لأنه ذهب إلى يوحنا ليعتمد، لقد أتى كخطّاء حقاً، على الرغم من أن الكل قد يجمع على أنه لم يكن كذلك. ومهما يكن من أمره فإنه كان تجسيداً للأمانة، وما كان ليسعى أبداً إلى أن يتعمد، تطهيراً من الخطايا، إن لم يكن قد تملكه الإحساس بالخطيئة. لقد أتى ، أيضاً، لكى يرى ويستمع إلى نبى وكان من الممكن أن يراه ويستمع إليه، لكنه لم يكن ليسعى أبداً إلى أن يعتمد على يديه بلا سبب، كى يصبح مجرد مظهرى فى عقيدته، كهؤلاء الذين هاجمهم بعنف وأدانهم. إن ما عرفه يسوع وهو يصلى بجوار نهر الأردن فى ذلك اليوم، كان فجائياً ورائعاً ومذهلاً. لقد هبط الروح القدس كما الحمامة واستقر فى روحه، وتردد فى أعماقه صوت ما كان لينقطع أبداً، أنه هو ابن الله. هذه الكلمات لا يمكن معالجتها ببساطة وسهولة، فالذين لا يؤمنون بها يعتبرونها بلا معنى، مجرد خيال لأناس قرروا أن يبدأوا فى نسج خيوط الأسطورة. أما الذين يؤمنون حقاً فقد فسروها وأسبغوا عليها معنى يبعد كل البعد عن حقيقة التجربة التى مر بها يسوع فى ذلك اليوم قالوا : ابن الله الذى كان مع أبيه، منذ بداية الخلق، ثم تجسد بشراً.

إن ما عرفه يسوع. فى ذلك اليوم ، فجأة وفى اطمئنان وفرح ، لهو شئ عن نفسه وعن الله. إن ابن إسرائيل هذا ، ما كان ليشك يوماً فى وجود الله،

---

(١) متى ٣ : ١٦-١٧.

لكنه كان يريد أن يعرف الله. وهناك فرق شاسع بين أن تؤمن بوجود الله، وأن تعرف الله. لقد كان شوق يسوع النابع من مكنون أعماقه هو أن يعرف الله. لقد حاول أن يتعرف عليه من صوته فى كتب الشريعة والأنبياء، ولم يجده فى الزلزال أو الرعد أو البرق أو السحاب أو النار، ولكن وجده فى ذلك الصوت المطمئن الهادىء: أريد رحمة لا ذبيحة. هذا ما كان يبحث عنه يسوع: إله الرحمة لا الذبيحة .. إله يستطيع أن يحبه ويشعر هو أيضاً أنه محبوب، الحب بين العابد والمعبود، الحب بين الأب والابن الذى يحب أباه ولا يحب أبداً أن يعصيه. ورأى فى نفسه، حباً، إبناً لله، ودعى البشر جميعاً فى مقتبل أيامه أن يكونوا مثله، أبناء لله. ويعد هذا السلوك عملاً برومثيوسياً من أعمال التمرد والإبداع، غير به فكر الإنسان وطبيعة البشر.

وتحكى لنا الأناجيل، أنه بعد أن تعمد يسوع وخرج من مياه نهر الأردن، دفعت به «الروح» إلى الصحراء، حيث حاول إبليس إغواءه: «ثم أصعد يسوع إلى البرية ليجرب من إبليس، فبعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً، فتقدم منه المجرب وقال له إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً. فأجاب وقال مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله. ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل، وقال له إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل، لأنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك فعلى أياديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك. قال له يسوع مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك. ثم أخذه أيضاً إبليس إلى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له أعطيك هذه جميعاً إن خررت وسجدت لى. حينئذ قال له يسوع اذهب يا شيطان، لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه تعبد. ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه»(١).

(١) مكتي ٤ : ١-١١.

ولا يمكن لأحد أن يعرف أو يحدد ماهية «الروح» فيسوع نفسه ما عرفها أبداً. لكن ليس من الصعب أن ندرك ماعناه عندما قال إن الروح قد هبط عليه ثم دفعه إلى الصحراء. إن «الروح» ها هى تلك الإضافة التى اكتمل بها نتيجة تجربته فى البحث عن الله، تلك القوة التى حلت به من خلال معرفته الفجائية أن إلهه إله محب عطوف. لقد كان «الروح» ببساطة جزءاً من القوة الإلهية التى حلت بيسوع بعد أن امتلأ يقينه بنور معرفة الله. تلك القوة التى حلت به لم تكن الله، لكنها كانت الإيمان بالله فى داخله. ولم يكن من المستغرب أن يطلق على تلك القوة الإلهية اسم «الروح»، فقد مر أنبياء من قبل يسوع بتجارب مشابهة، وحلت بهم «روح الرب»، كما هو واضح فى «سفر إشعياء»، على سبيل المثال، «ويخرج قضيب من جذع يسى وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب»(١).

وإن كان الله قد فاض بروحه وغمر يسوع، فلماذا لا يفيض بروحه ويغمر بقية البشر؟ المشكلة هى أنهم لا يعرفون أنهم أبناء الله، لكن إذا كان هو قد عرف، فلماذا الآخرون أيضاً لا يعرفون؟ بالتأكيد ليس هذا بمستحيل، إنه هو قد عرف، وعلى ذلك فمن الممكن أن يعرف كل البشر ويصبحون، كما أصبح هو، أبناء الله، ويحل «الروح» بهم جميعاً كما حلّ به هو. البشر جميعاً أبناء الله، كل ما ينقصهم هو المعرفة. وعندما يصلون إلى لحظة المعرفة، وتتحول المعرفة إلى يقين، تتغير الحياة ويتغير وجه العالم فى لمح البصر. إن ملكوت الله بدأ فى تلك اللحظة من الزمن، وسر الملكوت يكمن فى أنه ليس هناك ملك، لكن هناك فقط أب لكل البشر: الأب الذى فى السماء.

كان على يسوع أن يذهب تواً وأن يعلن الأخبار السارة، دون أن تضيع

---

(١) إشعياء ١١ : ١.

سويعة واحدة من عمر الزمن، لكن «الروح» دفعه دفعاً إلى الصحراء، حيث بدأ الشيطان فى غوايته. لقد ظل أربعين يوماً وأربعين ليلة لا يأكل ولا يشرب إلا ما تعطى الصحراء، وشعر بإرهاق روحه فى صراعها مع روح الشر، وقد أثقلت بحمل المعرفة، وانتصر فى النهاية لأنه كان الأقوى، وقد امتلأ بتلك القوة وتلك الإرادة، وذلك الحب الذى هو من روح الله.

لم يبدأ يسوع فى تبليغ رسالته واستبيان معرفته مباشرة، بعد أن تخطى مرحلة الإغواء فى البرية. كان يوحنا لا يزال على قيد الحياة، يعمد ويعلم وينذر، ولم يكن يسوع قد تبين الطريق بعد، وعلى الرغم من أصالته العميقة، إلا أن يسوع بدأ بتقليد يوحنا لعدة أسابيع على الأقل، فقد كان يوحنا يعمد بحماس أعجبت به الكثرة، ووجد يسوع نفسه يفعل كما يفعل يوحنا، إذ قام بعملية التعميد، وكذا فعل تلاميذه، ومما لا شك فيه أنه كان يصحب عملية التعميد بموعظة كتلك التى كان يوحنا يلقيها. وما هى إلا فترة، حتى تساوى التلميذ مع استاذه وأصبح له مريدون يبحثون عنه لكى يعمدهم. كانت هناك بعض الغيرة بين التلاميذ، إذ اشتكى تلاميذ يوحنا من النجاح المتواصل للجليلى، وقد خشوا أن يحل تعميده محل تعميد يوحنا، غير أن المعلمين قد استعليا فوق هذا الفكر الذى لا يرقى إلى مستوى الشوامخ فى العقيدة والسلوك، وما كان ليسوع الذى كان، حتى تلك الآونة، غير معروف على نطاق واسع، أن يجادل فى شموخ يوحنا، أو أن يناقش منزلته الرفيعة. وعندما بدأ يسوع «يكرز»، بعد القبض على يوحنا، كانت أول كلمات فاه بها، ما هى إلا ترديد لإحدى العبارات المألوفة ليوحنا: «توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات»(١).

كما يوجد الكثير من عبارات يوحنا منتشرة فى أحاديث يسوع، ويبدو

---

(١) متى ٤ : ١٧.

أن المدرستين قد عاشتا على وفاق، ودون أى خلاف يذكر. وبعد مقتل يوحنا، كان يسوع، كأخلص أصدقائه، أول من أحيط بالنبأ.

كان يوحنا فى المقام الأول، مثله كمثل أنبياء اليهود القدامى، رقيباً على السلطة الحاكمة، ولم تكن الحيوية الدافقة التى يعبر بها عن آرائه لتمر دون أن تسبب له متاعب. ففى «يهودا»، لم يكن يوحنا ليعبأ ببيلاطس، على أنه فى «بيرية Perea» ما وراء الأردن، أصبح فى منطقة نفوذ أنتيباس «هيرودس». وكانت مواعظ يوحنا بما تتضمنه من تلميحات سياسية خفية، تقلق هذا الطاغية، فقد كان الحماس الوطنى والدينى الذى يثيره يوحنا فى كل من حوله، مثيراً لشكوك الحاكم، ثم أضيفت ضغينة شخصية تماماً، لكل الدوافع الخاصة بالدولة، جعلت من موت يوحنا المعمدان مسألة حتمية.

كانت «هيرودية» حفيدة هيرود العظيم، إحدى الشخصيات البارزة فى تلك الأسرة المأساوية، وكانت عاطفية طموحة عنيفة، تشمئز من اليهودية وتحتقر شريعتها. وكانت قد تزوجت ضد رغبتها من خالها «هيرود بن مريامن»، والذى لم يورث شيئاً من الملك، ولم يكن له فى الحياة العامة أى دور يذكر (١). وكان انحطاط قدر زوجها، بالنسبة لباقى أفراد الأسرة، مصدر قلق لها، وقد قررت أن تصل إلى السلطة مهما كلفها الأمر، وكان الملك «هيرودس انتيباس» هو وسيلتها لتحقيق هذه الغاية، فلم يستطيع هذا الضعيف أمام الإغراء أن يقاومها، تاه فيها عشقاً، ووعد بأن ينبذ زوجته إبنة الحارث، أمير قبائل بيريه وملك بترا Petra، ويكون لها وحدها. ولاذت الأميرة العربية بالفرار عندما أحست بما ينوى الإقدام عليه، بعدها بدأ الزواج الذى بدا محرماً بين انتيباس وهيرودية. لقد تزوج أنتيباس من أخته هيرودية وزوجها على قيد الحياة، وهكذا تم انتهاك الشريعة وتدنيس قوانينها وكان من عادة

---

(١) هناك رواية أخري تقول إنها كانت زوجة فيلبس الأخ غير الشقيق لهيرودس.

هذه الأسرة المنعزلة الكثيرة العدد، أن يتزاوجوا بين أنفسهم غير مبالين بشريعة أو دين.

وهاجم «يوحنا المعمدان» أنتيباس، فى عنف وضراوة، معلنا أن زواجه باطل، وأنه لا يمكن أبداً أن يفر من غضب الله. وكان رد فعل أنتيباس، ومن ورائه هيرودية، بالطبع، هو الأمر بالقبض على يوحنا وسجنه [1]. ولم يكن أنتيباس يرغب فى قتله، وتقول بعض الشائعات إنه كان يخشى إثارة الفتنة بين الجماهير. وفى رواية أخرى يقال: إنه كان يستمتع بالاستماع إلى السجين، وأن محادثاته معه كانت تسبب له الكثير من الحيرة. وظل نفوذ يوحنا قوياً رغم سجنه، فقد كان يتراسل مع تلاميذه، ويتصل عن طريقهم بيسوع، وازداد إيمانه وهو فى سجنه بقرب ظهور المسيح المخلص.

وفى سهرة خمر ورقص وطرب، بمناسبة مولد هيرودس، رقصت سالومى، إبنة هيرودية، رقصة أطارت بلب الملك زوج أمها، وجعلته فى نشوته العارمة يفقد توازنه، فأقسم أن يعطيها كل ما تطلب مهما كان طلبها. وطبقاً لما لقنتها أمها، طلبت الغانية رأس يوحنا على طبق. وأسقط فى يد الملك، لكنها أصرت، وما كان له أن يتراجع بعد أن وعد أمام رجال الحكم والحاشية، فأمر بقطع رأس يوحنا وهو كاره، ولم يعترض أحد حتى الكهنة ورجال الدين لم يسمع لهم صوت، فقد كان يوحنا قاسياً شديد البأس فى تعامله معهم.

وفى إنجيل «متى» نجد تفصيلاً لهذه الواقعة: «فإن هيرودس كان قد أمسك يوحنا، وأوثقه وطرحه فى سجن من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه لأن يوحنا كان يقول له لا يحل أن تكون لك. ولما أراد أن يقتله خاف من الشعب لأنه كان عندهم مثل نبى. ثم لما كان مولد هيرودس رقصت ابنة هيروديا فى

---

(١) كان ذلك في صيف عام ٢٩ ميلادية.

الوسط فسرت هيرودس ومن ثم وعد بقسم أنه مهما طلبت يعطيها. فهى إذ كانت قد تلقنت من أمها قالت أعطنى ههنا على طبق رأس يوحنا المعمدان، فاغتم الملك، ولكن من أجل الأقسام والمتكئين معه أمر أن يعطى، فأرسل وقطع رأس يوحنا فى السجن، فأحضر رأسه على طبق ودفع إلى الصبية، فجاءت به إلى أمها. فتقدم تلاميذه ورفعوا الجسد ودفنوه، ثم أتوا وأخبروا يسوع» (١).

وهكذا خرج يوحنا المعمدان شهيداً. قطعت رأسه من أجل راقصة سُرَّ بها الملك، وبذلك خلت الساحة ليسوع. لقد قام يوحنا بما كان يجب عليه أن يقوم به، انتهى دوره، وكان على يسوع أن يبدأ.

ولكن لماذا انتظر يسوع حتى تلك اللحظة؟ ... ربما لسببين :

أولهما : أنه كان يعرف أن رسالته فى جوهرها تختلف تماماً عن رسالة يوحنا، فقد كان يوحنا ينتمى إلى أنبياء العهد القديم المنذرين بالغضب القادم، ولن يظهر يسوع أبداً فى خلاف علنى مع يوحنا، حيث كان يوحنا بمثابة معلم له. وطوال حياته كان يسوع يشير بعظمة يوحنا ويصر عليها، فقد كان بالنسبة إليه أفضل من نبى: «الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان» (٢).

أما السبب الثانى: فهو أن يسوع كان يشعر فى أعماقه أنه مدين ليوحنا بالكثير، فلحظة تعميد يوحنا له كانت اللحظة الحاسمة الفاصلة فى حياته كلها. ولقد أظهر يسوع ولاءه فى تعامله مع تلاميذ يوحنا الذين اعتراهم الإضطراب بعد مقتل معلمهم، وهكذا فإنه ما كان يسوع ليبدأ رسالته أبداً طالما كان يوحنا على قيد الحياة، يعلم وينذر ويبشر .. على حين كانت نهاية

---

(١) متى ١٤ : ١-١٢.
(٢) متى ١١ : ١١.

يوحنا مؤشراً له، لكى يبدأ هو. لن يكون هناك خلط بينهما، إنها رسالة جديدة، لنبى جديد.

الفصل الخامس

الحواريون وبداية الدعوة

الفصل الخامس

الحواريون وبداية الدعوة

لم يترك «يسوع» منطقة البحر الميت ونهر الأردن، حتى تم القبض على يوحنا فى صيف عام ٢٩ ميلادية، على وجه التقريب. وكان اللجوء إلى صحراء يهودا، عادة ما يعتبر إعداداً لأحداث عظام، فهو نوع من الاعتكاف قبل أن تبدأ أحداث لها ما بعدها. وهكذا فعل يسوع مثل ما فعله غيره من قبله، فقضى أربعين يوماً فى البرية الموحشة، صائماً. ومن المعتقد أن يسوع قد مر بتجارب مرعبة خلال تلك الفترة التى قضاها فى ذلك المكان المجدب ، فلقد حاول إبليس أن ينفذ إليه بأوهامه وأن يغريه بوعوده غير أن يسوع قد صمد حتى النهاية، وانتصر على روح الشر، وعندها هبطت الملائكة، لكى تمد له يد العون، مكافأة له على هذا الإنتصار.

ومن الطبيعى أن يسوع قد علم بخبر القبض على يوحنا، بعد مقدمه من الصحراء، ولم يجد هناك ما يدعوه إلى الإقامة فى بلد يعتبر إلى حد ما غريباً عنه، وقد عاد يسوع إلى الجليل، موطنه الأصلى، بعد أن أنضجته تلك التجربة الهائلة، وعمقت فيه الإحساس بأصالته هو نفسه، وذلك بعد أن اتصل برجل عظيم يختلف عنه كثيراً. ولو أن يوحنا، ذلك الذى كان من الصعب أن يتجنب يسوع سلطانه ظل حراً فربما لم يتمكن يسوع حينئذ من أن يتخلص من تأثيره عليه، وربما ظل مجرد يهودى متشيع مجهول.

وعلى حين وضع يوحنا فى السجن، قل نفوذ مدرسته، ووجد يسوع نفسه حراً لكى يعبر عن إيحاء ذاته. وقد بدأ، منذ تلك اللحظة، يلقى دروسه ومواعظه بقوة أعظم ويكلم الجموع بسلطان: «وجاء إلى الناصرة حيث كان

قد تربى ودخل المجمع حسب عادته يوم السبت، وقام ليقرأ، فدفع إليه سفر إشعياء النبى، ولما فتح السفر وجد الموضع الذى كان مكتوباً فيه روح الرب على لأنه مسحنى، لأبشر المساكين، أرسلنى لأشفى المنكسرى القلوب، لأنادى للمأسورين بالإطلاق وللعمى بالبصر وأرسل المنسحقين فى الحزية وأكرز بسنة الرب المقبولة.. وانحدر إلى كفر ناحوم مدينة من الجليل، وكان يعلمهم فى السبوت، فبهتوا من تعليمه، لأن كلامه كان بسلطان» (١).

كان شعاره الأخبار السارة، وكانت أخباره السارة هى الإعلان عن اقتراب ملكوت السموات، وكانت عبارة «ملكوت السموات» مألوفة لدى اليهود من قبل. على أن يسوع قد أعطاها معنى أخلاقياً واجتماعياً لم يكن مألوفاً آنذاك، فقد أعلن أن قوة الشر قد سادت فى عالمه الحاضر، ومن ثم أصبح إبليس سيد هذا العالم بعد أن خضعت لجبروته كل القوى المسيطرة: الملوك يقتلون الأنبياء ... رجال الدين لايفعلون ما يؤمرون به .. الأتقياء مضطهدون ... والقليل الطيب يبكى منتحباً، وهكذا أصبح هذا العالم الإبليسى عدواً لله وقديسيه. على أن هذا الضلال الذى بلغ أقصى مداه، ما كان ليستمر أبداً، إذ لابد أن يأخذ الخير دوره بقوة ويسيطر، ولابد أن يسترد الأتقياء مكانتهم فى ملكوت الله. حينئذ ستحدث ثورة رائعة ومفاجئة، سيبدو العالم كأنه قد انقلب رأساً على عقب، ويكفى أن ترى عكس ما هو موجود تقريباً، فالأول يصبح الأخير، ويكون ملكوت الله كطرح شبكة هائلة تجمع داخلها السمك الجيد والردىء، يحتفظ بالطيب، أما الردئ فيقذف به إلى بعيد.

فمن يقيم هذا الملكوت إذن؟ هنا، لا بد وأن نذكر أن أول أفكار يسوع وأكثرها عمقاً وأصالة فى طبيعة تكوينه، هو أنه ابن الله والمنفذ لإرادته. ولقد

---

(١) لوقا ٤ : ١٦-٣٢.

استولت فكرة أنه مسئول عن إقامة ملكوت الله، استيلاء كاملاً على فكره، إذ اعتبر نفسه مسئولاً عن تنفيذ مشيئة الرب. وما كانت السماوات والأرض، والطبيعة بكل ما فيها، حتى الجنون والمرض والموت، إلا وسائله وأدواته للوصول إلى غايته.

حقاً لم يذكر التاريخ، ولم تشر الأناجيل، أن يسوع قد عمل يوماً بالسياسة، أو أنه فكر فى التمرد أو الثورة ضد الرومان، أو الأمراء، وأما خضوعه للسلطة القائمة فكان كاملاً فى مظهره ... لقد دفع الجزية لقيصر لكى يتجنب إثارة المتاعب، محتقراً العالم الأرضى، ومقتنعاً أن عالمه الحاضر لا يستحق الاكتراث به إذا ما قورن بالملكوت القادم، أى بمملكته المثالية .

لقد استقرت فى أعماق يسوع دعائم الإيمان بحرية الروح التى لا يمكن للإنسان أن يحيا بدونها فى سلام، بيد أنه ـ حتى تلك اللحظة ـ لم يكن قد قال بعد: مملكتى ليست من هذا العالم. وكان السؤال الذى فرض نفسه شديد الإلحاح شديد الخطورة: كيف يقام ملكوت الله؟ يقال إنه ذات يوم رغب رجال الجليل البسطاء أن ينصبوا يسوع ملكاً، لكنه فر إلى الجبال، وظل هناك وحده فترة من الوقت: «وأما يسوع فإذا علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً انصرف أيضاً إلى الجبل وحده» (١). لقد كانت الثورة التى يحاول يسوع تحقيقها إن جاز لنا أن نطلق على ما قام به لفظ ثورة ـ ثورة أخلاقية، لا ثورة مادية، تقوم على أسس روحية خالصة. وكان هذا رائعاً ومروعاً فى وقت واحد، إذ حاول ذلك فى قلب امبراطورية تقوم فى جوهرها على مبدأ القوة المتوحشة .

لم تكن لدى يسوع أدنى فكرة عن الحكومة المدنية أو نظام الحكم، فقد بدت له تلك الحكومة كأنها إهانة ضد البراءة والبساطة، وكان يتكلم

---

(١) يوحنا ٦ : ١٥.

عنها بأساليب غير واضحة كرجل من عامة الناس، ليست لديه أدنى فكرة عن السياسة. لكن الرغبة لم تعتريه يوماً في أن يحل محل أى من الحكام الأغنياء الأقوياء، كان يود استئصال الثروة والقوة، غير أنه لم يفكر فى امتلاكهما. لقد تنبأ بكل أنواع العذاب والاضطهاد لنفسه ولأتباعه، إلا أنه لم يفكر بصورة واقعية فى استخدام القوة المسلحة لكى يقاوم الشر، وكانت الفكرة التى انبعثت من أعماقه هى أن يكون هو الأقوى بالاستسلام والمعاناة، منتصراً على القوة بطهارة القلب.

وكان سؤال : لمن يلجأ ، وفيمن يثق، وهو يقيم ملكوت الله؟ ولم يتردد طويلاً فيما يختص بهذا الأمر، فالذين يقيمون ملكوت الله، هم أنقياء القلوب البسطاء، عامة الناس من رجال ونساء، لا الأغنياء ولا الكهنة ولا الفقهاء.

كان حلمه الأكبر هو أن يحقق ثورة روحية، تنقلب بواسطتها الأوضاع الاجتماعية، وتنهار فيها كل السلطات الدنيوية، ولن يكون تلاميذه والمؤمنون به من عالم القوة المتوحشة.

ولم يكن من الضرورى أن يوقع الفرد عقداً أو أن يعلن عن أى اعتراف بالإيمان، لكى يصبح تلميذاً فى مدرسة يسوع. فقط شئ واحد كان ضرورياً، هو: أن يؤمن بما يقول يسوع .. أن يحبه .. أن يرتبط به وأن يتبعه. وإذا كان ذلك الفرد من الأغنياء، فعليه أن يبيع كل ما يملك، ويعطيه للفقراء، فملكوت الله يجب أن يشترى بكل ما يملكه الإنسان.

وكان أول تلاميذ يسوع من الصيادين، حيث كان يُعلِّم بجانب البحيرة. وتعتبر بحيرة طبرية من أغنى بحيرات العالم بأسماكها المختلفة، لذا كونت عائلات الصيادين من حولها مجتمعاً دمثاً مسالماً يسوده الحب والمودة. ولقد أطلقت حياتهم، السهلة نسبياً، الحرية لخيالهم، ومن ثم، فقد وجدت الدعوة إلى ملكوت الله تصديقاً لم تلقه فى أى مكان آخر. لقد ذهب يسوع

إلى الناصرة من قبل ليعلم أهلها فسخروا منه ولم يصدقوه، بل حاولوا أن يقتلوه: «وكان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه ويقولون أليس هذا ابن يوسف. فقال لهم على كل حال تقولون لى هذا المثل أيها الطبيب اشف نفسك ... وقال الحق أقول لكم إنه ليس نبى مقبولاً فى وطنه ... فامتلأ غضباً جميع الذين فى المجمع حين سمعوا هذا فقاموا وأخرجوه خارج المدينة، وجاءوا به إلى حافة الجبل الذى كانت مدينتهم مبنية عليه حتى يطرحوه إلى أسفل. أما هو فجاز فى وسطهم ومضى وانحدر إلى كفر ناحوم مدينة من الجليل» (١).

هنا، فى كفر ناحوم، وجد يسوع من يصدقون كلماته، ومن يؤمنون بدعوته، فعاش بينهم ووطن نفسه كواحد منهم، وأصبحت كفر ناحوم مدينته «الخاصة». وفى وسط هذه الدائرة الصغيرة، نسى أهل الناصرة وسخريتهم منه وعدم تصديقهم له.

وكان أول من تبع يسوع من صيادى البحيرة، بطرس وأندراوس، ثم يعقوب ويوحنا، أما كيف تبعه بطرس وأندراوس، فرواية إنجيل «يوحنا» تختلف تماماً عن رواية إنجيل «لوقا»، إذ جاء فى إنجيل «يوحنا» : يشير يوحنا المعمدان إلى يسوع، ويقول لاثنين من تلاميذه ... هو ذا حمل الله ... فيتبعان يسوع ويمكثان معه يوماً. وكان أندراوس أحد هذين التلميذين، «هذا وجد أولاً أخاه سمعان فقال له قد وجدنا ميسيا الذى تفسيره المسيح، فجاء به إلى يسوع» (٢).

أما فى إنجيل «لوقا» ، فنجد أن يسوع هو الذى يذهب إلى السفينة التى كانت لسمعان، حيث يجلس ويعلم الجموع: «ولما فرغ من الكلام قال لسمعان أبعد إلى العمق وألقوا شباككم للصيد، فأجاب سمعان وقال له

(١) لوقا ٤ : ٢٣ - ٣١.
(٢) يوحنا ١ : ٤١ - ٤٢.

يامعلم قد تعبنا الليل كله ولم نأخذ شيئاً ولكن على كلمتك ألقى الشبكة. ولما فعلو ذلك أمسكوا سمكاً كثيراً جداً فصارت شبكتهم تتخرق، فأشاروا إلى شركائهم الذين فى السفينة الأخرى أن يأتوا ويساعدوهم فأتوا وملأوا السفينتين حتى أخذتا فى الغرق، فلما رأى سمعان بطرس ذلك خر عند ركبتى يسوع قائلاً أخرج من سفينتى يارب لأنى رجل خاطئ، إذ اعترته والذين معه دهشة على صيد السمك الذى أخذوه. وكذلك يعقوب ويوحنا ابنا زبدى اللذان كانا شريكى سمعان. فقال يسوع لسمعان لا تخف من الآن تكون تصطاد الناس. ولما جاءوا بالسفينتين إلى البر تركوا كل شئ وتبعوه»(١).

لقد اختار يسوع من بين أتباعه اثنى عشر تلميذاً وقربهم إليه، وهم : سمعان الذى يقال له بطرس، وأندراوس أخوه، ويعقوب بن زبدى، ويوحنا أخوه، وفيلبس وبرثو لماوس، وتوما، ومتى العشار، ويعقوب بن حلفى، ولباوس الملقب : تداوس، وسمعان القانوى، ويهوذا الإسخريوطى (٢). وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم اسم «الإثنا عشر» أو «الحواريون» أو «الرسل»، وقد قال لهم يسوع فيما بعد، إنهم سيكونون مسئولين يوم القيامة عن محاكمة قبائل إسرائيل الإثنتى عشرة. كما أنه أعدهم لكى يعلموا ويعظوا، وتكون لهم القدرة على شفاء المرضى وطرد الأرواح الشريرة. أما «لباوس» الملقب «تداوس»، والمذكور فى إنجيل «متى» كواحد من الإثنى عشر، فلم يرد ذكر اسمه مطلقاً فى إنجيل «لوقا» على حين ذكر «يهوذا» أخو «يعقوب» بدلا منه(٣). وأما يهوذا الإسخريوطى فكان يمثل نشاذا فى وسط مجموعة الخلصاء، إذ أنه الوحيد الذى لم يكن من أهل الجليل. ثم اختار يسوع بعد ذلك سبعين آخرين.

---

(١) لوقا ٥ : ٤-١١.
(٢) متى ١٠ : ٢-٤.
(٣) لوقا ٦ : ١٦.

ومن بين كل أتباعه، كان الإثنا عشر تلميذاً يكونون مجموعة متميزة ومختارة، وكان «بطرس» يحتفظ بمكان الصدارة فى قربه من يسوع. وكانت ثقة يسوع مطلقة فى هذه المجموعة المنتقاة، إذ كان يحدثهم كثيراً وطويلاً عن الدعوة ووسائل تقدمها وانتشارها، ومن الواضح أنه كان يبوح لهم ببعض الأسرار ويمنعهم من أن يعلنوها .. كان يكشف عن خفايا نفسه ومكنون ذاته لهؤلاء الإثنى عشر فقط.

وفى أثناء حياته كان الحواريون يعلمون، دون أن يبتعدوا عنه كثيراً، ولم تكن مواعظهم لتزيد عن تبشيرهم بمقدم ملكوت الله، وكانوا، أحياناً، ينتقلون من مدينة إلى مدينة، معتمدين على كرم الضيافة، وبمجرد استقرارهم فى بيت، كانوا يمكثون فيه، يأكلون ويشربون ما يقدم لهم، إلى أن تنتهى مهمتهم. ولقد طلب منه «ابنى زبدى» يوماً، فى لحظة انفعال، أن ينتزل ناراً من السماء لكى تحرق المدن البخيلة التى لا تقابلهم بكرم، ولكنه كان دائماً ما يسكتهم بقوله إنه قد جاء بالأنباء السارة من أجل سعادة الإنسان. ولقد أسبغ عليهم يسوع الكثير من فضائله ومقدرته على صنع المعجزة.

لقد وجد يسوع فى أحد منازل «كفر ناحوم» مأوى مناسباً، وتلميذين من أخلص تلاميذه، هما : سمعان ولقبه صفاً أو بطرس، وأخوه أندراوس. كان بطرس متزوجاً وله أولاد، وكانت حماته تعيش معه، وقد أحب يسوع هذا البيت واعتاد العيش فيه. واستمر الأخوان، حتى فى فترات انشغالهما بمعلمها، فى عملهما كصيادى سمك، على الرغم من أن يسوع، الذى كان يحب اللعب بالألفاظ أحياناً، كان قد طلب منهما أن يتركا صيد السمك، لأنه سيجعلهما «صيادى الناس»

وقد اعتنت أسرة أخرى بمقام يسوع، واحتفت به، وتلك هى أسرة زبدى Zebedee أو Zabdia وهو صياد غنى، يملك عدة قوارب، وكان ابنى زبدى: يعقوب «الأكبر»، و يوحنا «الأصغر» من أشد المتحمسين ليسوع.

كان الأخوان ممتلئين بالعاطفة والحماس المتقد، ولهذا أطلق عليهما يسوع «ابنَيْ الرعد». وكانت «سالومى» زوجة «زيدى» وثيقة الصلة بيسوع. ويقال إنها صحبته حتى موته، وشاهدته معلقاً فوق الصليب .

وتنص الأناجيل المعتمدة على أن بطرس ويعقوب ويوحنا كانوا يكونون مجلساً خصوصياً يدعوه يسوع إلى الاجتماع عندما يشك فى فهم وذكاء الآخرين. وكان حب يسوع لبطرس قوياً، كما كان بطرس مستقيماً مخلصاً، تلقائى السلوك تسيطر عليه نزعة صوفية، وأحياناً كان يحيط يسوع بشكوكه البسيطة، وضعفه البشرى، بصراحة وشرف، مما أسعد يسوع به وضمن له بين زملائه مكانة مميزة. عاش يسوع فى بيته، وعلم وهو فى قاربه، وعلنا كان يسوع يجهر بأن بطرس هو أكثر التلاميذ ثقلاً ، وأعمقهم إحساساً، إذ أنه كان أول من نفذ إلى أعماق يسوع وأعلن عن حقيقة ما يحس به قائلاً له: إنك أنت المسيح. ومن ثم كان يسوع يضعه فى مكانه خاصة فى كنيسته ويمنحه اللقب السريانى Kephat ، أى الصخرة، بمعنى أنه قد جعل منه الصخرة التى يقيم عليها بنيان كنيسته، ويصل تفضيله له إلى حد أن يعده بمفاتيح مملكة السماء، وبأن يمنحه الحق بأن كل ما يتخذه من قرارات على الأرض ستباركها السماء.

وقد أثار تفضيل يسوع لبطرس بعض الغيرة، وربما الحسد، فيما يتعلق بالمستقبل، عندما يحل ملكوت الله، ويجلس الحواريون على عروش، عن يمين ويسار «ابن الإنسان» ـ هكذا كان يسوع يشير إلى نفسه ـ ليحاكموا قبائل إسرائيل الإثنتى عشرة: «فقال لهم يسوع الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتمونى فى التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسى مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثنى عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الإثنى عشر» (١)،

---

(١) متى ١٩ : ٢٨-٢٩.

كانوا يسألون عمن سيكون أقربهم إليه، من الأول عن يمينه ومن الأول عن يساره. وكان ابنى زبدى يطمعان فى احتلال هذه المكانة، وعندما سيطرت الفكرة على رأسيهما، دفعا بأمهما سالومى، لكى تتحدث إلى يسوع فى هذا الأمر. وببساطة شديدة تدل على عدم إدراك وعدم وعى أو عدم فهم لما يقوله يسوع، تقدمت إليه وطلبت منه أن يخص ولديها بمكانى الشرف، عن يمينه وعن يساره : «حينئذ تقدمت إليه أم ابنى زبدى وسجدت وطلبت منه شيئاً، فقال لها ماذا تريدين، قالت له أن يجلس إبنای هذان واحد عن يمينك والآخر عن اليسار فى ملكوتك» (١)، ولقد تمكن يسوع من عدم إجابتها إلى طلبها بمهارة فائقة حيث ساق مقولته المعروفة: من أراد أن يكون فيكم عظيماً فليكن لكم خادماً، ومن أراد أن يكون فيكم أولاً فليكن لكم عبداً (٢).

ولكى يرضى الفكرة السائدة والتى كان لها، فى ذات الوقت، صدى فى نفسه، أخفى سرقوته وسموه ورفعته عن كل من حوله، الأمر الذى سمح لأتباعه أن يعتقدوا أن وحياً من السماء يكشف له كل الأسرار ويفتح له كل القلوب، وتصور المحيطون به أنه يعيش فى نطاق خارج النطاق البشرى، فكانوا يقولون: إنه يتكلم من فوق الجبال مع موسى وإيليا، وإنه عندما يكون وحده تأتى الملائكة لتوقره وتصل ما بينه وبين السماء.

وعلى أية حال، فإنه من الغريب حقاً أن أسرة يسوع لم تؤمن به مطلقاً، ولم تجد رسالته قبولاً لديهم، وطوال حياته لم تتبعه أمه ولم يؤمن به أخوته. ومن السخريات الكثيرة فى تاريخ المسيحية، أن سمعان، أخ يسوع، الذى لم يسجل له أى نشاط فى حياة يسوع سوى أنه حاول إعادة يسوع إلى الجليل، مدعياً أنه مجنون، يصبح سمعان هذا، بعد موت يسوع، على رأس الكنيسة

---

(١) متى ٢٠ : ٢١.

(٢) متى ٢٠: ٢٦-٢٧.

المسيحية فى أورشليم! وقد يشك البعض فى صدق عقيدة سمعان، وربما ادعوا أنه استغل رابطة الدم لكنه لم يتأثر روحياً برسالة يسوع. ومن المرجح أن سمعان كان متديناً إلى درجة التطرف، كما أنه من الواضح أنه وكل أفراد أسرة يسوع، بما فيهم أمه، كانوا من أتباع يوحنا المعمدان وكانوا يعلمون أن رسالة يسوع فى جوهرها ما هى إلا إنكار لرسالة يوحنا، لهذا رفضوها ولم يتبعوا صاحبها. وكان هناك شقاق مطلق بين يسوع وأسرته طوال أيام حياته، ولم تقف أمه بجانبه حتى فى أيام المحنة ولم تصبح ذات أهمية إلا بعد موته.

أما خالته «مريم كليوفاس Cleophas» فقد تبعته حتى النهاية. وهذا معناه أنه كان بين أتباع «يسوع» نساء [1]، كن يستضفنه فى شغف، وقد كرست ثلاث أو أربع جليليات أنفسهن لخدمة يسوع، وكن دائماً فى صحبته، يتنافسن على خدمته والاستماع إليه. وكانت إحداهن مريم المجدلية التى منحت شهرة كبيرة لتلك البلدة الصغيرة الفقيرة: «مجدل». وهناك أيضاً مريم التى من بيت عنيا وأختها مرثا Martha، كما قامت يونا Juanna زوجة خوزى، وكيل هيرودس، وسوسنة Susanna، وأخريات، بخدمته واتباعه بصورة مستمرة. كان بعضهن على قدر من الثراء، وبثروتهن مكّنّ النبى الشاب من أن يعيش دون أن يحتاج إلى المهنة التى كان يعمل بها قبل أن يبدأ دعوته.

كانت مريم المجدلية شديدة الحماس فى طبعها وسلوكها وبلغة ذلك الزمان تملكها سبعة شياطين، بمعنى أنها كانت مصابة بأمراض عصبية لايمكن بوضوح معرفة أسبابها. ولقد تمكن يسوع، برقته ونقائه، أن يهدئ من روع هذه الطبيعة المضطربة: «كان يسير فى مدينة وقرية يكرز ويبشر بملكوت الله ومعه الإثنا عشر وبعض النساء كن قد شفين من أرواح شريرة وأمراض، مريم التى تدعى المجدلية التى أخرج منها سبعة شياطين، ويونا امرأة

(١) ذكرنا من قبل إحداهن وهي سالومي زوجة زبدي.

خوزى وكيل هيرودس وسوسنة وأخر كثيرات كن يخدمنه من أموالهن» (١). ولقد أخلصت المجدلية ليسوع حتى يوم صلبه، ولعبت دوراً هاماً بعد موته.. لقد كانت العامل الرئيسى فى تثبيت الإيمان بقضية البعث.

ويبدو أن مريم المجدلية كانت تتحرك فى صحبة يسوع، بين الجليل ويهودا كلما عنّ له التحرك، ولا نجد حرجاً فى ذلك، وهذا يدل بوضوح أنها كانت امرأة متزوجة، إذ أنه فى فلسطين آنذاك كان من المستبعد، إن لم يكن من المستحيل على امرأة غير متزوجة أن تسافر دون أن يصحبها أحد، ويصبح الأمر أكثر صعوبة أن تسافر، دون رفيق، مع معلم دينى وبطانته. وعلى ذلك فإنه فى بعض الأحيان، يدعى البعض أنها كانت متزوجة من أحد تلاميذ يسوع. ولا يوجد فى الأناجيل الأربعة ما يدل على صحة هذا الادعاء. وعلى أية حال، لو كان الأمر كذلك، فإن علاقتها الخاصة جداً بيسوع وقربها منه كان من الممكن أن يعرضها للشك، هذا إن لم يتهمها بعض ضعاف النفوس بالزنا. ويدعى مؤلفو كتاب «الدم المقدس»، أنه مكتوب بوضوح فى «إنجيل فيليب» أن رفيقته المخلصة هى مريم المجدلية، وكان يسوع يحبها أكثر من كل التلاميذ، وغالباً ما كان يقبلها فى شفتيها (٢). وهذا كلام رخيص وممجوج ومرفوض، فلو افترضنا صحة ما جاء فى بعض كتب التراث المسيحى من أنها كانت «عاهرة»، فقد كانت «عاهرة» تبحث عن الخلاص، لا عن الاستمرار فى العهر. ولقد مجدتها الكنيسة، خصوصاً فى فرنسا حيث رحلت بعد موت يسوع ومعها ما يعتقد أنه الكأس المقدسة، واعتبرتها كواحدة من أعظم القديسات فى تاريخ المسيحية، إن لم تكن أعظمهن جميعاً.

ويجب التأكيد بوضوح لاشك فيه أنه لم يذكر فى أى من الأناجيل الأربعة المعتمدة أن المجدلية كانت «عاهرة». وعندما تذكر لأول مرة فى إنجيل

---

(٢) لوقا X : ١ . ٣.

(١) كتاب الدم المقدس، .. ص ٣٨٢.

«لوقا»، توصف على أنها امرأة أخرج يسوع منها سبعة شياطين. وفى فصل سابق لحديثه عن المجدلية، يشير «لوقا» إلى امرأة تمسح قدمى يسوع بشعر رأسها وتقبلهما وتدهنهما بالطيب ويصف «لوقا» هذه المرأة بأنها «كانت خاطئة» (١). أما فى إنجيل «مرقص» فتوجد رواية مشابهة بطلتها امرأة غير مذكورة الاسم. ولا يشير «لوقا» أو «مرقص» بوضوح إلى أن تلك المرأة كانت هى المجدلية، فيقرر «لوقا» فقط أنها كانت امرأة خاطئة. ولقد افترض المعلقون فيما بعد أن المجدلية، التى أخرج منها يسوع سبعة شياطين، كانت امرأة خاطئة، وعلى هذا الأساس فإن المجدلية والمرأة التى دهنت قدمى يسوع بالطيب قد تم اعتبارهما شخصاً واحداً، وربما كانتا كذلك.

ولو كانت المجدلية، قبل اتباعها يسوع، مرتبطة بعبادة أو دين وثنى، لكان هذا كافياً بالتأكيد لاعتبارها خاطئة، ليس فقط فى نظر «لوقا»، بل أيضاً فى نظر من تبعه من كتاب. ويدلل على صدق هذه النظرة، وصف «زكا» على أنه رجل خاطئ لمجرد أنه كان رئيس العشارين وكان غنياً: «وطلب أن يرى يسوع من هو ولم يقدر من الجمع لأنه كان قصير القامة ، فركض متقدماً وصعد إلى جميزة لكى يراه لأنه كان مزمعاً أن يمر من هناك ، فلما جاء يسوع إلى المكان نظر إلى فوق فرآه وقال له: يازكا أسرع وأنزل لأنه ينبغى أن أمكث اليوم فى بيتك، فأسرع ونزل وقبله فرحاً، فلما رأى الجمع ذلك تذمروا قائلين إنه دخل ليبيت عند رجل خاطئ»(٢).

ولو افترضنا أن المجدلية كانت امرأة خاطئة بالمعنى المألوف لدى العامة، فليس فى ذلك ما يشينها بعد أن آمنت برسالة يسوع، واتبعته ورمت ماضيها وراء ظهرها، وبدأت تعد نفسها روحياً لكى تأخذ مكاناً فى ملكوت الله. وما كان يسوع ليتردد لحظة واحدة فى أن يحتضن المجدلية وأمثالها، فلهذا جاء.

---

(٢) لوقا ٧ : ٣٧.

(١) لوقا ١٩ : ٣-٧.

قال الفريسيون لتلاميذه يوماً: «لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة، فلما سمع يسوع قال لهم لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى فاذهبوا وتعلموا ما هو . إنى أريد رحمة لا ذبيحة، لأنى لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة» (١).

وعلى أية حال، فقد أصبحت مريم المجدلية، بعد موت يسوع، شخصية على غاية قصوى من الأهمية، ففى الأناجيل الثلاثة الأولى، يتصدر اسمها قائمة أسماء النساء اللاتى يتبعن يسوع، تماماً كما يتصدر اسم سمعان بطرس قائمة اتباعه من الرجال. وكانت هى أول من شاهد المقبرة الخالية بعد صلب يسوع، أى أنها أول شاهد على «قيامه بعد الموت»، وهذا الحدث فى حد ذاته يضمن لها مكانة فريدة ومتميزة فى التاريخ المسيحى.

ومهما تكن مكانة «المجدلية» فى الأناجيل، فإنها ليست المرأة الوحيدة البارزة التى ظهرت بين أتباع يسوع، إذ أن هناك امرأة أخرى تبدو صورتها واضحة المعالم فى الإنجيل الرابع، هى مريم بيت عنيا، أخت مرثا ولعازر. ومن الواضح أنها وأفراد أسرتها كانوا يتعاملون مع يسوع بألفة كبيرة. كانوا أغنياء يعيشون فى بيت كبير فى إحدى ضواحى أورشليم الأنيقة والخاصة بالطبقة الثرية، كذلك كان فى البيت مقبرة خاصة، كما يظهر من حادثة لعازر، وهذا ترف كبير، فى زمن يسوع، ورمز للثراء والأرستقراطية .

ويحكى عنها «لوقا» قصة رائعة، إلا أنها غير محدودة الزمان أو المكان، فيقول: «وفيما هم سائرون دخل قرية فقبلته امرأة اسمها مرثا فى بيتها، وكانت لهذه أخت تدعى مريم التى جلست عند قدمى يسوع ، وكانت تسمع كلامه، وأما مرثا فكانت مرتبكة فى خدمة كثيرة، فوقفت وقالت يا رب أما تبالى بأن أختى قد تركتنى أخدم وحدى، فقل لها أن تعيننى. فأجاب

(١) متى ٩ : ١٠ - ١٣.

يسوع وقال لها مرثا مرثا أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة، ولكن الحاجة إلى واحد، فاختارت مريم النصيب الصالح الذى لن ينزع منها»(١). هذه لمحة شديدة الجمال، إلا أنه ليس هناك ما هو أكثر. وعلى ذلك فكل ما نعرفه عن مريم هو أنها أخت مرثا. هكذا تبدأ القصة وتنتهى.

أما ما يزيد عن ذلك فيعزى إلى يوحنا. ذلك لم يكن عبقرية دينية وحسب، بل إنه كان أيضاً فناناً عظيماً فى تصويره لهذه الشخصية. إن إيحاءاته وتخميناته لابد وأن توضع فى الحسبان، لقد تعامل يوحنا مع هذه الشخصية بحرية عبقرية، على الرغم من أن إنجيلى «مرقص» و «لوقا» كانا أمامه وهو يكتب إنجيله. فقد حدد شخصية المرأة التى دهنت يسوع بالطيب ومسحت رجليه بشعرها قبل أن يسلمه يهوذا: إنها مريم أخت مرثا، كما أنه خفض عدد التلاميذ الذين احتجوا على هذا التبذير إلى تلميذ واحد، حدده فى شخص يهوذا الإسخريوطى: «ثم قبل الفصح بستة أيام أتى يسوع إلى بيت عنيا حيث كان لعازر الميت الذى أقامه من الأموات، فصنعوا له هناك عشاء وكانت مرثا تخدم وأما لعازر فكان أحد المتكئين معه. فأخذت مريم منا من طيب ناردين خالص كثير الثمن ودهنت قدمى يسوع ومسحت قدميه بشعرها، فامتلأ البيت من رائحة الطيب، فقال واحد من تلاميذه وهو يهوذا سمعان الإسخريوطى المزمع أن يسلمه لماذا لم يبع هذا الطيب بثلثمئة دينار ويعط للفقراء» (٢).

وأشد ما فعله «يوحنا» جرأة، هو أنه حدد شخصية لعازر، وهو شخصية مبهمة تماماً فى حكاية لوقا، على أنه سمعان الأبرص، الذى عاش يسوع فى بيته، فى بيت عنيا، عندما دهنته المرأة بالعطر، كما أنه جعل من لعازر أخاً لمرثا ومريم. هذه لمسة من لمسات العبقرية، ولو كان شكسبير مكانه لفعل ما

---

(١) لوقا ١٠ : ٣٨-٤٢.

(٢) يوحنا ١٢ : ١-٥.

فعل وربما زاد عليه، غير أن النتيجة ما كانت لتصبح تاريخاً، بل فناً إبداعياً.

ويفصل «يوحنا» قصة مرض ليعازر وموته، ثم قيامه من بين الموتى، فيقول: غادر يسوع بيت عنيا لكي يمكث مع تلاميذه عدة أيام عبر الأردن إلى المكان الذى كان يوحنا يعمد فيه. سقط لعازر مريضاً وأرسلت الأختان إلى يسوع يخبرانه بمرض ذلك الشخص الذى يحبه ورغم ذلك، وبعد أن سمع يسوع بما حدث، أخر عودته إلى بيت عنيا لمدة يومين. وهذا رد فعل يدعو للتساؤل. ولاقت مرثا يسوع وهو فى الطريق، اندفعت إليه صائحة : «لو كنت ههنا لم يمت أخى» (١)، وهو تأكيد يدعو بدوره إلى الحيرة، كيف يمنع وجود يسوع الجسدى موت لعازر؟ بيد أن المهم فى هذا الأمر، على أية حال، هو أن مرثا كانت وحدها، عندما ذهبت لملاقاة يسوع . كان من المتوقع أن تكون أختها مريم معها، لكن مريم كان تلازم البيت، ولم تغادره حتى أمرها يسوع بذلك. لقد مضت مرثا «ودعت مريم أختها سراً قائلة المعلم قد حضر وهو يدعوك، أما تلك فلما سمعت قامت سريعاً وجاءت إليه. ولم يكن يسوع قد جاء إلى القرية بل كان فى المكان الذى لاقته فيه مرثا»(٢).

وهنا يثار سؤال : لماذا لم تخرج مريم مع أختها مرثا وتسرع إلى لقاء يسوع، وهى الشغوفة به، الجالسة دوماً عند قدميه؟ هناك تفسير واحد واضح لهذا السلوك وهو أنه طبقاً للتعاليم اليهودية فى ذلك الزمن، كان لا يمكن للمرأة المتزوجة أن تغادر بيتها، وهى فى حالة حداد، إلا بأمر جازم من زوجها، فهل كانت مرثا متزوجة؟ ومن كان زوجها؟ ولماذا أسرعت بالخروج عندما وصلها أمر يسوع بذلك؟ يدعى مؤلفو «الدم المقدس»، أن يسوع قد تزوج من مريم بيت عنيا (٣). ويستشهدون بما قاله يسوع لمرثا عندما اشتكت إليه أختها

---

(٢) يوحنا ١١: ٢١.

(١) يوحنا ١١ : ٢٨ - ٣٠.

(٢) كتاب الدم المقدس، .... ص ٣٣٥.

التى لا تساعدها فى عمل شئ، وتجلس دوماً عند قدميه، قال لها إن مريم قد اختارت «النصيب الصالح الذى لن ينزع منها»، وهذا كلام شديد الغرابة، خصوصاً عندما يصدر عن ثلاثة من الباحثين المسيحيين الذين يقررون بوضوح أنهم لا يرغبون فى تبيان شئ سوى الحقيقة.

ويضيف مؤلفو كتاب «الدم المقدس»، أن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن المرأة التى دهنت قدمى يسوع بالطيب، هى مريم المجدلية، أى أن المرأتين كانتا فى الواقع امرأة واحدة، فهل يمكن القول بأن هذه وتلك كانتا نفس مريم بيت عنيا، أى أن الثلاثة كن فى الواقع امرأة واحدة فقط؟ هل يمكن القول بأن هؤلاء النسوة اللاتى ظهرن فى الأناجيل فى ثلاث صور مختلفة، هن فى الواقع شخصية واحدة؟ وتميل كنيسة القرون الوسطى إلى اعتبارهن امرأة واحدة لا ثلاث، ويميل دارسو «الكتاب المقدس» إلى الأخذ بهذا الرأى أيضاً.

وإذا كانت «مريم بيت عنيا» من الأتباع الذين كرسوا حياتهم لخدمة يسوع، وهذه حقيقة تقررها الأناجيل، فأين اختفت فى اللحظات الحرجة الفاصلة بين الحياة والموت؟ إن غيابها ساعة صلب يسوع، يبدو غريباً ومثيراً للتساؤل. هل من المعقول ألا تشهد تلك اللحظة القاتلة؟ وهذا بالطبع لا يمكن استيعابه أو تفسيره، اللهم إلا إذا كانت قد حضرت فعلاً، وكتبت عنها الأناجيل تحت اسم مريم المجدلية. فإذا كانت مريم المجدلية ومريم بيت عنيا هما شخصية واحدة، لا اثنتين، ففى هذه الحالة يبدو عدم وجود مريم بيت عنيا، أثناء الصلب، أمراً طبيعياً.

ومن العسير مقاومة استنتاج أن القصتين لنفس المرأة، أى لإمرأة واحدة، وهذه المرأة هى مريم المجدلية: المرأة التى أخطأت كثيراً وأحبت كثيراً، وطرد منها يسوع سبعة شياطين، واستقامت حياتها بعد أن غفرت خطاياها. وإذا ما قبلنا هذا الاستنتاج فإن قصة المجدلية تصبح متناسقة، بعيداً عن الإسفاف

الرومانسى الذى حاول كتاب «الدم المقدس» أن يغرقوا فيه شخصيتها فيما يتصل بيسوع. لقد استمعت إليه، كما استمعت الألوف ، وهو يتحدث عن ملكوت الله، عن الأخبار السارة، عن إله محب عطوف، عن سماء تفرح بتوبة خطاء واحد أكثر من فرحتها بتسع وتسعين ممن لا يحتاجون إلى التوبة، هذا أروع ما يمكن أن يعلن عن إله غفور. رنت فى أذنيها كلمات يسوع وهو يقول: تعالوا إلى يا كل المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم. وهنا وجدت راحة روحها وطمأنينتها. لقد اشترت زجاجة العطر الثمين، وهو أغلى ما تملكه الغانية، ووقفت بالقرب من يسوع، وهى تبكى، وهو متكئ على أريكة، سقطت دموعها على قدميه، فجففت القدمين بشعرها، ثم قبلتهما مرة تلو مرة وصبت العطر عليهما، ولم تنطق بكلمة واحدة، فلم يكن هناك ما يقال، لقد أحبت كثيراً، لأنه كان قد غفر لها الكثير: «قد غفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيراً، والذى يغفر له قليل يحب قليلاً، ثم قال لها مغفورة لك خطاياك ... إيمانك قد خلصك. اذهبى بسلام» (١).

عاشت مريم مع أختها مرثا والغانية ، فى تلك الآونة، كانت لا تخبئ رأسها ولا تعيش منفية عن أسرتها، وبعطورها ومحبيها، كانت حياتها المادية سهلة إلى حد الثراء، وكانت مارثا هى سيدة البيت المسيرة لكل أموره. وبعد أن تغيرت مريم، ودخلت مرحلة السكينة والسلام، ذهب يسوع إلى بيتها، حيث جلست عند قدميه تستمع إلى كلماته، لقد اختارت «النصيب الصالح الذى لن ينزع منها» (٢).

فما هو، إذن، هذا النصيب الصالح الذى اختارته مريم؟ ليس بالطبع أن تعشق يسوع وتتزوجه، كما يدعى مؤلفو كتاب «الدم المقدس»، فهذا تفسير سئ لا يصدر إلا عن نفوس مريضة، حتى ولو كانت تدعى اعتناقها المسيحية.

---

(١) لوقا ٧ : ٤٧ - ٥٠.
(٢) لوقا ١٠ : ٤٢.

وهنا لا توجد على السؤال إلا إجابة واحدة، هى : إنه الحب لكل ما خلق الله وأبدع، الحب القائم على المودة والصفاء والنقاء، والذى لا يمكن لإنسان بدونه أن يدخل ملكوت الله.

وبكل هذا الحب الهائل، تبعته فى رحلته المريرة إلى أورشليم، ومن خلال قوة حبها فهمت ما عجز الحواريون عن فهمه، ذلك أن حبه للبشر قد دفعه إلى أن يقدم نفسه قرباناً لكى يكفر عن خطاياهم جميعاً. وفى اليوم السابق لذلك اليوم الذى قدم فيه نفسه «أضحية كحمل الله الوديع»، فكرت المجدلية فيما فعلته من قبل. لقد مسحت من قبل قدميه بالعطر، والآن لا بد أن تمسح رأسه، لقد أصبح بالنسبة لها هو «المسيح»، بيديها لابد أن يمسح وهو يواجه قدره. اشترت قنينة من المرمر ممتلئة بزيت الناردين، وهو عطر رائع ثمين فى قيمته مرتفع فى ثمنه، وذهبت إلى حيث يجلس، وصبت ما فى الزجاجة من عطر ثمين على رأسه، تضايق البعض، اعتبروا هذا تبذيراً، كان من الممكن أن يباع العطر ويعطى ثمنه للفقراء. قال لهم يسوع: «أتركوها، إنها ليوم تكفينى قد حفظته، لأن الفقراء معكم فى كل حين، وأما أنا فلست معكم فى كل حين» (١). لقد أقدمت المجدلية على فعل ذلك بإيمان نادر: «سبقت ودهنت بالطيب جسدى للكتفين، الحق أقول لكم حيثما يكرز بهذا الإنجيل فى كل العالم يخبر أيضاً بما فعلته تذكاراً لها» (٢).

إنه عمل جميل رائع، وربما تعلمته منه، وكان يفهم معنى ما قامت به. لقد تعلمت، من خلال حبها له، أن تصل بما تفعله إلى حد الكمال: لم يفعل مخلوق حى مثل ما فعلته، ولقد قال عنها يسوع ما لم يقله عن أى من تلاميذه.

وعلى الرغم من هذه الكلمات الرائعة التى قالها يسوع عن المجدلية،

---

(٢) يوحنا ١٢ : ٧.

(١) مرقص ١٤ : ٨-٩.

فإننا نجد كاتباً مثل يوكيم كال فى كتابه «بؤس المسيحية» يقول : إن الأناجيل تظهر يسوع كرجل يعامل النساء على أنهن من الدرجة الثانية، لقد سمح لهن بخدمته والإنفاق عليه من مالهن الخاص، لكنه لم يسمح لأى منهن أن تكون ضمن دائرة الإثنى عشر (١). ويضيف «كال Kahl» أن معظم آباء الكنيسة قد اتخذوا موقفاً شديد العداء بالنسبة للمرأة ـ شديد العداء إلى حد القبح، فكما يقول «ترتليان Tertullian» إنها «البوابة التى يعبر منها الشيطان»، وبناء عليه فهى مسئولة مسئولية كاملة عن موت «ابن الله»(٢). وهذه الكلمات لا تتفق ، بل إنها تتعارض تماماً مع ما قاله يسوع عن مريم المجدلية.

ما تزوج يسوع أبداً، ومن يقول بغير ذلك لا يملك دليلاً سوى وهم خيال مريض. كانت كل قوة الحب فيه مركزة على ما آمن بإنه رسالته السماوية، ولم يكن إحساسه الرقيق تجاه النساء ليتعارض مطلقاً مع تفانيه الكامل فى أداء رسالته. لقد عامل كل النسوة اللاتى سرن على الدرب معه كإخوات، ومن المحتمل، على أية حال، أنهن أحببنه أكثر، وأنه كان محبوباً أكثر منه محباً. وكما يحدث غالباً فى أصحاب الطبائع المتسامية، تحولت الرقة فى قلبه إلى عذوبة لا نهائية، وإلى شعر غامض، وسحر يخلب الألباب.

حقاً، لم يكن ليسوع رؤى، ولم يتحدث الله إليه، كما يتحدث إلى شخص منفصل عن ذاته، فقد كان يحس بأن الله فى داخله، ومن ثم كان يشعر بنفسه مع الله، وأن كل ما يصدر من قلبه إنما هو من عند أبيه. نعم ، لم يكن يراه، لكنه كان يفهمه دون حاجة إلى برق أو رعد أو عاصفة أو نار مشتعلة، ولم ينزل عليه ملك بوحى. ولم يتفوه يسوع أبداً بتلك الفكرة الآثمة: أنه هو الله تجسد. كان يؤمن أنه على صلة مباشرة بالله، وأنه ابن الله،

---

(١) كال ، ص ٧٤.

(٢) كال ، ص ٧٧.

وكان يدعو البشر إلى أن يكونوا جميعاً أبناء الله. وكان وعظه ، وهو يقف فى القارب، أو يجلس بين تلاميذه ومحبيه، رقيقاً طيباً، وكأنه يتنفس الطبيعة وعطر الحقول. أحب الزهور وأخذ منها أشد دروسه جاذبية، كما استمد تعاليمه من طيور السماء والبحر والجبل وألعاب الأطفال. ولم يكن ليسوع عصبية يهودية، فلقد تسامى بنفسه بشجاعة فائقة فوق تحيز أمته وتعصبها، وأرسى قواعد فكرة أبوة الله للبشرية كلها، وملكوته الذى يتسع لكل أبناء الله. ولقد صدق تلاميذه وأتباعه كل ما قال به، وآمنوا بجوهر رسالته.

الفصل السادس

جوهر الرسالة

الفصل السادس

جوهر الرسالة

كان يسوع فى حوالى الثلاثين من عمره، عندما بدأ يعبر عن أفكاره لمجموعة قليلة ممن اتبعوه، ولا أحد يستطيع أن يحدد بالضبط المدة التى انقضت بين بداية رسالته، وتضحيته الأخيرة «مرفوعاً على الصليب». غير أنه من قراءة إنجيل «يوحنا» يمكن استنتاج أن الرسالة ربما تكون قد استمرت لمدة ثلاث سنوات.

تحرك يسوع من الجليل إلى كفر ناحوم، ومن كفر ناحوم إلى شاطئ البحيرة، وفى هذه الأماكن تكلم وعلم. ازداد عدد المجموعة القليلة التى صحبته إلى يوحنا المعمدان، وربما انضم إليه بعض تلاميذ يوحنا نفسه بعد موته، ثم أتت إليه الجماهير. وبجرأة متناهية، أعلن أن الزمان قد اكتمل: «قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» (١).

اكتمل الزمان، إذن ، كما قال يسوع، واقترب ملكوت الله، ويمكن للبشر جميعاً أن يدخلو الملكوت، وذلك بأن يتوبوا ويؤمنوا فى أعماق نفوسهم أنهم أبناء الله، وقد عادوا إلى أبيهم فى طهر ونقاء وصفاء.

ويرى بعض المحدثين أنه لابد من وضع حد فاصل، بين جوهر رسالة يسوع، وما علمه. لقد أعلن عن إيمان مطلق بأن ملكوت السموات سيحل فجأة، وأنه قد اقترب، وعلى ذلك فمن غير المنطقى أن يعلم الناس ما يمكن أن يكون نبراساً لسلوكهم فى الحياة الدنيا: ستتغير الحياة بالطبع بعد حلول الملكوت، وبناء عليه فقد علم من الأخلاقيات والفضيلة ما يناسب تلك الفترة

---

(١) مرقص ١ : ١٥.

الانتقالية. وهذه الفترة تتوقف تماماً على موعد إعلانه للنهاية. وفقد كل هذا مصداقيته حيث أن النهاية لم تأت حتى الآن!!.

هذا النوع من التفكير يعتبر ضرباً من ضروب الخطأ المطلق، إذ أن الأساس الذى قامت عليه رسالة يسوع وتعاليمه واحد وبسيط، وهو فى معرفته أنه ابن الله، وأن الناس جميعاً مثله يمكن أن يكونوا أبناء الله، ولأنه عرف ذلك، فقد عرف أيضاً أن النهاية آتية، وبصورة حتمية لا يمكن تجنبها. كل من آمن يحل فى قلبه ملكوت الله. وهذا أبسط تفسير لمعنى الكلمات، رغم أنه من المستحيل تفسير أفكار يسوع تفسيراً يقينياً وتبويبها كحقائق مسلم بها، إنها تحتاج إلى قدرة على التخيل، وإلى قدر هائل من الإيمان، عندها يتضح أنه من غير المجدى أن نسأل، عما إذا كان ملكوت الله، كما ارتآه يسوع، طبيعياً أو ميتافيزيقيا، فى نطاق الزمن أو خارج حدود الزمن. لا توجد إجابة على أسئلة كهذه، وما كان يسوع ليكترث بالإجابة عنها: على البشر أن يؤمنوا لكى يصبحوا أبناء الله، فإذا ما أصبحوا كذلك فإنهم سيتغيرون، وكل ما حولهم سوف يتغير ويبدأ نوع جديد من الوعى ونوع جديد من الحياة.

وهذا معناه، بوضوح شديد البساطة، شديد الخطورة، وضع نهاية للنظام الدينى القائم. وشعرت الكثرة من اليهود، كما سيرد ذكره فيما بعد، أن يسوع يريد أن يقضى عليهم قضاءً كاملاً، وأنه يجب أن يتجنب الناس تعاليمه تجنبهم للخراب، بل إن اتباع يسوع، فى حد ذاته، هو الخراب نفسه: إنه يعنى استئصال المجتمع القائم من جذوره استئصالاً كلياً.

هذا هو سوء الفهم المروع، الذى وقع فيه من اتخذوا من يسوع موقف العداء، سواء كانوا صدوقيين أو كتبة أو فريسيين. لكن المدهش والمحير حقاً هو أن اتباعه أنفسهم لم يفهموه، حتى أقرب الأقربين إليه، وهم الإثنا عشر كانوا ينظرون إليه فى حيرة واندهاش، ولا يعرفون تماماً ما يقصده، وهو يتحدث عن ملكوت الله ... تصيبهم تعاليمه بالانبهار والاندهاش ... إنها شديدة البساطة،

ولأنها شديدة البساطة، كانت شديدة الغموض، شديدة الانغلاق على الفهم. وربما تكون هذه سمة من سمات الشخصية العبقرية المتفردة. على أية حال، لقد علم يسوع، ووعظ، وتوقع من الأشياء ما لم يحدث بعد. وسواء ارتأى أنها سوف تحدث فى حدود الزمن أو خارج نطاقه، فهذا مالا نعرفه نحن وما لم يصرح هو به

وعبارة «ملكوت الله» أو «ملكوت السموات» هى فى حد ذاتها عبارة يهودية تماماً، فى أصلها ومعناها. وليس هناك أى اختلاف فى المعنى بين العبارتين. ومن الواضح أن العبارة نفسها قد نشأت من الإيمان بالله كملك للملكوت، وكانت هذه العقيدة فى اليهودية منذ القدم، وأصبحت متداولة بين اليهود، رغبة منهم فى تجنب استخدام كلمة «الله» دوما فى أحاديثهم. على أنه ليس من السهل تحديد المعنى الدقيق لهذه العبارة. ويكمن الغموض فى الكلمة العبرية «Malkutht»، أى الملكوت. وربما يكون المقصود بملكوت الله هو شريعة الله وإحساس الإنسان بها فى قلبه، بمعنى أن يشعر الإنسان ، فى أعماق أعماقه، بأن الله هو الملك الواحد الأحد، وأن شريعته هى قانون الأزل. وعندما تقال تلك الكلمات المشهورة فى سفر التثنية: «اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد، فتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قوتك، ولتكن هذه الكلمات التى أنا أوصيك بها اليوم على قلبك»[1]، فهذا معناه أن يكون ملكوت الله فى قلب الإنسان، والإيمان بالله كملك، ليس معناه فقط الرضوخ لأوامره، ولكن أن يحب الإنسان، بأقصى ما يمكنه من حب، ذلك الإله القدوس، العادل الرحيم، وأن يكرس ذاته تكريساً كلياً لتحقيق الإرادة الربانية. ومن يستطيع فعل هذا ، ينشرح قلبه ويتفتح كما تتفتح الزهرة، لكى يحل فيه ملكوت الله ويستقر. على أن الله لن يكون ملكاً بصورة فعالة إلا إذا اعترف رعاياه بملكوته، وعلى ذلك فالأمر كله

(١) التثنية ٦ : ٤ - ٦.

يتوقف على الإنسان: أن يعترف بصاحب الملكوت أو لا يعترف. والغالبية، فى الواقع، لا تعترف، إما لأنهم لا يعرفون عنه شيئاً، وإما لأنهم يعرفون ولا يعترفون، أى يعرفون الله ويعصون أوامره.

ولقد اعترفت «إسرائيل» بملكوت الله، لكن بنى إسرائيل كانوا من حين لآخر يعصون الله ويتحدون إرادته وعلى ذلك فالرب لم يصبح ملكاً فعلياً ومؤثراً حتى على هؤلاء الذين اصطفاهم وجعلهم شهوده فى هذا العالم.

وعندما يحل ملكوت الله، من وجهة النظر اليهودية، فإنه يتضمن إقامة حياة اجتماعية مثالية، يعترف فيها الجميع بالله ملكاً، وعندها يزول الظلم والاضطهاد، وتختفى الكراهية والقسوة، والصراع والأنانية، لأنها جميعاً لا يمكن أن تحل فى قلب إنسان آمن بملكوت الله.

ومن العبارات اليهودية الأخرى التى استخدمها يسوع، عبارة «ابن الإنسان»، وقد أطلقها على نفسه وهو يبشر باقتراب ملكوت الله، مؤمنا فى أعماقه أنه هو «ابن الإنسان» الذى شهده «دانيال» فى رؤياه، كبشير مقدس لوحى سماوى شديد الرفعة، شديد الارتقاء. يقول دانيال إنه فى اللحظة التى يبدأ فيها يوم الحساب العظيم وتفتح الكتب يتقدم مخلوق مثل «ابن الإنسان» نحو الأزلى خالق الزمن «الله»، الذى يمنحه القوة والسلطان فى أن يحاكم الدنيا ويحكمها إلى الأبد: «كنت أرى فى رؤى الليل، وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه، فأعطى سلطانا ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدى ما لم يزول وملكوته مالا ينقرض»[1]. وعبارة «ابن الإنسان» فى اللغات السامية وخصوصاً فى اللغة الآرامية، ترادف كلمة «الإنسان»، بيد أن المقطع الأساسى فى رؤيا «دانيال» يشد الانتباه، وتصبح عبارة «ابن الإنسان»، على الأقل فى

---

(١) دانيال ٧ : ١٣-١٤.

مدارس معينة، لقباً لذلك القادم لكى يغير وجه الدنيا وينشر العدل المطلق ويحكم الأمم. ولقد استخدم يسوع هذه العبارة فى الإشارة إلى نفسه، متجنباً لفظ «أنا»، لكنه لم يكن يخاطب بهذا اللقب، لأنه ما كان لينطبق عليه تماماً إلا فى مستقبل أيامه وقبل النهاية بقليل.

علَّم يسوع تلاميذه وأتباعه، وتحدث إليهم عن سر الملكوت، وكان على الحواريين أن يعرفوا ويفهموا قبل أن يقوموا بالإعلان عن ملكوت الله القادم، لأنه فقط عن طريق معرفة السر، يستطيع الإنسان دخول الملكوت. لقد قال يوحنا المعمدان «توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات»، وقد كان يوحنا يعمد من يريد التوبة، ولم يفعل يسوع ذلك (١)، على الرغم من أن تلاميذه قد فعلوا. كان يرفض «العلامة» ، فالعلامات لها خطورتها، والذين يطلبون علامة لا يعرفون أبداً دلالتها أو ماذا تعنيه. إن سر الملكوت يكمن فى ذلك التغيير الداخلى فى قلب الإنسان والذى بدونه لا يمكن للإنسان أبداً أن يدخل الملكوت، ولا أمل له فى الدخول. وعندما يقص «سمعان بطرس» ذكرياته على «مرقص»، تلك الذكريات التى استوحى منها مرقص إنجيله، يحكى كيف ضرب يسوع الأمثال، وهو يتحدث عن ملكوت الله. هبط يوماً من الجليل إلى شاطئ البحيرة، وتكلم من القارب، ارتكز سمعان على المجدافين، واستمع وما كان له أن ينسى أبداً. كانت الأمثال كلها عن البذر والزرع، وكانت تحتوى على السر، كان يعلمهم عن طريق ضرب الأمثال، حيث قال فى تعليمه: «بماذا تشبه ملكوت الله أو بأى مثل نمثله. مثل حبه خردل متى زرعت فى الأرض فهى أصغر جميع البذور التى على الأرض لكن متى زرعت تطلع وتصير أكبر جميع البقول وتصنع أغصاناً كبيرة حتى تستطيع طيور السماء أن تتآوى تحت ظلها»(٢).

---

(١) تنص بعض الاناجيل علي أنه قد فعل. انظر يوحنا ٣ : ٢٦.

(٢) مرقص ٤ : ٣٠-٣٢.

ما معنى هذا؟ تساءل الناس فى دهشة ، واستغرق التلاميذ فى التفكير. ملكوت الله كحبه خردل! كيف؟ وراقب يسوع الوجوه من حوله وقد بدت عليها علامات عدم الفهم، وشعر بوحدة فى قلبه. أيجب عليه أن يتكلم بوضوح أكثر؟ لقد قص عليهم حكاية الزارع ، وقد خرج ليزرع ، فلم يفهموا: «وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق فجاءت طيور السماء وأكلته. وسقط آخر على مكان محجر حيث لم تكن له تربة كثيرة، فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق أرض. ولكن لما أشرقت الشمس احترق، وإذ لم يكن له أصل جف. وسقط آخر فى الشوك فطلع الشوك وخنقه فلم يعط ثمراً. وسقط آخر فى الأرض الجيدة، فأعطى ثمراً يصعد وينمو فأتى واحداً بثلاثين وآخر بستين وآخر بمئة. ثم قال لهم من له أذنان للسمع فليسمع» (١).

من له أذنان للسمع فليسمع! ولم يكن فى استطاعتهم أن يسمعوا أو أن يحسوا بهذا الضوء الهادى الخافت المنبعث من كلماته، لم ينفذ بعد إلى أعماقهم، وإذا لم يكن فى استطاعتهم أن يروا ذلك الضوء الذى يشع بالسر من خلال أمثاله، فهذا معناه بالتأكيد أن قلوبهم ما زالت قاسية. لم يكن فى استطاعتهم أن يسمعوا أو أن يروا. هؤلاء الذين خرجوا معه من الجبل، هم الذين عادوا معه، وعندما طلبوا منه أن يشرح لهم قصة الزارع، قال فى مرارة: «قد أعطى لكم أن تعرفوا سر ملكوت الله، وأما الذين هم كمن خارج فبالأمثال يكون لهم كل شئ، لكى يبصروا مبصرين ولا ينظروا، ويسمعوا سامعين ولا يفهموا، لئلا يرجعوا فتغفر لهم خطاياهم» (٢)، كل ما كان عليهم أن يفعلوه هو أن يأتوا ويتعلموا ويتجاوبوا مع صوت الحق والحقيقة ويتبعوه إلا أنهم لم يفعلوا. حتى الذين اتبعوه خيبوا أمله، لقد أعطوا السر لكنهم عجزوا عن إدراك كنهه. قال لهم «أما تعلمون هذا المثل فكيف تعرفون

---

(١) مرقص ٤ : ٤-٩.

(٢) مرقص ٤ : ١١-١٢.

جميع الأمثال»[١]. ثم شرح لهم ما تعذر عليهم فهمه: «الزارع يزرع الكلمة، وهؤلاء هم الذين على الطريق، حيث تزرع الكلمة وحينما يسمعون يأتى الشيطان للوقت وينزع الكلمة المزروعة فى قلوبهم. وهؤلاء هم أيضاً الذين زرعوا على الأماكن المحجرة، الذين حينما يسمعون الكلمة يقبلونها للوقت بفرح، ولكن ليس لهم أصل فى ذواتهم بل هم إلى حين، فبعد ذلك إذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فللوقت يعثرون. وهؤلاء هم الذين زرعوا بين الشوك. هؤلاء هم الذين يسمعون الكلمة وهموم هذا العالم وغرور الغنى وشهوات سائر الأشياء تدخل وتخنق الكلمة فتصير بلا ثمر. وهؤلاء الذين زرعوا على الأرض الجيدة، الذين يسمعون الكلمة ويقبلونها ويثمرون واحداً ثلاثين وآخر ستين وآخر مئة»[٢].

هل كانت الكلمة صعبة؟ هل كانت الأمثال شديدة الغموض؟ كان على الأمثال أن توضح السر لا أن تخفيه، المصباح لا يوضع تحت السلة أو تحت السرير، إنما يوضع على قاعدة المصباح، بمعنى أن كل ما هو مظلم لا بد أن يضاء، وكل ما هو غامض لا بد أن يتم إيضاحه.

لقد كانت مداركهم، لا كلماته، هى التى اعتراها الإظلام، ويخاطبهم يسوع وقد تلونت نبرة صوته بقليل من الحدة الحانية: اعتنوا بما تفهمون لأنه بنفس الكيل الذى تكيلون به يكال لكم وزيادة، من عنده سيعطى ومن ليس عنده سيؤخذ منه، حتى ذلك الذى عنده. هذه العبارات لها دلالات فائقة فيما يختص بما يعنيه يسوع، وهى تتصل بالفهم أكثر من صلتها بالسلوك، كما أنها عميقة جداً لدرجة أنه يمكن فهمها على عدة مستويات، فأعلى وأسمى معانيها هو أنه إذا كان فى داخل الإنسان ومضة من فهم فسوف تتحول إلى شعلة تضئ له الطريق، أما إذا كانت هذه الومضة غير متوفرة لديه

---

(١) مرقص ٤ : ١٣.

(٢) مرقص ٤ : ١٤-٢٠.

فقد كتب عليه أن يعيش فى ظلمة دائمة.

ولا يزال السؤال قائماً : ما ذلك الذى يجب فهمه؟ ما هو السر؟ إن سر الملكوت هو ذلك التحول المبهم الغامض الذى يعتمل فى ظلمة روح الإنسان فيحولها إلى نور يمكنه من أن يستقبل كلمة الله. السر، إذن هو ذلك البعث الروحى للإنسان الفرد. فجأة يومض سر «الكلمة» فى داخله، ويتحول إلى شعلة من لهب، ومن قلب وهج اللهب يبرز إنسان جديد: ابن الله.

ويواصل يسوع حديثه عن ملكوت الله معلماً تلاميذه وأتباعه بالأمثال: «يشبه ملكوت السموات كنزاً مخفى فى حقل وجده إنسان فأخفاه، ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل. أيضاً يشبه ملكوت السموات إنساناً تاجراً يطلب لآلئ حسنة، فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كل ما كان له واشتراها. أيضاً يشبه ملكوت السموات شبكة مطروحة فى البحر وجامعة من كل نوع، فلما امتلأت أصعدوها على الشاطئ وجلسوا وجمعوا الجياد إلى أوعية، وأما الأردياء فطروحها خارجاً. هكذا يكون فى انقضاء العالم، يخرج الملائكة ويفرزون الأشرار من بين الأبرار، ويطرحونهم فى أتون النار، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان»(١).

ولا يمكن أن يفهم تعاليم يسوع، عن سر الملكوت، إلا من ولد من جديد، أو بدأت فيه عملية الميلاد. إن ملكوت السموات هو جمع هؤلاء الذين ولدوا من جديد أبناء لله، كل من يشع فى روحه نور المعرفة بأنه ابن الله، يصبح من المؤكد دخوله الملكوت ساعة الحلول. وبداية هذا الميلاد الروحى، هى تلقى نور «الكلمة» عندما تنطق، ثم استقبالها كبذرة فى بطن الروح المظلمة. لو حدث هذا، فإن تغييراً سريعاً وكلياً يعترى الإنسان. إن بعث العالم روحياً لا يتأتى إلا ببعث الإنسان الفرد، الآن وليس فيما بعد فيما كان

---

(١) متى ١٣ : ٤٤-٥٠.

هذا ليحدث ببطء دنيوى، ولكن من خلال عملية سريعة ومفاجئة. ما على البشر إلا أن يستمعوا إلى «الكلمة»، ويستقبلوها بإيمان لا شك فيه، عندها يحدث التغيير المعجز. وحين سأله الفريسيون: متى يأتى ملكوت الله؟ أجابهم بقوله «لا يأتى ملكوت الله بمراقبة، ولا يقولون هو ذا ها هنا أو هو ذا هناك لأن ها ملكوت الله داخلكم»(١).

أدرك يسوع بشفافيته الملهمة أن العالم الرسمى من حوله لن يتقبل فكرة ملكوت السموات، لذا اتجه إلى البسطاء. إن ملكوت الله قد وجد أولاً من أجل الأطفال، ومن هم على شاكلتهم، ثم للمضطهدين ضحايا الغطرسة الاجتماعية التى تحتقر الوضعاء على الرغم من نقاء قلوبهم، وأخيراً من أجل المنشقين والكفرة والملحدين والوثنيين والسامريين. يشرح يسوع هذا ويفسره بأسلوبه المعهود، وهو استخدام الأمثال: أعد الملك وليمة عرس لابنه، وأرسل إلى المدعوين يطلب منهم الحضور، لكنهم اعتذروا، وأساء بعضهم معاملة الرسل، وعلى ذلك يتخذ الملك خطوة حاسمة، لم يقبل العظماء دعوته، ليكن لهم ما يريدون، سيكون الضيوف أول القادمين من الطرقات والحارات، الفقراء والمتسولين والمشوهين، لا يهم، لكن لا بد أن يمتلئ المكان «لأنى أقول لكم إنه ليس واحد من أولئك الرجال المدعوين يذوق عشائى»(٢).

الفقراء هم الذين سينجون، إن العالم القادم هو عالم الفقراء والمساكين، وويل للذين يضحكون الآن لأنهم سيبكون، وويل للأغنياء الذين يبنون قصوراً بعرق الآخرين لأن كل طوبة فى البناء تحسب عليهم خطيئة. رفع يسوع عينيه إلى الجموع وقال: «طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله، طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون، طوباكم أيها الباكون

---

(١) لوقا ١٧ : ٢٠-٢١.

(٢) لوقا ١٤ : ٢٤.

الآن لأنكم ستضحكون، طوباكم إذا أبغضكم الناس وإذا أفرزوكم وعيروكم وأخرجوا اسمكم كشرير من أجل ابن الإنسان، افرحوا فى ذلك اليوم وتهللوا فهوذا أجركم عظيم فى السماء، لأن أباءهم هكذا كانوا يفعلون بالأنبياء. ولكن ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم قد نلتم عزاءكم، ويل لكم أيها الشباعى لأنكم ستجوعون، وويل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون»(١).

على أن هذا الميل المبالغ فيه إلى الفقر، لم يكن ليستمر طويلاً، إذ أن المسيحية عندما وجدت نفسها فى غمار المجتمع البشرى، وافقت بمنتهى السهولة على أن تحتضن الأغنياء، بل وأصبحت الكنيسة نفسها، فى وقت من الأوقات، قمة من قمم الثراء.

الإنجيل من أجل الفقراء. هكذا قال يسوع. كل من احتقرتهم اليهودية أصبحوا أحباء ليسوع، يأكل معهم ويخالطهم. وبجانبه على المائدة، جلس أناس يقال إنهم خطاؤون، واعترض الكتبة والفريسيون على ما اعتبروه فضيحة: انظروا مع من يأكل!!

وكان يسوع يرد عليهم بأسلوب ذكى لاذع: إن الأصحاء لا يحتاجون الطبيب وما جاء ابن الإنسان ليدعو الأتقياء بل الخطاة.

أما النساء الضعيفات الخاطئات، فقد أدهشهن سحر كلماته، وجاذبية الفضيلة فى شخصه، وعلى ذلك فقد اقتربن منه بمنتهى الحرية ودون أى حرج، ودهش الناس لأنه لم يزجرهن أو يتأفف من صحبتهن. كان الحب المستزج بأرواحهن أكبر وأقوى من خطيئتهن. وكذا فى حالة الرجال .. ما كان يسوع ليبعد عنه رجلاً مشكوكاً فى مسيرة حياته، أو لاقدر له فى أعين قادة الدين الرسمى . لقد جاء من أجل أولئك وهؤلاء جميعاً: «فلما نظر

الفريسيون قالوا لتلاميذه لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة. فلما سمع يسوع قال لهم لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى، فاذهبوا وتعلموا ما هو، إنى أريد رحمة لا ذبيحة لأنى لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة»(١).

لم يكن يسوع يتظاهر بالصرامة، أو يهرب من المسرات، إنما كان يذهب راغباً هو وتلاميذه إلى حفلات الزواج، ويحكى «يوحنا» أنه قام بإحدى معجزاته ليشيع البهجة فى أحد الأفراح، فى بلدة صغيرة. كانت أم يسوع هناك تشارك فى ذلك العرس المقام فى «قانا الجليل» ، ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له: «ليس لهم خمر، فقال يسوع لها مالى ولك يا امرأة، لم تأت ساعتى بعد، قالت أمه للخدام مهما قال فافعلوه ... قال لهم يسوع املأوا الأجران ماء فملأوها إلى فوق ثم قال لهم استقوا الآن، وقدموا إلى رئيس المتكإ فقدموا فلما ذاق رئيس المتكإ الماء المتحول خمراً ولم يكن يعلم من أين هى. لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا. دعا رئيس المتكإ العريس وقال له كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً ومتى سكروا فحينئذ الدون أما أنت فأبقيت الخمر الجيدة إلى الآن. هذه بداية الآيات فعلها يسوع فى قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه»(٢).

هنا لم يكتف يسوع بالكلمة، بل لجأ إلى المعجزة، وهل كان فى استطاعته أن يغير عقيدة العالم من حوله دون معجزات؟ بالطبع لا. كانت المعجزة تتواكب مع الكلمة. وفى هذا المضمار أصبح بلا مثيل، وسيظل مجده كاملاً ولن يتكرر أبداً، على الرغم من تأكيد بعض الدارسين أن هذه المعجزات لا يمكن أن تحدث، إذا ما طبقت عليها القواعد العلمية، كما أنها لا يمكن أن تحدث أبداً، إلا فى أزمان وبلدان مهيأة لتصديقها، وأمام أشخاص مهيئين

---

(١) متى ٩ : ١١-١٣.

(٢) يوحنا ٢ : ١-١١.

للإيمان بها. ولم تحدث معجزة أبداً أمام أشخاص يملكون مقدرة الفحص والتدقيق والتحقق من طبيعتها الإعجازية. وعامة الناس فى كل الدنيا لا يملكون هذه المقدرة، إذ أنها تتطلب حذراً شديداً وتدريباً علمياً بالغ الدقة. فى هذا الصدد يقول رينان: «ليس معنى هذا أننا نقول إن المعجزات مستحيلة، لكننا نقول إنه حتى وقتنا هذا لم يستطع أحد أن يبرهن على صحة حدوث معجزة» (١).

وفى رأى معاصرى يسوع هناك أسلوبان للبرهان فقط، هما : المعجزات وتحقيق النبوءات ـ وبهما يمكن إثبات الرسالة الدينية الموحاة من قوة فوقية، أى فوق طبيعية، ولقد استخدم يسوع وتلاميذه هذين الأسلوبين فى الإبانة والإثبات بعقيدة عميقة راسخة. كانت المعجزة ـ إذن ـ تعتبر علامة لا غنى عنها، لإثبات قدسية الرسالة، ودليلاً من أدلة النبوة، وكان على يسوع أن يختار بين أمرين، لا ثالث لهما: إما أن يتخلى عن رسالته، أو أن يقوم ببعض المعجزات، لكى يبرهن على صدقها وأصالتها، وكان يحس فى أعماقه أنه بالإيمان المتمكن، والصلاة المبتهلة الخالصة، يستطيع الإنسان أن يسيطر على الطبيعة سيطرة كاملة، وأن خاصية صنع المعجزات هى هبة وفضل من إله قادر يؤتيه من يشاء، وليس فى ذلك ما يثير أى نوع من أنواع الدهشة. إنه ينتهر الرياح وأمواج والبحر فتطيعه جميعاً: «ولما دخل السفينة تبعه تلاميذه، وإذا اضطراب عظيم قد حدث فى البحر حتى غطت الأمواج السفينة، وكان هو نائماً، فتقدم تلاميذه وأيقظوه قائلين يا سيد نجنا فإننا نهلك، فقال لهم ما بالكم خائفين يا قليلى الإيمان، ثم قام وانتهر الرياح والبحر فصار هدوء عظيم»(٢). ليس هذا فقط، إنه يمشى على الماء، وهذا بالطبع فى زمنه يعتبر عملاً من الأعمال الخارقة، وبكل المقاييس: «وبعد ما ودعهم مضى إلى

---

(١) رينان، ص ٢٦.

(٢) متى ٨ : ٢٣ ـ ٢٦.

الجبل ليصلى، ولما صار المساء كانت السفينة فى وسط البحر وهو على البر وحده، ورآهم معذبين فى الجذف لأن الريح كانت ضدهم، ونحو الهزيع الرابع من الليل أتاهم ماشياً على البحر، وأراد أن يتجاوزهم، فلما رأوا ماشياً على البحر ظنوه خيالاً فصرخوا لأن الجميع رأوه واضطربوا، فللوقت كلمهم وقال لهم ثقوا، أنا هو لاتخافوا. فصعد إليهم فى السفينة فسكنت الريح»(١).

وكان تلاميذ يسوع يرون أنه من الطبيعى أن يلتقى معلمهم بموسى وإيليا، وأن يجلس إليهم ويتحدث معهم. أخذ يسوع ـ يوماً ـ بطرس ويوحنا ويعقوب، وصعد إلى جبل ليصلى «وفيما هو يصلى صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسة مبيضاً لامعاً، وإذا رجلان يتكلمان معه وهما موسى وإيليا»(٢).

ومن المحتمل أن ما قام به يسوع من معجزات إنما كان فى مجال شفاء الأمراض. كان يؤمن، كما آمنت الكثرة فى زمنه ـ أن الشفاء من المرض لا يمكن أن يتم إلا عن طريق الطقوس الدينية. كان هذا التفكير منطقياً تماماً فى ذلك الحين، فمن اللحظة التى يعتبر فيها المرض عقاباً للخطيئة، أو عملاً من أعمال الشيطان، وليس بأية حال من الأحوال نتيجة لأسباب جسدية، فإن أفضل الأطباء ـ فى هذه الحالة ـ هو الرجل التقى، ذو الصلة الواثقة بالله، وصاحب القوة المسيطرة فى عالم ما وراء الطبيعة. وبما أن يسوع كان يشعر فى أعماقه أنه يمتلك هذه القوة الروحية والمعنوية المسيطرة، فقد آمن أنه يمتلك تلك الموهبة الخاصة بشفاء الأمراض. وما كان ليضن أبداً على هؤلاء الذين يؤمنون بالشفاء، بلمس طرف ثوبه، أو باستخدام يديه أو لعابه: «وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم فى مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفى كل مرض وكل ضعف فى الشعب، فذاع خبره فى جميع سوريه، فأحضروا إليه جميع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفة والمجانين والمصروعين

---

(١) مرقص ٦ : ٤٦ . ٥١.

(٢) لوقا ٩ : ٢٩ . ٣٠.

والمفلوجين فشفاهم، فتبعته جموع كثيرة من الجليل والعشر المدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن» (١).

وفى يوم ما بعد أن ترك يسوع المجمع، توجه مع تلاميذه إلى بيت بطرس وأندراوس حيث ترقد أم زوجة بطرس مريضة بالحمى. وعندما أخبروا يسوع بذلك، توجه إليها وأمسك بيدها ثم طلب منها أن تقوم، فقامت وقد شفيت من الحمى، ثم قامت على خدمتهم جميعاً : «ولما جاء يسوع إلى بيت بطرس رأى حماته مطروحة ومحمومة فلمس يدها فتركتها الحمى، فقامت وخدمتهم»(٢). وما بدأت الشمس تغيب، حتى توافد الناس وتزاحموا أمام البيت وقد أحضروا كل من هو مريض فى المدينة وكل من حلت فيه روح نجسه. ولم يكن يسمح لمن حلت فيهم أرواح نجسة أن يتكلموا، ذلك لأن روح الشر التى كانت تسيطر عليهم كانت تعرفه .. كانت تعرف روح القدس المسيطرة الآمرة التى حلت به، والتى هى أشد وأقوى. «ولما صار المساء قدموا إليه مجانين كثيرين فأخرج الأرواح بكلمة وجميع المرضى شفاهم لكى يتم ما قيل بإشعياء النبى القائل هو أخذ أسقامنا وحمل أمراضنا» (٣).

وفى إحدى جولاته فى الجليل اشتد إيمان إنسان أبرص به حتى وصل إلى مرتبة اليقين المطلق، اتجه الأبرص إلى يسوع وركع على ركبتيه فى رجاء تذوب له القلوب، وقال: لو أردت تقدر. هذه كلمات لا يمكن أن تنسى. إنها كلمات الإيمان المطلق بسلطان يسوع المطلق. وكان من المستحيل ألا يرد يسوع على كلمات مثل هذا الرجل: «ولما نزل من الجبل تبعته جموع كثيرة وإذا أبرص قد جاء وسجد له قائلاً يا سيد إن أردت تقدر أن تطهرنى، فمد يسوع يده ولمسه قائلاً أريد فأطهر وللوقت طهر برصه»(٤). ويمكن القول إن

---

(١) متى ٤ : ٢٣-٢٥.
(٢) متى ٨ : ١٤-١٥.
(٣) متى ٨ : ١٦-١٧.
(٤) متى ٨ : ١-٣.

كلمات يسوع وحدها لم تكن هى التى شفت الأبرص، إنما إيمان الرجل هو الذى شفاه. وقد طلب منه يسوع ألا يخبر أحداً .

لكن عبثاً، فقد نشر الرجل قصة شفائه، وأخبر كل من صادفه، ومن كل الأرجاء، خرجت جموع الناس تبحث عن يسوع.

وبينما كان يبشر بملكوت السماء، ظهر عدد من الرجال، وقد أتوا برجل مفلوج يحمله أربعة رجال فوق نقالة، وعندما لم يستطيعوا الوصول إلى البيت بسبب الزحام، تسللوا إلى أعلى البيت وصنعوا فجوة فى سطحه أنزلوا منها النقالة وعليها الرجل. وعندما أحس يسوع بعمق إيمانهم، قال للمفلوج : ثق يا بنى مغفورة لك خطاياك. وكان بعض الكتبة فيمن يستمعون إليه فى البيت .. ولقد همهموا فى داخلهم: هذا يجدف، من يستطيع أن يغفر الذنوب غير الله؟ وفى الحال استشف يسوع بروحه ما همست به نفوسهم، وقال لهم: «لماذا تفكرون بالشر فى قلوبكم أيما أيسر أن يقال مغفورة لك خطاياك أم أن يقال قم وامش. ولكن لكى تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا. حينئذ قال للمفلوج. قم احمل فراشك واذهب إلى بيتك، فقام ومضى إلى بيته»(١).

وتتوالى معجزات يسوع فى علاج المرضى. فحين اقترب يوماً من شاطئ الجليل، وبدأت الجموع المتعطشة للشفاء تزدحم لملاقاته ـ أتاه «يايروس» وهو أحد رؤساء المجمع، وتوسل إليه أن يزور ابنته الصغيرة لأنها تموت، إذ لو ذهب إليها يسوع ووضع يده عليها فإنها ستحيا، هكذا آمن الرجل. اصطحب يسوع معه من تلاميذه بطرس ويعقوب ويوحنا، وتبع «يايروس» بين الجماهير المتشوقة إلى معرفة ما قد يفعل، وفجأة شعر يسوع بيد تلمسه.

لم تكن لمسة عابرة، بل لمسة حية هادفة. توقف فى الحال، والتفت إلى

---

(١) متى ٩ : ٤ ـ ٧.

الجميع وقال: من لمس ثيابى. لقد شعر فى نفسه بالقوة التى خرجت منه. واعترض رفاقه الثلاثة، فقد بدا السؤال فى غير محله وسط الزحام، قالوا له: أنت تنظر، الجمع يزحمك، وتقول من لمسنى؟ ولم يعرهم يسوع أى اهتمام، إنما نظر فى تمعن إلى الجمع الحاشد، لقد تم «لمسه» لاشك فى ذلك أبداً. وفى خوف تقدمت امرأة فقيرة، وهى ترتعد، فألقت بنفسها عند قدميه، وهى تحكى قصتها فى تلعثم .. كيف قاست لمدة اثنى عشر عاماً من نزيف دم، وأى آلام تحملتها، وكيف أنفقت كل ما تملك على الأطباء ولم تتحسن حالتها، بل أصبحت أسوأ، وأخبروها عن يسوع. قالوا لها: لو مسست فقط طرف ردائه لشفيت، فتبعته بين الجموع حتى نالت ما جاءت من أجله، فقال لها يسوع: «يا ابنة إيمانك قد شفاك. اذهبى بسلام وكونى صحيحة من دائك»(١).

وبينما كان يسوع يتحدث إلى المرأة، جاء إلى «يايروس» رسول وقال له: ابنتك ماتت، لا داعى لإزعاج السيد. سمع يسوع كلمات الرسول ... قال ليايروس: لا تخف. آمن فقط. وذهب إلى بيت يايروس، حيث كان بكاء وعويل، فسألهم: لم كل هذا؟ الطفلة لم تمت، إنها نائمة. فضحكوا عليه. وحينئذ أخرج الجميع من البيت، ودخل إلى حيث ترقد الطفلة، أمسك بيدها وقال لها: «طليثا قومى، الذى تفسيره يا صبية لك أقول قومى. وللوقت قامت الصبية ومشت لأنها كانت ابنة اثنتى عشرة سنة. فبهتوا بهتاً عظيماً فأوصاهم كثيراً أن لا يعلم أحد بذلك، وقال أن تعطى لتأكل»(٢).

وعلى حين كان يسوع سائراً مع تلاميذه، رأى إنساناً أعمى منذ ولادته، وسأله تلاميذه سؤالاً يبدو محيراً: من الذى أخطأ .. الأعمى أم أبواه؟ وأجاب عليهم بحكمة ملهمة: لا هذا ولا أبواه، ولكن لتظهر أعمال الله فيه.

---

(١) مرقص : ٥ـ٣٤.

(٢) مرقص ٥ : ٤١ـ٤٣.

«قال هذا وتفل على الأرض وصنع من التفل طيناً وطلى بالطين عينى الأعمى وقال له اذهب اغتسل فى بركة سلوام، الذى تفسيره مرسل، فمضى واغتسل وأتى بصيرا» (١).

وتزايد عدد أتباع يسوع. وفى يوم ما، وجد نفسه فى مواجهة خمسة آلاف رجل، ما عدا النساء والأطفال، تحنن عليهم وشفى مرضاهم، بيد أن تلاميذه قد واجهوا مشكلة إطعام كل هذا الجمع، فمن أين لهم بالطعام والموضع خلاء؟

حينئذ طلبوا منه أن يصرفهم، لكى يذهبوا إلى القرى المجاورة ويبتاعوا ما يقتاتون به، لكنه قال لهم بسلطان: أعطوهم أنتم ليأكلوا. ودهش التلاميذ إذ أن كل ما عندهم لايزيد عن خمسة أرغفة وسمكتين، إلا أن يسوع قال: «ائتونى بها إلى هنا، فأمر الجموع أن يتكئوا على العشب، ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر وأعطى الأرغفة للتلاميذ والتلاميذ للجموع. فأكل الجميع وشبعوا، ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنتى عشرة قفة مملوءة، والآكلون نحو خمسة آلاف ما عدا النساء والأولاد» (٢).

ومن المعجزات التى صنعها يسوع كثيراً ـ معجزة طرد الشياطين؛ فقد كان الإيمان بالشياطين يسيطر على عقلية ذلك الزمان، لا فى يهودا وحدها، بل فى الدنيا بأسرها. كان يعتقد أن الشياطين تسكن أجساد أشخاص معينين، وتجعلهم يسلكون أو يفعلون عكس ما يريدون، وكان عمل طارد الأرواح الشريرة بالرقى والتعاويذ يشبه عمل الطبيب، ولم يكن هناك شك فى أن يسوع أثناء حياته إنما كان يتمتع بشهرة واسعة فى هذا المجال، وإذا اعتبر هذا المجال فناً، فإن يسوع ـ بما حقق فيه ـ قد أثبت أنه متمكن من كل أسراره.

---

(١) يوحنا ٩ : ٦-٧.

(٢) متى ١٤ : ١٨-٢١.

وربما تكون المسألة كلها مجرد اضطراب عصبى، ويكفى المريض عدة كلمات طيبة لكى يتم الشفاء، كذلك ربما تكون هذه هى الوسيلة التى استخدمها يسوع. لكن يعتقد بعض المتدينين أنه قد تتملك الإنسان قوة أعظم منه، تسيطر عليه، وتجعله يقول ما لا يود قوله، ويفعل مالا يود فعله. على أنه يمكن أن تكون الروح المسيطرة على الإنسان روحاً طيبة أو روحاً شريرة. فالروح الطيبة هى روح الله، تلهم الإنسان وتجعل منه نبياً. أما الروح الخبيثة فهى روح الشر وهى ببساطة قد تدفع بصاحبها إلى الجنون ـ غير أنه ليس من السهل التمييز بين هذه وتلك .

أما الفريسيون فقد كانوا يعتقدون أن زمن الأنبياء قد ولى، وعلى ذلك فكل الأرواح الكائنة والتى تحل بأجساد البشر إنما هى أرواح شريرة. هكذا كان حكمهم على يوحنا المعمدان، وكذا على يسوع. فلقد ارتأت السلطة الدينية آنذاك أن يسوع ومن قبله يوحنا قد حلت بكل منهما روح خبيثة شريرة. ولم يكن بإمكانهم أن يتحملوا أو أن يرحبوا بوحى جديد، ذلك لأنه يطعن السلطة القائمة مباشرة فى قلبها، ومن ثم فقد اتهموا يسوع بالمروق والكفر والتمرد على روح العقيدة اليهودية.

وتوضح الأناجيل مقدار ما كان ليسوع من سلطان على الأرواح الشريرة، وعليه، فإن الذين حلت بهم أرواح شريرة كانوا أول من يتعرفون عليه. كانت الأعماق تنادى الأعماق، المجنون يحيى الملهم، والملهم يهدئ من روع المجنون، ويبرئه، وكان يسوع يؤمن بالتضاد المباشر بين الروح الشريرة والروح القدس، وكان يطرد الروح الشريرة بسلطان الروح القدس. وكان يغمر يسوع إحساس جارف بأن الروح القدس قد حل به، بعد أن عمده يوحنا وخرج من الماء ـ فى تلك اللحظة أحس، فجأة، بالتوحد مع الله فى وحدة قدسية لا يمكن وصفها. لقد عاد الابن إلى أبيه فتوحدا. هكذا آمن يسوع. وبعد هذا التوحد أصبحت لدى يسوع ـ فى أعماق روحه ـ القوة والمقدرة

على طرد الأرواح الخبيثة بحيث لا تعود أبداً. لقد انتصرت روح الله فيه، وكان النصر تاماً ونهائياً.

وعلى ذلك، فإنه بالنسبة ليسوع، كانت روح القدس وروح الشر تتصارعان تصارعاً مروعاً وأبدياً. كانت كل منهما تعرف الأخرى. وكانت روح الإنسان هى الهدف الذى من أجله يدور هذا الصراع الرهيب، وكان يسوع يعرف ويحس بأن له فى هذا الشأن سلطانا.

فعندما صرخ ذلك الإنسان الذى حل به روح نجس، وقال: مالى ولك يا يسوع يا ابن الله.. لقد جئت لتقضى علينا.. أستحلفك بالله ألا تعذبنى ـ لم يكن ذلك مجرد صوت شيطان يصرخ فى وجه مهلك الشياطين. لقد بدأت الصرخة العظيمة وكأنها صوت نبى صغير يتضاءل إلى حد التلاشى أمام نبى عظيم. كان يعرف ويرى أعمق وأكثر من كل من حوله ماذا تعنى تعاليم يسوع. لقد عرف مصدر الإلهام، وما كان فى استطاعته أن يتمرد عليه، كان يهودياً يود لو تمرد من أجل يهوديته، محذراً إياها من الخطر الذى لا تدركه: ماذا يجمع بيننا وبينك يا يسوع الناصرى؟ لقد جئت لتقضى علينا. إننى أعرف من تكون . وعلى مثل هذا كان ليسوع سلطان، ولقد استخدم سلطانه. سأله: ما اسمك؟.

فأجاب قائلاً : «اسمى لجئون لأننا كثيرون، وطلب إليه أن لا يرسلهم إلى خارج الكورة. وكان عند الجبال قطيع كبير من الخنازير يرعى فطلب إليه كل الشياطين قائلين أرسلنا إلى الخنازير لندخل فيها، فأذن لهم يسوع للوقت، فخرجت الأرواح النجسة، ودخلت فى الخنازير، فاندفع القطيع من على الجرف إلى البحر، وكان نحو ألفين، فاختنق فى البحر. وأما رعاة الخنازير فهربوا وأخبروا فى المدينة، وفى الضياع. فخرجوا ليروا ما جرى، وجاءوا إلى يسوع فنظروا المجنون الذى كان فيه اللجئون جالساً ولابساً وعاقلاً

فخافوا»(١).

هاجم الفريسيون يسوع عندما رأوه يطرد الأرواح الخبيثة ويخلص الناس منها بقوة وسلطان. ادعوا أنه هو نفسه خاضع لسيطرة بعلزبول رئيس الشياطين. وأفعمهم يسوع بمنطقة: كل مملكة منقسمة على نفسها تتساقط وتخرب، فكيف يخرج الشيطان الشيطان؟ ثم إنه لم يكن الوحيد - فى عصره- الذى يفعل ذلك، فقد كان أبناؤهم هم أيضاً يخرجون الشياطين، فهل كانوا هم كذلك يخضعون لروح الشر؟ وهذا المنطق فيه استواء، وكلمات يسوع حادة وقاطعة، قال لهم: «كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت، فإن كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته، فكيف تثبت مملكته، وإن كنت أنا ببعلزبول أخرج الشياطين فأبناؤكم بمن يخرجون، لذلك هم يكونون قضاتكم»(٢). أما عامة الناس فقد دهشوا وشهدوا بأنه لم يظهر قط مثل هذا فى إسرائيل.

وأما أبلغ معجزات يسوع فى الإعجاز فهى إحياء الموتى، والتى على أساسها حاول البعض أن يصل به إلى حد التأليه، ولا مبالغة فى القول إنهم قد ألهوه فعلاً. ويسجل لوقا هذه المعجزة على النحو التالى: «فلما اقترب إلى باب المدينة إذا ميت محمول، ابن وحيد لأمه، وهى أرملة ومعها جمع كثير من المدينة، فلما رآها الرب تحنن عليها وقال لها لا تبكى، ثم تقدم ولمس النعش فوقف الحاملون، فقال أيها الشاب لك أقول قم. فجلس الميت وابتدأ يتكلم فدفعه إلى أمه» (٣).

هذه المعجزة لم تذكر إلا فى إنجيل واحد فقط، هو إنجيل «لوقا». ومن

---

(١) مرقص ٥ : ٩-١٥.

(٢) متى ١٢ : ٢٥-٢٧.

(٣) لوقا : ٧ : ١٢ - ١٧.

ثم، فإن البعض يشكك فى حدوثها؛ فالمعجزات ليست أشياء صغيرة هينة، تمر دون أن تلحظها الكثرة، فكيف تمر معجزة نادرة كهذه، دون أن يسجلها «متى ومرقص ويوحنا»؟ لقد كتب «يوحنا» عن إحياء يسوع للموتى، لكنه أورد قصة أخرى عن موت لعازر، أخ مريم ومرثا من بيت عنيا. قالت مرثا ليسوع: إن الميت قد أنتن، لأن له أربعة أيام فى القبر، وطلب منها يسوع أن تؤمن لكى ترى مجد الله. كما طلب ممن حوله أن يرفعوا الحجر عن القبر، ثم رفع عينيه إلى فوق، وقال: «أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لى. وأنا علمت أنك فى كل حين تسمع لى. ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ... ليؤمنوا أنك أرسلتنى. ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم لعازر هلم خارجاً. فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل. فقال لهم يسوع حلوه ودعوه يذهب»(١).

ولو صح حدوث هذه المعجزة أو تلك، فربما لا يوجد فى هذا ما يثبت أن يسوع إله، أو ابن إله بالمعنى الميتافيزيقى، أى أنه عاش مع أبيه منذ بداية الخلق إلها، ثم هبط إلى الأرض وتجسد بشراً. وها هو «إيليا» من قبل يسوع، قد أعاد الحياة لطفل ميت أمه أرملة: «مرض ابن المرأة صاحبة البيت واشتد مرضه جداً حتى لم تبق فيه نسمة فقالت لإيليا مالى ولك يا رجل الله، هل جئت إلى لتذكير إثمى وإماتة ابنى فقال لها أعطينى ابنك، وأخذه من حضنها وصعد به إلى العلية التى كان مقيماً بها وأضجعه على سريره، وصرخ إلى الرب ، وقال أيها الرب إلهى أأيضاً إلى الأرملة التى أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها، فتمدد على الولد ثلاث مرات، وصرخ إلى الرب وقال يارب إلهى لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه، فسمع الرب لصوت إيليا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش» (٢).

---

(١) يوحنا ١١ : ٤١-٤٤.

(٢) الملوك الأول ١٧ : ١٧-٢٢.

وفى سفر الملوك الثانى، يعيد «أليشع» الميت إلى الحياة. فقد جاء فى الرواية: «ودخل أليشع البيت، وإذا بالصبى ميت ومضجع على سريرة، فدخل وأغلق الباب على نفسيهما كليهما، وصلى إلى الرب، ثم صعد واضطجع فوق الصبى، ووضع فمه على فمه وعينيه على عينيه ويديه على يديه وتمدد عليه، فسخن جسد الولد، ثم عاد وتمشى فى البيت تارة إلى هنا وتارة إلى هناك، وصعد وتمد عليه فعطس الصبى سبع مرات، ثم فتح الصبى عينيه»(١). عند ذلك دعا أم الصبى، وقال لها: احملى ابنك فخرت إلى الأرض ساجدة ثم حملت ابنها وخرجت.

وهكذا نرى أن إيليا وأليشع قد قاما بما قام به يسوع، ومع ذلك، لم يحاول أحد تأليههما ولا ذكر لهما ذلك إلا نادراً. بل إن هناك معجزة يتفوق فيها «أليشع» على يسوع، هى أن عظامه وهو ميت قد قامت بما فعله يسوع وهو حى، هذا هو إعجاز الإعجاز: أن يقوم أليشع وهو ميت بإحياء الموتى «ومات أليشع فدفنوه وكان غزاة موآب تدخل على الأرض عند دخول السنة، وفيما كانوا يدفنون رجلاً إذا بهم قد رأوا الغزاة فطرحوا الرجل فى قبر أليشع، فلما نزل الرجل ومس عظام أليشع عاش وقام على رجليه» (٢).

هذا الإعجاز المعجز لم يتكرر أبداً فى تاريخ المعجزات. إن أليشع هو الأعظم فى هذا المضمار، حتى بعد موته تستطيع العظام المتبقية من جثته أن تحيى الموتى، ومع ذلك لم يقل أحد أن أليشع إله أو ابن إله.

ورغم كل الدلائل التى تشير إلى قوة ما حدث فى هذا المجال، فإننا نميل - وربما نكون على خطأ - إلى تفسير إحياء الموتى بالأسلوب الاستعارى. يقول يسوع: دع الموتى يدفنون موتاهم. وبالطبع فإن الموتى،

---

(١) الملوك الثاني ٤ : ٢٢-٢٥

(٢) الملوك الثاني ١٣ : ٢٠-٢١.

بالمعنى الجسدى، لا يستطيعون دفن الموتى. على أن كلمة الموتى قد استخدمت هنا للدلالة على الموت الروحى والضياع فى تيه الضلال، وبعث هؤلاء فى الواقع يعتبر ضرباً من ضروب الإعجاز.

لقد ذاعت شهرة يسوع، فى الفترة الأخيرة من حياته، كصانع معجزات وطارد شياطين، وكان هذا على غير رغبة منه، فقد كان يصنع معجزاته فى الخفاء، ويطلب من هؤلاء الذين تم شفاؤهم ألا يخبروا أحداً بذلك، وعندما أبدت الشياطين رغبتها فى أن تعلن أنه ابن الله، منعها من أن تفتح أفواهها. ولا بد من التأكيد على أن عمله كصانع معجزات لم يكن محبباً إلى نفسه. وعندما طلب منه أعداؤه أن يظهر لهم معجزة، معجزة سماوية على وجه الخصوص، رفض ذلك فى إصرار وعناد، «فخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكى يجربوه، فتنهد بروحه وقال لماذا يطلب هذا الجيل آية، الحق أقول لكم لن يعطى هذا الجيل آية»(١).

ويمكن أن نستنتج أن شهرة يسوع كصانع معجزات قد فرضت عليه فرضاً، وأنه لم يقاومها كثيراً، وفى نفس الوقت لم يفعل شيئاً لكى ينميها. كان يشفى المرضى، بسبب إيمان المريض به. عندما كان يرى إيمان المرضى بأن كلمة منه سوف تشفيهم، فإنه كان لا يتردد أبداً فى أن يقولها، وما كان ليتنكر لهذا الإيمان أبداً، لأنه هو الذى كان يدعو إليه. لذلك فقد سمح للناس أن يشفوا أنفسهم عن طريق إيمانهم به، إذ كان يقول: إيمانك خلصك .. كان يقولها لهؤلاء الذين آمنوا به، وما كان يقولها أبداً إلا لهؤلاء. ما كان يقوم بذلك من تلقاء نفسه، والمعجزات غالباً ما تكون من صنع الناس، أكثر من كونها من صنع الشخص التى تنسب إليه. ويجب ألا ننسى مبالغات تلاميذه، الذين عجزوا عن رؤية وفهم عظمته الحقيقية، فحاولوا تفخيمه عن طريق تلك المعجزات التى لا قيمة لها، إذا ما نسبت إليه كملهم

(١) مرقص ٨ : ١١-١٢.

وصاحب رسالة: لقد كانت المعجزات ضرباً من ضروب العنف الذى فرضه عليه عصره، وتنازلا أملته الضرورة الملحة. وأعظم معجزة ليسوع هى رفضه فى إصرار أن يصنع - عن عمد - أية معجزة : «جيل شرير فاسق يلتمس آية، ولا تعطى له إلا آية يونان النبى، لأنه كما كان يونان فى بطن الحوت ثلثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان فى قلب الأرض ثلثة أيام وثلاث ليال»(١).

كانت رسالة يسوع - تقوم فى جوهرها - على الإيمان بالكلمة، وكان الكلمة الله. وكل من يؤمن بالكلمة يصبح صالحاً للدخول فى ملكوت الله. لم يتحدث يسوع ضد شريعة موسى، لكنه كان يرى أنها لم تعد كافية، ولم يخف ذلك: «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل.. فإنى أقول لكم أنكم إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات»(٢).

هكذا أعلن يسوع، فى صراحة ووضوح، أنه ما جاء لينقض الشريعة وإنما ليكملها: أن يكمل وحى الإرادة الإلهية التى تحتويها الشريعة، وبإكماله للشريعة صدع أركان الأمة التى تقوم على أسسها. إنه رجل من بين مستمعيه هو الذى عرف الحقيقة، كانت به روح شريرة، فصاح فى تمرد: «مالنا ولك يا يسوع الناصرى، أتيت لتهلكنا، أنا أعرفك من أنت قدوس الله»(٣).

لقد تخطى يسوع نطاق الواجبات التى نصت عليها الشريعة وتراث الآباء، لقد طالب بالكمال والعدل.. وزاد. وإذا كانت الحكمة القديمة تقول: افعل بالآخرين ما تحب أن يفعلوه بك.. فإنها الآن لم تعد كافية. لقد وصل إلى حد الإفراط عندما قال: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك

---

(١) متى ١٢ : ٣٩-٤٠.
(٢) متى ٥ : ١٧-٢٠.
(٣) لوقا ٤ : ٣٤.

الأيمن فحول له الآخر أيضاً، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً، ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين، أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماء» (١).

إن العبادة التى دعا إليها يسوع، إنما كانت عبادة بلا قساوسة وبلا طقوس. إنها تعتمد اعتماداً كلياً على أحاسيس القلب، وعلى الصلة المباشرة بين ضمير الإنسان والأب الذى فى السماء. ولم يتردد يسوع فى دعواه، ولم يتراجع عنها مما جعله يبدو ثائراً متمرداً على اليهودية فى عقر دارها. وكان الفريسيون يعيشون بالشريعة، أما يسوع فكان يحيا بيقينه أنه ابن الله، المنفذ لإرادته، وعلى البشر جميعاً أن يكونوا أبناء لله، فى صلة مباشرة، دون حاجة إلى كاهن أو طقوس. وحتى تراث الآباء، وهو مقدس بالنسبة لليهود، كان ـ فى رأيه ـ لا يساوى شيئاً إذا ما قورن بالإخلاص فى صلة الإنسان بالله.

ويمكن القول إن يسوع اقتصر فى دعوته كلية على اليهود.. على خراف إسرائيل الضالة، وأظهر تعاطفه مع المحتقرين من معتنقى الديانات الأخرى. وعلى الرغم من أنه أقام مرة أو مرتين فى بلد وثنى، وأقام مرة أو مرتين علاقات طيبة مع غير المؤمنين، فإنه قضى حياته كلها فى العالم المحدود الذى ولد فيه. لم يسمع عنه أبداً فى بلاد اليونان أو الرومان، وحتى فى اليهودية لم يترك ـ أثناء حياته ـ انطباعاً يمكن وصفه بأنه على قدر كبير من القوة أو الدوام. إن العمل العظيم ليسوع، ذلك الذى أصاب معاصريه بالدهشة، هو أنه خلق حوله دائرة من التلاميذ، ألهمهم بمشاعر فياضة لا حدود لها، وغرس فيهم بذور تعاليمه لدرجة أنهم بعد موته، لم يستطيعوا أن يتوفقوا عن حبهم له وولائهم للعقيدة التى عاش ومات من أجلها.

---

(١) متى ٥ : ٣٨-٤٢.

لم يكن فى عقيدة يسوع تعاليم جازمة أو أوامر قاطعة، لذا لم يفكر مطلقاً فى كتابتها، أو فى أن يكتبها الآخرون. حتى هؤلاء الذين اتبعوه، ما فعلوا ذلك عن طريق إيمانهم بمبادئ محددة ومقننة، وإنما عن طريق ارتباطهم بشخصه وحبهم اللامحدود له. لقد قال للجميع: «إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعنى، فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها، ومن يهلك نفسه من أجلى فهذا يخلصها»(١)، وقال لهم أيضاً: «كما أحبنى الآب كذلك أحببتكم أنا، أثبتوا فى محبتى»(٢).

لم يكن يسوع ـ إذن ـ مشرع قوانين أو صانع مبادئ، بل كل ما فعله هو أنه بعث فى العالم روحاً جديداً: أن تكون ابن الله فى نقاء وصفاء لكى يحل لك دخول ملكوت السموات. هذا هو كل ما يعنيه كونك مسيحياً.

ولا يستطيع أحد أن يقول إن يسوع قد أسس نظرية لاهوتية أو ما شابه ذلك. كانت هناك فقط آراؤه الغامضة عن الآب، والابن، والروح القدس، التى أخذت عنها فيما بعد عقيدة التثليث والتجسد. وهنا يمكن أن يثار سؤال: ألم يكن لهذه الجماعة طقوس أو أسرار مقدسة أو علامة توحد فيما بينهم؟ وللإجابة على هذا السؤال يمكن القول، إنه كان هناك سر واحد مقدس أجمع عليه التراث، وأرجعه إلى يسوع، ألا وهو أن يسوع «المسيح» هو الخبز الجديد، الذى سيعيش عليه العالم، وهو خبز أعلى وأغلى من المن والسلوى. وكانت هذه الفكرة هى النواة التى نبتت منها عقيدة القربان المقدس: «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بى فله حياة أبدية، أنا هو خبز الحياة. أباؤكم أكلوا المن فى البرية وماتوا. هذا هو الخبز النازل من السماء لكى يأكل منه الإنسان ولا يموت. أنا هو الخبز الحى الذى نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذى أنا أعطى هو جسدى

---

(١) لوقا ٩ : ٢٣ ـ ٢٤.
(٢) يوحنا ١٥ : ٩.

الذى أبذله من أجل حيوة العالم»[١].

وكان اليهود يتهامسون ويتساءلون: أليس هذا عيسى بن يوسف النجار؟ ألا نعرف أمه وأباه؟ كيف يقول إنه أتى من السماء؟ كيف يعطينا هذا الرجل جسده لنأكله؟ لقد خيل إليهم أن إهانة يسوع لهم قد بلغت أعلى درجاتها. لكنه يذهب إلى ما هو أبعد: «الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حيوة فيكم.. من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية، وأنا أقيمه فى اليوم الأخير، لأن جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق. من يأكل جسدى ويشرب دمى يثبت فى وأنا فيه. كما أرسلنى الآب الحى وأنا حى بالآب فمن يأكلنى فهو يحيا بى»[٢].

ولقد استاء عدد من تلاميذ يسوع لإصراره على استخدام هذه العبارات المبهمة، فلم يكن باستطاعتهم فهمه. وكانت هذه هى أهم مشكلة ليسوع مع أتباعه، هؤلاء الذين لم يكن باستطاعتهم فهم جوهر كلماته. لذا تراجعت الكثرة، فلم يعودوا يمشون معه. أما الإثنا عشر فقد تمسكوا به ولم يبتعدوا عنه. كان ما يقول به يسوع بسيط التعبير عميق المعنى: على المؤمن الحقيقى أن يعيش به فقط، لأنه هو بجسده ودمه وروحه، حياة لمن يخلص له من أتباعه. لذلك نجده فى العشاء الأخير يأخذ خبزاً ويشكر ويكسر ويعطى تلاميذه قائلاً: «هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم، اصنعوا هذا لذكرى. وكذلك الكأس أيضاً بعد العشاء قائلاً هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى الذى يسفك عنكم»[٣]. وبعد موت يسوع أصبح هذا الطقس من أهم شعائر المسيحية، ورمزاً للعشاء الربانى.

إن المجتمع الدينى الذى وضع يسوع أساسه، كان لا يمكن أن يتكامل

---

(١) يوحنا ٦ : ٤٩-٥١.
(٢) يوحنا ٦ : ٥٣-٥٧.
(١) لوقا ٢٢ : ١٩-٢٠.

من الناحية التشريعية فيما يختص بأمور الحياة، إذ إنه فى جوهره يقوم على فكرة أن ملكوت الله على وشك الحلول. وهنا يمكن القـــول إن الجـــيل المسيحى الأول قد عاش على الأحلام والتوقعات: «الحق أقول لكم لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله»(١). وحيث اعتقد هذا الجيل المسيحى الأول أنهم على وشك أن يروا نهاية العالم، فقد اعتبروا أن كل ما يربطهم بهذا العالم، ويطيل أمده، لا قيمة له. أصبحت الرغبة فى الامتلاك خطيئة؛ وكل ما يربط الإنسان بالأرض ويبعده عن السماء لا بد من تجنبه. وعلى الرغم من أن العديد من التلاميذ كانوا متزوجين، فإنه من الواضح أنه لم تعقد زيجات بعد الانضمام إلى النحلة.. لقد فضلوا حياة العزوبة ويبدو أن «المعلم» قد وافق، ذات مرة، على ما يفعله هؤلاء الذين يخصون أنفسهم، على أمل حلول الملكوت.

لقد طلب يسوع من أتباعه، استغناء وترفعاً عن الحياة الدنيا وإيماناً كلياً بما يقوم به، ألا يحملوا زاداً على الطريق ولا حتى حقيبة أو ثوباً زائداً، بل كان عليهم أن يعيشوا فى فقر مادى، مكتفين بكرم الضيافة والإحسان: «اذهبوا بالحرىّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة، وفيما أنتم ذاهبون أكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات، اشفوا مرضى، طهروا برصاً، أقيموا موتى، أخرجوا شياطين، مجانا أخذتم مجاناً أعطوا، لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا فى مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا، لأن الفاعل مستحق لطعامه»(٢).

وعندما أرسل تلاميذه لهداية خراف بيت إسرائيل الضالة كان يعلم أنهم سيتعرضون لاضطهاد شديد وكراهية وقسوة متناهية. لقد أرسلهم حملان وسط ذئاب.. ربما يجلدون فى المعابد ويرمون فى السجون، وعليهم عندما

---

(١) مرقص ١٣ : ٣٠

(٢) متى ١٠ : ٦-١٠.

يشعرن بالاضطهاد فى مدينة أن يتركوها تواً إلى مدينة أخرى؛ وعليهم أيضاً أن يحذروا الناس وأن يكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمائم. «لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها»(١).

وفى نوبة من نوبات الصرامة القاسية، ألغى يسوع كل الروابط الطبيعية، فلم تعد لمتطلباته حدود. وبتجاهل لكل المشاعر الإنسانية والعلاقات الأسرية، طالب من يتبعه أن يحيا من أجله فقط.. أن ينكر أمه وزوجته وأولاده وأخوته، بل ونفسه وحياته أيضاً: «من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى، ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى. من وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلى يجدها»(٢).

هذا التحدى وهذا الاستخفاف بالأواصر الطبيعية، يبدو بوضوح فى حادثتين. قال يسوع لرجل: اتبعنى، أجاب الرجل: يا سيد دعنى أذهب أولاً وأدفن أبى. وكان رد يسوع: دع الموتى يدفنون موتاهم، لكن تذهب أنت وتدعو إلى ملكوت الله. وقال له آخر: يا سيد سأتبعك لكن دعنى أذهب أولاً واودع أهل بيتى. وأجاب يسوع: إن من يضع يده على المحراث ثم ينظر بعدها إلى الوراء، لا يصلح لملكوت الله.

هكذا بدا نظام التنسك والرهبنة، فالراهب هو الإنسان الكامل الذى يستطيع أن يحقق ما جاء فى الإنجيل من مثاليات. إلا أن هذا النظام المثالى كان من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن يصبح قانوناً عاماً بسبب حياة الفقر والعزلة الكاملة المفروضة عليه، والزواج الذى يجب على الراهب ألا يفكر فيه أو يقربه. ولو نظرنا إلى هذا النمط من الحياة على أنه هو القاعدة، لأصبح الراهب هو المسيحى الوحيد، وهذا تطرف يرفضه المنطق.

---

(١) متى ١٠ : ٢٨.

(٢) متى ١٠ : ٣٧.٣٩.

ويجب أن نقول هنا بوضوح إن يسوع لم يحرم الزواج لكنه على النقيض حرم الطلاق تحريماً كلياً، إلا لعلة الزنا. سأله الفريسيون عن الطلاق ليجربوه ، فسألهم بدوره : بماذا أوصاكم موسى؟ أجابوا: أن يكتب كتاب طلاق فتطلق. فأجاب يسوع وقال لهم: «من أجل قساوة قلوبكم كتب لكم هذه الوصية، ولكن من بدء الخليقة ذكرا وأنثى خلقهما الله، من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً. إذا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان»(١). وفى إنجيل «متى» يقول: «من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزنى، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى»(٢).

كان فى هذا الأمر تحد للشريعة، غير أنه لم يكن التحدى الوحيد، فلم يكترث يسوع كثيراً بالصيام، على حين كان يوحنا المعمدان دائم الصيام.. لقد انتهت أيام صيام يسوع المتعمدة بعد أن خرج من الصحراء منتصراً على إغراء إبليس، وأما صيامه بعد ذلك فقد كان سراً، كلما اعتزل الناس لكى يناجى أباه، لكنه لم يصم وهو بين الناس. كان تنسكه من نوع آخر، إذ كان يكمن فى إيمانه المطلق بصلته المباشرة بالله. وكان يعيش هو وأتباعه فى فرح، فصاحب الأخبار، السارة لا بد أن يحيا حياة مسرة. سأله أتباع يوحنا، هؤلاء الذين كانوا نساكاً على شاكلة معلمهم: لماذا نصوم نحن والفريسيون كثيراً، على حين أن تلامذتك لا يصومون؟ فقال لهم يسوع: «هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام العريس معهم، ولكن ستأتى أيام حين يرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون»(٣).

ولم يخطئ تلاميذ يوحنا عندما صاموا كما كان معلمهم يصوم، كانوا

---

(١) مرقص ١٠ : ٥ - ٩.
(٢) متى ٥ : ٣٠-٣٢.
(٣) متى ٩ : ١٥.

أوفياء، وتفهم يسوع وفاءهم وأعجب بهذا الولاء، وما كان ليسيئ إليهم أبداً، وما كان ليتركهم إلا وهم سعداء. على حين كان الأمر بالنسبة للفريسيين مختلفاً كل الاختلاف، فما كانوا أبداً سعداء، إذ أن عدم صيامه هو وأتباعه كان يمس جوهر الشريعة. ولم يكن هناك حل وسط بين ما يفعله هو وما يعتنقون، لم يكن بينه وبينهم أى تهاون، فإما أن ينكر يسوع معرفته، وإما أن يتخلى الفريسيون عن عقيدتهم، ولم يكن هذا ممكناً.

كان تهديد يسوع واضحاً، إنه يحاول القضاء على كل ما آمنوا به وكل ما حارب الآباء والشيوخ من أجله. حتى «السبت» انتهك حرمته، وكانت مراعاة السبت هى النقطة الرئيسية التى أقام عليها الفريسيون شكوكهم ومكرهم. كل من لايراعى «السبت» ينبذ. وكانت هذه هى النقطة المفضلة لدى يسوع لكى يتحدى خصومه بشأنها. وإذا كان الصيام لا يعنى له الكثير، فهل يعنى السبت ما هو أكثر؟ السبت: يوم الراحة المقدسة، التى باركها الله مباشرة وبنفسه.. لماذا ينقض يسوع السبت؟ رأوه يوم سبت هو وتلاميذه يعبرون حقول القمح، وأثناء سيرهم مد التلاميذ أيديهم إلى سنابل القمح، وأكلوا. قال الفريسيون: هذا ممنوع فى السبت. وكانت إجابة يسوع رادعة، إذ قال لهم: «أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذى لم يحل أكله له ولا للذين معه بل للكهنة فقط، أو ما قرأتم فى التوراة أن الكهنة فى السبت فى الهيكل يدنسون السبت وهم أبرياء. ولكن أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل، فلو علمتم ما هو، إنى أريد رحمة لا ذبيحة، لما حكمتم على الأبرياء، فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً» (١).

ودهش الفريسيون من هذه الإجابة، هذا النجار الناصرى يقارن نفسه بداود فى حالة احتياجه القصوى ويمنح نفسه نفس الحق. فليتركوه يتكلم

---

(١) متى ١٢ : ٣-٨.

فمن كلماته سوف يدان. لقد أخبرهم أن السبت قد خلق من أجل إنسان ولم يخلق الإنسان من أجل السبت، وعلى ذلك فالإنسان أيضاً هو سيد السبت.

ومن بين الزروع ، ذهب يسوع إلى مجمعهم ، فقد كان يعرف أن الفريسيين هناك، ذلك لأن تأدية الفريضة فى المجمع كانت من أهم ما يحرص عليه الفريسى. وكان المجمع، كما ذكرنا من قبل، مركز عقيدتهم الحية، والمكان المخصص لدراسة الشريعة. وعلى ذلك فعندما دخله يسوع كان يعلم أنه داخل لمواجهة اختبار آخر للقوة، بينه وبين رجال يعتقدون أنه قد أتى للقضاء عليهم. كان بالداخل رجل يده يابسة ، سألوه : هل يحل الإبراء فى السبوت؟ وفى طمأنينة الواثق من سلطانه، قال لهم يسوع: «أى إنسان منكم يكون له خروف واحد فإن سقط هذا فى السبت فى حفرة أفما يمسكه ويقيمه، فالإنسان كم هو أفضل من الخروف، إذ يحل فعل الخير فى السبوت» (١).

فى هذه الرواية لم يرجو الرجل «يسوع» ولم يستعطفه. ومن المحتمل أن يكون ذلك كذلك. فما يبدو أنه الحقيقة هو أن الفريسيين قد أحضروا الرجل إلى المجمع.. وجهزوا المسرح للتحدى، وقبله يسوع . وكان التحدى أكبر من مجرد شفاء يد عاجزة.

لم تكن القضية هى قضية الشفاء أو لاشفاء .. مراعاة السبت أو عدم مراعاته .. بل كانت قضية مبدإ ضد مبدإ، وعقيدة ضد عقيدة، مع أن الاثنتين كانتا تبدوان تحقيقاً لإرادة الله. فما هى إرادة الله إذن؟ ومن كان يعرفها ويدرك كنهها: يسوع أم الفريسيون؟ أيهما أفضل: أن يطبق الإنسان الشريعة أم يفعل الخير؟ بالنسبة ليسوع كانت الإجابة واضحة: إن إرادة الله

---

(١) متى ١٢ : ١١-١٣.

تكمن فى فعل الخير دون مراعاة للشريعة، فإذا ما خالف الشريعة لكى يفعل الخير، فإن هذا معناه أن الله قد أراد للشريعة أن تنقض. وقد تم البرهان على ذلك عندما وقف صاحب اليد اليابسة وسط المجمع، وقد أصبح سليماً. ولم يكن هذا برهاناً بالنسبة للفريسيين. وعلى الرغم من أنهم لم يناقشوا يسوع فى نفس اللحظة، فإنهم لم يعجزوا عن إيجاد إجابة فيما بعد: حيث إن الشريعة قد نقضت فهذا معناه أن مقدرة شفاء المرضى التى يتمتع بها يسوع، ليست من عند الله، بل من عند الشيطان. لذا رفض الفريسيون هذه الدعوة وحاربوا الرجل الذى جاء بها، لم يكونوا أشراراً ولا أغبياء، ولكنهم كانوا رجال دين متحمسين لما آمنوا به، وهكذا حذروا عدوهم وراقبوه.

لقد بدأ التحدى والصراع بين يسوع والفريسيين، ولم يكن هناك طريق آخر. فهل فهم الناس، أو حتى تلاميذه، أن هذه الحرية ما كانت لتتوفر له إلا من خلال معرفة الله؟ إن الحرية بلا معرفة خطيئة، ولقد فعل ما فعل لأنه عرف أنه ابن الله.. وأن ما يربطه به أكبر من أى شريعة. أثناء سيره يوماً، رأى رجلاً يعمل يوم سبت، قال له: مبارك أنت لو كنت تعرف، أما إذا كنت لا تعرف فأنت ملعون وناقض للشريعة. هذه العبارة تبين جوهر تعاليم يسوع، فالإنسان الذى يعرف الله حقاً، يصبح فوق الشريعة، أما من لايعرف الله فهو ملتزم ومكبل بقوانينها.

وحذا تلاميذ يسوع حذوه، فلم يتقيدوا بالشريعة، ولا بتقليد الشيوخ. وذات يوم جاء الكتبة والفريسيون إلى يسوع يشتكون: تلاميذك يأكلون الخبز بأيد غير مغسولة. وكان رده عنيفاً، كما هى عادته فى تعامله معهم، إذ قال لهم: «حسنا تنبأ إشعياء عنكم أنتم المرائين كما هو مكتوب، هذا الشعب يكرمنى بشفتيه وأما قلبه فمبتعد عنى»(١).

---

(١) مرقص ٧ : ٦ .

ثم أضاف بعد أن دعا الجميع، وقال لهم: «اسمعوا وافهموا ليس شئ من خارج الإنسان إذا دخل فيه يقدر أن ينجسه، لكن الأشياء التى تخرج منه هى التى تنجس الإنسان»(١). بل إن يسوع نفسه لم يغتسل قبل الغذاء عندما دعاه فريسى لكى يتناول الطعام عنده، وأبدى الرجل دهشته، فقال له يسوع: «أنتم الآن أيها الفريسيون تنقون خارج الكأس والقصعة. أما داخلكم فمملوء اختطافاً وخبثاً، يا أغبياء أليس الذى صنع الخارج صنع الداخل أيضاً»(٢). ثم أضاف: «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم مثل القبور المختفية والذين يمشون عليها لا يعلمون»(٣).

الاغتسال والوضوء ـ إذن ـ لم يكن لأى منهما عند يسوع طقوس، حتى الصلاة لم يحدد لها طقوساً معينة، كان شرطه الوحيد هو أن تكون خالصة ونابعة من القلب: «ومتى صليت فلا تكن كالمرائين، فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين فى المجامع وفى زوايا الشوارع لكى يظهروا للناس .. وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك الذى فى الخفاء»(٤).

وحديث يسوع عن المرائين، إشارة واضحة وهجوم صريح على الفريسيين الذين لم يهادنهم أبداً، وكان غالباً ما يصرخ فيهم: يا أولاد الأفاعى، كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار. وما كانوا ليتركوه لكى يسفه آراءهم ويسخر من معتقداتهم. لقد ذهبوا إلى رجال «هيرودس أنتيباس» وتشاوروا معهم: كيف يمكن القضاء على يسوع؟.

لماذا لم يحب يسوع الفريسيين؟ لقد أعلن الحرب على معتقداتهم

---

(١) مرقص ٧ : ١٤.
(٢) لوقا ١١ : ٣٩-٤٠.
(٣) لوقا ١١ : ٤٤.
(٤) متى ٦ : ٥-٦.

وآرائهم، واتهمهم بالتضليل والفساد، وكان عليهم أن يدافعوا عن مقدساتهم. هذا الصراع كان من الممكن أن يبدو طبيعياً فى الظروف العادية، لولا أن كلماته هو نفسه تؤكد أنه لا بد أن يحب الإنسان عدوه: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم. فإذا كان يسوع قد أرسل لإنقاذ الخطاة، وفتح أعين العمى، وإرشاد الضالين، وبعث من ماتوا روحياً ـ ألم يكن الفريسيون فى هذه الحالة، وهم فى رأيه على ضلال، أولى بمساعدته الروحية، وإرشاده وهدايته؟ إن يسوع لم يبذل أية محاولة لهدايتهم أو إرشادهم، بل على العكس هاجمهم واتهمهم وسخر منهم. لقد أرسل ـ كما قال ـ لهداية الخراف الضالة فى بنى إسرائيل، ومن الواضح أنه لم يضع الفريسيين ضمن هؤلاء، على الرغم من أنه كان يراهم فى حالة أسوأ من حالة الرعاع الجهلة بأمور الدين.

ويقول «يوكيم كال» إن إنجيل «يوحنا» لا يكترث كثيراً بموضوع أن يحب الإنسان أعداءه، ذلك لأن يسوع يستبعد بوضوح هؤلاء الذين يكرهونه ويكرهون تلاميذه(١).

يقول يسوع فى شفاعته: «من أجلهم أنا أسأل، لست أسأل من أجل العالم بل من أجل الذين أعطيتنى لأنهم لك»(٢). وفى إنجيل «لوقا» يقول فى أحد أمثاله وهو يعلم: «أما أعدائى الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامى»(٣).

وهذا أمر يثير الكثير من الدهشة، إن يسوع الذى قال: لا تقاوموا الشر لكى تكونوا أبناء الله الذى تشرق شمسه على الطيبين والأشرار سواء بسواء، والذى قال: «تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم،

---

(١) كال، ص ١٠٠.
(٢) يوحنا ١٧ : ٩-١٠.
(٣) لوقا ١٩ : ٢٧.

احملوا نيرى عليكم وتعلموا منى، لأنى وديع ومتواضع القلب»[١]٠٠ كان هو نفس يسوع الذى لعن شجرة التين عندما وجدها غير مثمرة، ولم يكن الوقت وقت تين: «وفى الغد لما خرجوا من بيت عنيا جاع، فنظر شجرة تين من بعيد عليها ورق وجاء لعله يجد فيها شيئاً، فلما جاء إليها لم يجد شيئاً إلا ورقاً، لأنه لم يكن وقت التين، فأجاب يسوع وقال لها لا يأكل أحد منك ثمراً بعد إلى الأبد»[٢]٠ ويبست التينة من الجذور. فقال له بطرس، وهم مجتازون فى الصباح: يا سيدى انظر، التينة التى لعنتها قد يبست. ما ذنب التينة وقد خلقها الأب الذى فى السماء ولا تملك من أمر نفسها شيئاً؟ يسوع الذى أعلن أنه هو نور العالم، والذى قال لتلاميذه: اغفروا يغفر لكم و «إن أحببتم الذين يحبونكم فأى فضل لكم، فإن الخطاة أيضاً يحبون الذين يحبونهم، وإذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم فأى فضل لكم فإن الخطاة أيضاً يفعلون ذلك»[٣]، هو نفسه الذى أهان المرأة الكنعانية، ووصفها هى وجنسها بأنهم كلاب: صرخت المرأة الكنعانية قائلة: «ارحمنى يا سيد يا ابن داود، ابنتى مجنونة جداً، فلم يجبها بكلمة، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين اصرفها لأنها تصيح وراءنا. فأجاب وقال لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة، فأتت وسجدت له قائلة يا سيد أعنى، فأجاب وقال: ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب»[٤]٠

ولتفسير هذا السلوك الذى يبدو متناقضاً، يمكن القول إن تفكير يسوع، فى بعض الأحيان، قد اعتراه الاضطراب. فقد كان فى المرحلة الأخيرة من حياته، على وجه الخصوص، يعانى من كرب وألم فكرى عظيم. كانت رؤيا ملكوت الله تلمع أمام عينيه وتربكه وتثير ذهوله. بدا لقليل من تلاميذه

---

(١) متى ١١ : ٢٨ - ٢٩٠
(٢) مرقص ١١ : ١٢ - ١٤٠
(٣) لوقا ٦ : ٢٢-٢٣٠
(٤) متى ١٥ : ٢٣-٢٦٠

فى لحظات خاطفة أنه قد جن وأعلن أعداؤه أنه قد تملكته الشياطين. ولم يكن يحاول إقناع مستمعيه، بل كان يركز على إثارة حماسهم. وبدا كأن رقته الطبيعية قد تركته. كان فى بعض الأحيان حاداً متقلب الطبع، وكثيراً ما عجز تلاميذه عن فهمه، ولم يكونوا - بحكم تكوينهم - على درجة تجعلهم قادرين على تحمل صراعه من أجل المثل العليا. وجاءت لحظة أحس فيها يسوع أن اتصاله بالبشر قد وصل إلى منتهاه، وكانت هى اللحظة التى تيقن فيها أنه هو المسيح، وأنه لا بد وأن يعود إلى أحضان أبيه.

الفصل السابع

المسيح

الفصل السابع

«المسيح»

كلمة المسيح Messiah معناها «الممسوح Anointed»، وهى اختصار لعبارة «مسيح الرب The Lord's Anointed» المستخدمة فى العهد القديم. أما كلمة «Christ» أو «Christos»، فهى المقابل اليونانى للكلمة الآرامية. وكان المسح بالزيت «المبارك»، يعتبر شعيرة من شعائر الإكبار والإجلال والتقديس، ومن ثم كانت أولى شعائر تتويج الملوك هى مسحهم بالزيت «المقدس». وهكذا فإن داود عندما مسح ملكاً، فى العهد القديم، أصبح - بوضوح - مسيحاً. من هذا يتضح أن كلمة «مسيح» قد أُطلقت على كل منذور ومختار، لدرجة أنه حتى أثناء الاحتلال الرومانى ليهودا كان الكاهن الأعظم، المعين من قبل الرومان يعرف باسم «الكاهن المسيح The Priest Messiah». وإذا ما رجعنا إلى سفر إشعياء، وجدنا أن «قورش» الفارسى قد وصف بأنه مسيح، ذلك لأنه أهلك أعداء إسرائيل، وقد ساعده الرب على أن يفعل ذلك : «هكذا يقول الرب لمسيحه قورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما .. لأجل عبدى يعقوب وإسرائيل مختارى دعوتك باسمك.. لقبتك وأنت لا تعرفنى» (١) وسمى الشعب اليهودى كله «مسيحاً» بمعنى شعب الله المختار.

أما بالنسبة للقنائين، خصوم روما الألداء، فقد كان ذلك الكاهن «الألعوبة» الملقب بالمسيح مجرد كذب وادعاء باطل، فالمسيح الحقيقى بالنسبة لهم هو الملك الشرعى المفقود.. ذلك المجهول من سلالة بيت داود الذى

---

(١) إشعياء ٤٥ : ١-٤.

سيخلص الشعب من طغيان الرومان. وفى أثناء حياة يسوع وصلت هذه النغمة من التوقع أعلى درجاتها حتى بلغت حد الهيستريا، واستمر هذا التوقع حتى بعد موت يسوع. وفى الواقع فإن التمرد الذى حدث عام ٦٦ ميلادية، كان دافعه إلى حد كبير هو الاضطرابات والدعاية التى قام بها القناؤون من أجل مسيح، قدومه على وشك الحلول.

ولقد أصبحت كلمة «المسيح» مع الإستمرار فى استخدامها لزمن طويل، هى الإسم المميز ليسوع، لكنها كانت فى الأصل لقبا، لا إسما: «وكان رجل فى أورشليم إسمه سمعان، وهذا الرجل كان بارا تقيا ينتظر تعزية إسرائيل، والروح القدس كان عليه، وكان قد أوحى إليه بالروح القدس أنه لايرى الموت قبل أن يرى مسيح الرب»[1].

ومن الخطأ إستخدام كلمة «مسيح» للدلالة على شخص، إذ يجب أن تكون دائما معرفة، أى «المسيح»، والمقصود بهذه الكلمة كان هو المنتظر لإقامة ملكوت الله على الأرض.

وفى فترة «العهد الجديد»، أى مابعد الميلاد، كان اليهود جميعا، باستثناء الصدوقيين، يؤمنون بمقدم المسيح، وبأنه سيقيم ملكوت الله، وكانوا يؤمنون أيضا - ربما بصورة عامة - بأن إيليا النبى سيأتى قبله، وكان من المتوقع أنه سيكون من سلالة داود. وعادة ماكان يطلق عليه اسم «ابن داود»، أكثر من «المسيح»، أو «المسيح الملك». لكن لقب « ابن الإنسان» الذى استخدمه يسوع لم يكن مألوفا كمرادف لكلمة «المسيح»، على الرغم من ذكره فى كتاب «دانيال»، الذى يعبر عن الأمل فى قدوم المسيح . وهذا المسيح القادم ليس ملكا كسليمان وداود.. إنه كائن لابشرى، قادم فوق السحاب، يتجسد بشرا، ليحكم العالم، ويكون سيدا للعصر الذهبى: «كنت

---

(١) لوقا ٢ : ٢٥-٢٦.

أرى فى رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأزل فقربوه قدامه، فأعطى سلطانا ومجدا وملكوتا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدى مالن يزول وملكوته مالا ينقرض»[1]. ولقد كان للمؤلف المجهول لكتاب «دانيال» تأثير حازم على مجرى ذلك الحدث الذى غير الدنيا فيما بعد.

كان من المتوقع، أولا وقبل كل شئ، أن يخلص المسيح بنى إسرائيل من نير الاضطهاد، ذلك لأنه بدون هذا الخلاص لن يصبح ملكوت الله حقيقة واقعة. لكن الفريسيون كانوا يؤمنون إيمانا حازما بأن المسيح لن يأتى ولن يقام الملكوت إلا إذا أصلح الناس من أنفسهم وتابوا إلى الله. لهذا كانت الدعوة إلى التوبة فى تعاليم يوحنا المعمدان، وكذا فى تعاليم يسوع، مرتبطة بإعلان حلول الملكوت.

لم يخبر يسوع تلاميذه وأتباعه أنه هو «المسيح». لقد حاربه الكتبة والفريسيون وأنكروا رسالته، واتهموه بالجنون وأن به مسا من شيطان، فاعتزل الجموع واختبأ فى الجبل، بعد أن أعد رسله ليحلوا محله. لقد أرسل الإثنى عشر - واحدا لكل قبيلة من بنى إسرائيل. أما هو فقد ظل فى الجبل مع القلة المخلصة من أتباعه، يعلمهم وينتظر.. ينتظر حدوث مالم يحدث، وهو مقدم ابن الإنسان.

ماذا كان يسوع نفسه أثناء هذه الفترة من الانتظار؟ هل كان ابن الله.. أول أبناء الله؟ .. هذا مؤكد، فقد كان يعرف ذلك. أنبى هو ؟... هذا مؤكد، إنه كان يعرف ذلك أيضا. هل يكون إيليا.. وهل هو إيليا السابق لمقدم ابن الإنسان ؟.. أما عن ذلك فلم يكن يسوع متأكدا. وأما هل هو ابن الإنسان نفسه ؟.. فذلك أمر لم يكن حتى قد حلم به، وكيف يكون كذلك

---

(١) دانيال ٧ : ١٣ - ١٤.

وهو ليس من نسل داود ؟.. لكن ابن الإنسان لم يأت، ويسوع كان ينتظر، حتى جاءه تلاميذ يوحنا يحملون إليه رسالة - من معلمهم المكبل بأغلال الأسر - تحتوى على سؤال محدد، هو :«أنت هو الآتى أم ننتظر آخر» ؟[١].

بهذا السؤال الهائل من يوحنا المعمدان، غرست البذرة فى قلب يسوع. أليس من المحتمل أن يكون هو ؟ لكن كيف يمكن أن يكون هو هو ذلك الموعود، وهو ليس من سلالة داود ؟.

إنه مجرد معلم دينى .. ربما نبى.. طريد ولاجئ مختبئ فى جبل.. رجل الأحزان. غير أن إيمانه الثابت، الذى لم يهتز أبدا، هو أنه ابن الله. ولكن ماذا عن ابن داود؟ وهنا لم يجد حرجا فى أن يقولها بوضوح عندما خرج من عزلته، لايمكن أن يكون المسيح ابن داود :« وفيما كان الفريسيون مجتمعين سألهم يسوع قائلا ماذا تظنون فى المسيح، ابن من هو، قالوا له ابن داود قال لهم كيف يدعوه داود بالروح ربا قائلا قال الرب لربى اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك، فإن كان داود يدعوه ربا فكيف يكون ابنه. فلم يستطع أحد أن يجيبه بكلمة، ومن ذلك اليوم لم يجسر أحد أن يسأله بتة»[٢].

هكذا تثبت كلمات يسوع نفسه أنه ليس، منحدرا من سلالة داود وينتج عن هذا - بما لايدع مجالا للشك - أن ميلاد ونسب يسوع فى إنجيلى «متى» و«لوقا»، لايتمتعان بجمال الحقيقة، وإنما يتمتعان فقط بسحر الأسطورة.

عاد الحواريون إلى يسوع، كانت قلوبهم ممتلئة بالمسرة، ذلك لأنهم هم أيضا أصبحوا - باسم سيدهم - قادرين على طرد الأرواح النجسة، وشفاء

---

(١) لوقا ٧ : ١٩.

(٢) متى ٢٢ : ٤١ - ٤٦.

المرضى، وقهر روح الشر. وبدا ليسوع، كأن إبليس يسقط من السماء كشعلة من لهب. روح الله تتدفق، وروح الشر تنهزم، وعلى الرغم من ذلك فيسوع مرفوض منبوذ. كان من المستحيل أن ينكر تجربته، أو أن ينقض تعاليمه، التجربة حقيقية والتعاليم صادقة.. ومجرد التفكير فى التوقف أو التراجع معناه الضياع إلى الأبد.

أنّتْ روحه فى لحظة من لحظات الهزيمة الظاهرية البالغة القسوة، حين كان الفريسيون، فى نشوة الانتصار أمامه، يسخرون من عجزه. إنهم يريدون آية.. معجزة من السماء تثبت صدق دعواه، وبدا لهم غير قادر فى عجز، عندما رفض أن يجرب ربه، قالوا له : ارحل، هيرود يريد أن يقتلك. وأجابهم فى أسى : من غير المسموح به أن يموت نبى خارج أورشليم. كلمات نطقها فى إرهاق ومرارة، إنسان أرهقه طول الترحال، دون أن يستريح. واتجه إلى القارب، وأخذه تلاميذه إلى بعيد. لقد فشلت محاولته الأخيرة فى أن يدخل موطنه.. لم يكرمه أهله، ولم يصدقوه.. وماكان عليه إلا أن يبتعد.

كانت بيت صيدا خارج نطاق سلطة هيرود، على الرغم من أنها كانت على حدود الجليل، وكان من الطبيعى أن يلجأ إليها يسوع، فلابد أنه قد عمل وعلم هناك فترة من الوقت.. لكننا لانعرف الكثير عما قدمه فى «بيت صيدا» باستثناء شفائه للأعمى[1].

ومن الممكن أن نفترض أن «بيت صيدا» كانت آخر المدن التى زارها، بعد أن أغلقت الجليل فى وجهه وقبل أن يتخذ قراره الكبير بالذهاب إلى «قيصرية فيلبس». وفى مكان ما، على حدود «بيت صيدا»، يمكن أن نتخيله عائدا من آخر محاولاته فى الجليل، مع بقايا أتباعه، وقد تضاءل عددهم.. لكن «بيت صيدا» هى أيضا لم ترحب بالنبى الطريد.. لقد تم رفضه فى الجليل، وفى خارجه.

(١) انظر مرقص ٨ : ٢٢-٢٦.

اتجه يسوع إلى الشمال، في الطريق إلى «قيصرية فيلبس» وبينما هو يسير، صاح في مرارة:« ويل لك ياكورزين، ويل لك يابيت صيدا، لأنه لو صنعت في صور وصيداء القوات المصنوعة فيكما لتابتا قديما في المسوح والرماد. ولكن أقول لكم إن صور وصيداء تكون لهما حالة أكثر احتمالا يوم الدين مما لكما. وأنت ياكفر ناحوم المرتفعة إلى السماء ستهبطين إلى الهاوية لأنه لو صنعت في سدوم القوات المصنوعة فيك لبقيت إلى اليوم»(١).

كانت لحظات شديدة القسوة على النفس وهو يشق طريقه إلى الشمال، ويعاني من وحدة داخلية ماعاناها أحد من قبل.. ماهو الآن ؟.. من يقول الناس إنه هو ؟.. وماذا يقول التلاميذ؟

ولما جاء إلى نواحي «قيصرية فيلبس»، التفت إلى تلاميذه متسائلا : من يقول الناس أني أنا؟ أجابوا بأن البعض يقولون بأنه يوحنا المعمدان وقد قام من بين الموتى - وهل هناك مايمنع من أن تقطع رأس يوحنا مرة أخرى؟ ويقول آخرون إنه إيليا - كما أطلقوها على يوحنا من قبل، وهل هناك مايمنع أن يكون مصير إيليا الثالث كمصير إيليا الثاني؟ وآخرون يقولون إنه إرميا أو أحد الأنبياء - حسنا، كان هناك أنبياء عديدون في تاريخ اسرائيل، ولقد انتهت حياة أغلبهم نهاية سيئة، فهل يصل يسوع إلى نفس النهاية؟ وتوجه يسوع إلى تلاميذه بالسؤال: لكن أنتم من تقولون إني أنا؟ هنا، أجابه سمعان بطرس، قال: «أنت هو المسيح ابن الله الحي. فأجاب يسوع وقال له طوبى لك ياسمعان بن يونا. إن لحما ودما لم يعلن لك لكن أبي الذي في السموات. وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات»(٢)

---

(١) متى ١١ : ٢٠-٢٣.

(٢) متى ١٦ : ١٦-١٩.

وعندئذ أوصى تلاميذه ألا يتحدثوا عن ذلك لإنسان، أى لايقولوا لأحد إنه يسوع المسيح.

فسمعان بطرس - إذن - من بين كل التلاميذ، هو أول من أحس وصرح بما يحسه عن حقيقة كون سيده ومعلمه. وسلوكه تجاه يسوع يدل - ببساطة ووضوح - على مقدار مايتمتع به من نبل داخلى. كان قويا وضعيفا فى نفس الوقت[1]. فيه كان الجسد ضعيفا، والروح ترغب فى قوة مسيطرة، وهو الوحيد، بين الإثنى عشر، الذى كان يتمتع برؤيا داخلية، وشفا فيه نادرة.. كان يتمتع ببعد نظر روحى، ويرى أشياء تتعذر رؤيتها على اللحم والدم. لقد اعترف بيسوع، وهو فى قمة هزيمته الأرضية على أنه «المسيح» الذى طال انتظاره، والذى على يديه ستنتهى كل آلام البشر، وكان هذا عملا من أروع أعمال الرؤى الخلاقة. ومن الممكن أن نشير هنا، ولو إشارة عابرة، إلى أن شجاعته لم تكن تماما فى مستوى رؤياه، إذ كان يتقدم فى شجاعة ويتسحب فى خوف. إنه الوحيد الذى تبع يسوع بعد القبض عليه إلى بيت رئيس الكهنة، وهو الوحيد أيضا الذى عاهد سيده على أن يسجن أو يموت معه، لكن فى بيت رئيس الكهنة تخونه شجاعته. فكم كان عظيما، وكم كان تعسا وهو ينكر سيده !!!.

هذا رجل حقيقى، يموج بمشاعر الحياة المختلفة، ولاعجب، إذ كان سمعان بطرس هو أول اختيار ليسوع وأقرب التلاميذ إليه. لقد فهم يسوع وكان هو الأقدر على أن يعبر لسيده عن حقيقة ذاته.

ويتفق «مرقص» مع «متى»، فى نفس الرواية تقريبا، على الرغم من أنه يوردها باختصار شديد.(٢) ويورد «لوقا» نفس القصة، مع اختلاف بسيط، وهو

---

(١) كما سنبين في الفصل الثامن.

(٢) انظر : مرقص ٨ : ٢٨ - ٣٠.

أن يسوع لايسأل تلاميذه وهم على الطريق، ولكن يتوجه إليهم بالسؤال فيما هو يصلى على انفراد، وكان التلاميذ معه. أما «يوحنا» فيصور لنا وحدة يسوع وحيرته، وهو يرى الناس يتراجعون ويبتعدون عنه «حتى تلاميذه يتذمرون، ويرجعون إلى الوراء، ولايمشون معه :« فقال يسوع للإثنى عشر ألعلكم أنتم أيضا تريدون أن تمضوا. فأجابه سمعان بطرس يارب إلى من نذهب كلام الحيوة الأبدية عندك، ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحى»[١].

من تلك اللحظة ومابعدها، أصبح هذا هو السر بين يسوع وتلاميذه المقربين: إنه هو المسيح المنتظر. وبدأ يخبرهم عن مخبوء القدر الذى ينتظره كمسيح: سيعانى أشياء كثيرة، ويقبض عليه ويقتل، لكنه سيبعث ويعود فى مجده الجديد، مسيحا مخلِّصاً، ومعلنا نهاية هذا العالم وبداية ملكوت الله :« وابتدأ يعلمهم أن ابن الإنسان ينبغى أن يتألم كثيرا ويرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل وبعد ثلاثة أيام يقوم»[٢] لكن هذا المفهوم الذى تولد فى روح يسوع عن عذاباته كمسيح، كان غريبا تماما بالنسبة لتلاميذه، لقد تعرف عليه سمعان بطرس كمسيح مخلِّص أما كمسيح يتعذب فهذا مستحيل.

سار فى المقدمة وحيدا، يتحدث بكلماته الغامضة عن عذاباته القادمه، أما التلاميذ فقد أمعنوا فى الصمت والتفكير. كان من الصعب عليهم أن يصدقوا. ولحق بطرس بيسوع وأخذ يؤنبه على مافاه به من كلمات: «ابتدأ ينتهره قائلا حاشاك يارب لايكون لك هذا، فالتفت وقال لبطرس اذهب عنى ياشيطان أنت معثرة لى لأنك لاتهتم بما لله لكن لما للناس» [٣] وهذه النقلة

---

(١) يوحنا ٦ : ٦٧-٧٠.
(٢) مرقص ٨ : ٣١.
(٣) متى ١٦ : ٢٣.

المفاجئة، من النقيض إلى النقيض فى سلوك يسوع تجاه سمعان بطرس، محيرة وتدعو للكثير من التساؤلات، فمنذ وقت قصير جدا كان يسوع يبارك سمعان ويعطيه مفاتيح ملكوت السموات ويجعل منه الصخرة التى يبنى عليها كنيسته والتى لن تقوى عليها أبواب الجحيم.. ثم فجأة يطلب منه أن يذهب عنه، لأنه معثرة وشيطان، ولايهتم بما لله. وعلى أية حال، يمكن تفسير هذا السلوك بأنه نتيجة طبيعية للصراع النفسى الرهيب الذى كان يعتمل فى أعماق يسوع، والذى لم يكن فى حاجة إلى مزيد من الجدل والمعارضة. إن قدره يناديه، وهو يستجيب بكل جوارحه لهذا القدر : عليه أن يذهب إلى أورشليم حيث يتألم كثيرا ويموت. ودعا يسوع كل الذين تبعوه خلف الإثنى عشر، وقال لهم :«من أراد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى، فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها، ومن يهلك نفسه من أجلى ومن أجل الإنجيل فهو يخلصها لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه، أو ماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه لأن من استحى بى وبكلامى فى هذا الجيل الفاسق الخاطئ فإن ابن الإنسان يستحى به متى جاء بمجد أبيه مع الملائكة القديسين»[١]. ولم يفهمه أتباعه باستثناء الإثنى عشر، الذين ألزمهم ألا يخبروا أحدا عن حقيقة كونه، أما الآخرون فقد فهموا أنه ربما يشير إلى ذلك الآتى بعده.

وأخيرا قال يسوع متنبأ بمكنون مستقبل الأيام، وكأنه يقرأ من كتاب غيب مفتوح :« الحق أقول لكم إن من القيام ههنا قوما لايذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله قد أتى بقوة»[٢]، وهى نبوءة تظهر بوضوح جلى أن يسوع كان يؤمن إيمانا جازما باقتراب حلول الملكوت، وأن ذلك سوف يحدث بعد أن يضحى بنفسه ويعانى ويتعذب وتسيل قطرات دمه، ويتحول من نبى أرضى

---

(١) مرقص ٨ : ٣٤-٣٨.

(٢) مرقص ٩ : ١.

إلى مسيح سماوى.

أما كيف تولد هذا الإحساس فى روح يسوع، فيمكن القول : إنه من المؤكد أن معاناة العبد - المرتقى المتسامى جدا، المحتقر، المخذول من الناس، رجل الأوجاع ومختبر الحزن - فى «إشعياء»، كانت مألوفة جدا، بل ومسيطرة على ذات يسوع، لدرجة أن أصبحت جزءا من تركيبته النفسية، وساعدته فى أن يتصور بجلاء، كم سيعانى كمسيح !.

ويقرر النص فى «إشعياء» أن «أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ونحن حسبناه مصابا مضروبا من الله ومذلولاً، وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا... كلنا كغنم ضللنا ملنا كل واحد إلى طريقه والرب وضع عليه إثم جميعنا. ظلم. أما هو فتذلل ولم يفتح فاه كشاة تساق إلى الذبح ونعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه.. أما الرب فسر بأن يسحقه بالحزن. إن جعل نفسه ذبيحة إثم.. سكب للموت نفسه وأحصى مع أثمة وهو يحمل خطية كثيرين»[1].

كان لابد وأن يذهب إلى أورشليم، مدينة الله وقلعة العهد القديم، وهناك يرسى دعائم ملكوت الله، وهو يواجه قدره الرائع الغريب. لم يكن هناك شك أنه لابد وأن يموت هناك. إن الفريسيين الذين طردوه من وطنه فى أرض الجليل، حيث كانت قوتهم ضئيلة، لن يتركوه يخرج بسلام من المدينة المقدسة، وهى لهم مركز قوة وسلطان. إلى القلب النابض لديانة إسرائيل كان لابد أن يذهب، لكى يبشر بكلمة الله ويحقق إرادته. كان القرار حتميا، حتى لو كان مقابله الموت، ولن يموت ابن الله إلا على مذبح الله !!.

من تلك الساعة غدا وحيدا. تضاءل عدد أتباعه. تركوه، ومن اتبعوه، اتبعوه بأجسادهم، إلا أن أرواحهم لم تكن معه. كان وحيدا إلا من «أبيه».

---

(١) إشعياء ٥٣ : ٤-١٢.

وصعد إلى الجبل وحده يوما ليصلى، فتبعه بطرس ويعقوب ويوحنا. انتظروه، وهو يقف وحده وراقبوه وهو يصلى.

اندمج فى صلاته وأطال وحل المساء فناموا، وفجأة استيقظوا، وخيل إليهم أن وجهه قد تغير إذ أضاء كالشمس، وأن ثيابه قد غدت بيضاء ناصعة كالنور، وتراءى لهم شخصان، على قدر كبير من المهابة، يقفان بالقرب منه، اعتقدوا أن أحدهما كان «موسى» والآخر «إيليا». اعتراهم الخوف، وصاح بطرس وهو يرتعد : ياسيد جيد أن نكون ههنا فنصنع ثلاث مظال، لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة. وفيما هو يقول ذلك إذ سحابة تظللهم. خافوا عندما دخلوا فى السحابة، وفجأة سمع صوت الله نفسه من السحابة وهو يقول :«هذا هو ابنى الحبيب الذى سررت به، له اسمعوا» (١) .

سقط التلاميذ على وجوههم من الخوف، اقترب يسوع ولمسهم وهو يقول: قوموا ولاتخافوا. ورفعوا أعينهم، لكنهم لم يروا سوى يسوع وحده. واحتفظ الحواريون الثلاثة بسر هذه الرؤيا، كما أوصاهم يسوع، «حتى يقوم ابن الإنسان من الأموات». سأله تلاميذه، وهم يهبطون من الجبل، لماذا يقول الكتبة إن «إيليا» لابد وأن يأتى أولا ؟ أجابهم يسوع قائلا :«إن إيليا يأتى أولا ويرد كل شئ.. ولكنى أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ماأرادوا، كذلك ابن الإنسان أيضا سوف يتألم منهم»(٢) .

ومن كلماته هذه فهم تلاميذه أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان. لقد حول يسوع كلمات إشعياء (٣) إلى نبوءة بالمسيح، أى خاصة به، ولم تكن من قبل تحمل هذا المعنى، ولم يكن أحد يتصور مطلقا أنها تشير إليه. تماما كما أن يوحنا لم يكن إيليا ولم يعد الأشياء كلها إلى نصابها، لكن يسوع

---

(٢) متى ١٧ : ٥.

(١) متى ١٧ : ١١.

(٢) الإصحاح ٥٣.

جعله إيليا، الذى جاء، رغم أن يوحنا المعمدان نفسه أنكر أنه إيليا، وهذه هى شهادة يوحنا :«حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت، فاعترف ولم ينكر، وأقر إنى لست أنا المسيح، فسألوه إذا ماذا. إيليا أنت، فقال لست أنا. النبى أنت، فأجاب لا»(١).

ورغم ذلك يصر يسوع على أن يوحنا المعمدان هو إيليا وأنه نبى، بل وأفضل من نبى. إنه يسأل الجموع فى قوة : ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا؟ «أنبيا، نعم أقول لكم وأفضل من نبى. فإن هذا هو الذى كتب ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكى الذى يهيئ طريقك قدامك، الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان.. وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتى»(٢).

هكذا صنع السر، وباح به لتلاميذه : لقد جاء إيليا حقا، وهاهو ذا الذى يأتى بعد إيليا يقف أمامهم.. يسوع المسيح.. المبشر بملكوت الله.. والقادم من مافوق السحاب عن يمين القوة، والذى هو نور العالم وخبز الحياة، والذى لابد وأن «يسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت ويسلمونه إلى الأمم فيهزأون به ويجلدونه ويتغلبون عليه ويقتلونه وفى اليوم الثالث يقوم» (٣).

إنه هو المسيح. وهكذا رسخت الفكرة فى أعماقه فأصبحت إيمانا لايتزعزع. وكمسيح ملك حقا، يستمد إرادته من إرادة الله، بدأ يعيد صياغة الماضى وخلق المستقبل، بعد أن أصبح مطلق الاقتناع بأن الأنبياء ماكتبوا إلا للإشارة إليه.. وكان يرى نفسه بوضوح فى نبوءاتهم المقدسة. وهكذا اعتبر يسوع نفسه المرآة التى انعكست فيها كل روح اسرائيل التنبؤية.

---

(١) يوحنا ١ : ١٩-٢١.

(٢) متى ١١ : ٩-١٤.

(٣) مرقص ١٠ : ٣٣-٣٤.

هنا يجب الإشارة إلى تناقض خفى جدا، قد لا تدركه إلا العين الباحثة الفاحصة المدققة.. وهو تناقض يقع مابين تعاليم يسوع فيما يختص بملكوت الله، وبين قناعته قبل رحلته الأخيرة إلى أورشليم بأنه هو المسيح المخلص الذى جاء لكى يقدم نفسه فداء للكثيرين.[1] وبعبارة أخرى فإن مفهوم يسوع كمخلص، لايمكن أبدا أن يتفق مع تعاليمه، ذلك لأنه علّم أن عضو الملكوت يدخل فى صلة مباشرة بالله، ومن ثم يصبح ابنا لله، ويصبح الله أبا له. وعلى ذلك فإن فكرة أن هذه العلاقة لابد لها من وسيط، يعتبر طعنة فى قلب تعاليمه. إن تضحيته بحياته كمخلص، يكفر عن ذنوب البشر ويفتح لهم أبواب الملكوت، معناه انتفاء الصلة المباشرة التى دعا إليها وأكدها فى تعاليمه.

وعلى أية حال، فلقد قرر فى صلابة صارمة أن يتوجه إلى أورشليم، وعلى وجهه خط قدر ابن الله. من قيصرية فيلبس إذن، حيث اتخذ القرار الكبير، سارع إلى حيث المنتهى : أورشليم والموت.

كان أمامه أن يسلك أحد طريقين: إما طريق شرق الأردن عبر ديكابوليس، أى العشر المدن، وإما طريق غرب الأردن عبر الجليل والسامرة، وكلاهما خطر، فخلال الطريقين لابد أن يمر بمنطقة نفوذ «هيرودس». ولقد اختار لنفسه، ولقليل من تلاميذه المقربين، الطريق الثانى. ويبدو أن بقية أتباعه، ولم يكن عددهم فى تلك الآونة يزيد عن عدة مئات - قد اختاروا طريق الحجاج المألوف، وهو الطريق الأول عبر «بيريا Peraea ، ليلتقوا به ثانية عند مخاضة الأردن .

فى الطريق تحدث إلى تلاميذه ثانية، عما سيلاقيه من عذاب. كيف ستتم خيانته، ويقبض عليه، ويحكم عليه بالموت، ويقتل ! لكنهم لم يستطيعوا

---

(١) انظر : متى ٢٠ : ٢٨.

أن يفهموا وخافوا أن يسألوه. وعندما وصل إلى كفر ناحوم، متخفيا، سأل تلاميذه عما كانوا يتكلمون فيما بينهم على الطريق، إذ لم يكن يعرف فيم كانوا يتجادلون، حيث كان يسير فى المقدمة وحيدا صامتا، همهمة أصواتهم فقط هى التى وصلته، لأنهم كانوا يخشون التحدث إليه. لقد أصبح الآن مخلوقا منفردا، طويل فترات الصمت واختواء الذات ... لايستطيعون التعامل معه كما كانوا يتعاملون من قبل، حتى كلماته، أصبح من العسير فهمها.

وفى الأسبوع السابق للصلب، يقرر يسوع أن يدخل دخول المنتصر - لا المهزوم - إلى أوشليم، وكان عليه أن يفعل ذلك طبقا لنبوءات العهد القديم، فلقد كان يؤمن كما قلنا من قبل أن النبوءات كلها عن المسيح ماكانت تشير إلا إليه. لابد وأن يدخل راكبا جحشا، لكى يتحقق ماجاء فى سفر «زكريا» : «ابتهجى جدا ياابنة صهيون اهتفى يابنت أورشليم، هو ذا ملكك يأتى إليك، هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان»[1] .

إذن، لابد من الحصول على جحش يدخل عليه راكبا، لكى تتحقق النبوءة حرفيا. وفى إنجيل لوقا : يرسل يسوع اثنين من التلاميذ إلى بيت عنيا، ويخبرهما أنهما سيجدان جحشا مربوطا فى انتظارهما، وماعليهما إلا أن يقولا لصاحبة إن السيد فى حاجة إليه.

وعندما يحدث كل شئ - كما أخبر به يسوع - يبدو الأمر وكأنه حدث معجز. ويتساءل مؤلفوا كتاب «الدم المقدس» .. : هل هناك شئ خارق فى ذلك؟ أفلا يدل الأمر كله على دقة فى التخطيط ؟ ألا يبدو أن الرجل من بيت عنيا، الذى وفر لهم الجحش فى الوقت المحدد، هو لعازر نفسه، أحد أتباع يسوع؟ ويؤكد دكتور هوغ شوفيلد Hugh Schonfied أن

---

(١) زكريا ٩ : ٩ .

ترتيبات الدخول المنتصر ليسوع إلى أورشليم - قد تم تنظيمها فى سرية كاملة، بين لعازر ويسوع، دون أن يعلم بها بقية التلاميذ[١] .

ويتفق ميدلتون مرى مع مؤلفى كتاب «الدم المقدس» فى أن مسألة وجود الجحش، فى المكان والزمان اللذين حددهما يسوع، تخلو تماما من عنصر الإعجاز، ذلك لأنه يتضح من القصة - كما رواها «مرقص» أن يسوع كان له صديق فى بيت عنيا، وهو سمعان الأبرص، ومن المحتمل، كما يقول «مرى»، أن سمعان الأبرص هو الذى جهز الجحش حسب اتفاق مسبق. ومن المحتمل أيضا، أنه كان يعيش فى بيت سمعان الأبرص أثناء زيارته الأخيرة لأورشليم، إذ كان يخرج من بيت عنيا فى الصباح متوجها إلى أورشليم، وإلى بيت عنيا كان يعود فى المساء[٢] .

وببساطة، يمكن افتراض أن يسوع عندما اتخذ قراره بالذهاب إلى أورشليم، أرسل إلى سمعان فى بيت عنيا يخبره باليوم الذى سيصل فيه ويطلب منه أن «يجهز جحشا لم يجلس عليه أحد من الناس». وهذا معنا أنه قد تم الإعداد لهذه الرحلة إعدادا جيدا.

وقبل أن يحل المساء، أحضر الجحش، ووضع له تلاميذه أرديتهم فوقه. ودخل المبارك الآتى باسم الرب إلى أورشليم، دخول المنتصر :«وكثيرون فرشوا ثيابهم فى الطريق، وآخرون قطعوا أغصانا من الشجر وفرشوها فى الطريق، والذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين أوصنا مبارك الآتى باسم الرب، مباركة مملكة أبينا داود الآتية باسم الرب، أوصانا فى الأعالى. فدخل يسوع أورشليم والهيكل ولما نظر حوله إلى كل شئ إذ كان الوقت قد أمسى خرج إلى بيت عنيا مع الإثنى عشر»[٣] .

---

(١) الدم المقدس، ... ص ٣٤١.

(٢) مرى ، «حياة المسيح»، ص ٢٣٥.

(٣) مرقص ١١ : ٨. ١١.

أما ماهى الكلمات الحقيقية التى هلّل بها أتباعه، وتصايح بها الناس.. فهذا مالانعرفه على وجه التحديد. ويقرر ميدلتون مرى أن تلك التى جاءت فى الأناجيل الأربعة لسوء الحظ، قد أعيدت صياغتها، لكى تتواءم مع الاعتقاد بأن يسوع قد دخل إلى أورشليم علانية على أنه هو المسيح الملك. وكان هذا مستحيلا. فباستثناء الإثنى عشرلم يكن أحد على وجه الإطلاق يعرف أنه مسيح، كان بالنسبة للجميع مجرد نبى. يقول«متى»: «ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة من هذا فقالت الجموع هذا يسوع النبى الذى من الناصرة» (١). أما «لوقا» فيقول إن جمهور التلاميذ فرحوا وسبحوا بصوت عظيم قائلين :«مبارك الملك الآتى باسم الرب»(٢). وتفسير هذه العبارة هو أن تلاميذ يسوع جميعا، كانوا يعلمون أن يسوع هو المسيح المنظر، وهذا بالطبع يتعارض مع ماأمر به يسوع، عندما طلب من الإثنى عشر أن يحتفظوا بالسر ولايخبروا به أحدا.

ولم يتحمل الفريسيون دخول يسوع إلى أورشليم حتى كمجرد نبى، لذا فقد طلبوا منه أن يؤنب تلاميذه لكى يكفوا عن الصياح، فأجاب: «أقول لكم إنه إن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ». وعندما أشرف على المدينة، نظر إليها ثم بكى، وقال:«إنك لو علمت أنت أيضا حتى فى يومك هذا ماهو لسلامك ولكن الآن أخفى عن عينيك، فإنه ستأتى أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة ويهدمونك وبنيك فيك لايتركون فيك حجرا على حجر لأنك لم تعرفى زمان افتقادك»(٣) .

ومن لحظة دخوله أورشليم، اشتد التوتر الروحى ليسوع. رحلته المريرة فى وحدة نفسية مطلقة، على رأس أتباع أغلبهم لايفهمونه.. قراره الذى

---

(١) متى ٢١ : ١٠-١١.
(٢) لوقا ١٩ : ٣٨.
(٣) لوقا ١٩ : ٤٢-٤٤.

يفوق طاقة البشر، وقبوله لمصيره الذى حدده لنفسه.. كل هذه العوامل وصلت به إلى حالة من الشمل الروحى المتسامى فوق البشر. لقد ارتفع وحلق - بعمق رؤياه وشجاعته وحبه - فوق ماهو مألوف بين الأحياء، وأصبحت أورشليم، بالنسبه له، هى مدينة الروح.. الوعاء الذى يحتوى دم الأنبياء... الرمز والمحراب، حيث يضحى ابن الله الوحيد بنفسه، فداء عن آخرين، ويسيل دمه.

وعلى الرغم من ذلك كله، كانت أورشليم مدينة أرضية، بهيكلها القائم على أعمدة حجرية محلقا ومطلا على أودية المدينة، كانت تبدو كأنها بابل أخرى: كانت بابل أحدى عجائب الدنيا، وكانت أورشليم كبابل - أيضا - تزدحم بالناس الذين يتعاملون ويجرون وراء كل ماهو مادى، من أجل الكسب واكتناز المال.. فأين هم إذن أبناء الله ؟ كيف تكسر الروح أغلالها، وتتوحد مع خالقها، لكى يصبح الإنسان ابن الله وقد سيطرت المادة على كل ماحولها؟ نظر يسوع إلى أروقة الهيكل المزدحمة بباعة الحمام والبقر وموائد الصيارفة وجموع الناس، وفاجأ الجميع بقوله :«أنقضوا هذا الهيكل وفى ثلاثة أيام أقيمه. فقال اليهود فى ست وأربعين سنة بنى هذا الهيكل أفانت فى ثلاثة أيام تقيمه»[1]. وتساءل الجمع، الذى تبعه، فى استغراب : ماذا يعنى؟ لاشئ بالطبع أكثر مما قال. كان ممتلئا بالإحساس بقوة خارقة، وماكان يعنيه هو أن الروح أقوى وأشد من كل ماهو مادى. إنه فى هذه اللحظة بالذات، كان يقصد أن هيكلا أكثر عظمة وأروع مجدا، سوف يقام فى أرواح الرجال عندما تصل الوحدة بين الإنسان والله إلى أقصى غاياتها.

عاد إلى بيت عنيا، وقضى الليل يقظان، تتملكه توقعات رهيبة.. نسى حتى مجرد تناول الطعام. وفى طريقه إلى الهيكل فى الصباح، شعر بجوع

---

(١) يوحنا ٢ : ١٩-٢٠

مفاجئ وعلى مسافة، رأى شجرة تين مورقة توجه إليها فوجدها بلا ثمر، إذ لم يكن موسم التين قد بدأ بعد. ويبدو أنه نسى - ضمن مانسى - أنه ليس فى الجليل، حيث تثمر أشجار التين في وقت مبكر. ولعن يسوع شجرة التين :« لايأكل أحد منك ثمرا بعد إلى الأبد». ويبدو هذا الحدث - بالطبع - غريبا، شديد الغرابة، لكن بالتأكيد لابد أن كانت له مدلولاته ودوافعه. كانت نفسه تضطرم وهو فى طريقه إلى تطهير الهيكل، كان هناك صراع رهيب بين الروحانية القصوى التى تعتمل داخله، والمادية الساحقة التى تحيط به، وخلّف هذا الصراع نوعا من الضغط النفسى الرهيب عليه، مما دفعه فى ضيق إلى أن يلعن شجرة التين. وهذا غير مألوف فى سلوكه بوجه عام، ففى تركيزه على الأشياء التى لم تأت بعد، نسى الأشياء القائمة فعلا، وقد ولد شعوره بها فجأة، إحساسا مفاجئا بالضيق، فى روحه المتوترة.

عندما وصل إلى الهيكل، طرد البائعين والمشترين وقلب موائد الصيارفة وكراسى باعة الحمام، ولم يسمح لأحد أن يجتاز الهيكل بمتاع. وخافه الكتبة ورؤساء الكهنة، حين صاح :«أليس مكتوبا بيتى بيت صلوة يدعى لجميع الأمم وأنتم جعلتموه مغارة لصوص» (١) . لقد ألقى بنفسه وسط العالم المادى للهيكل وأخضعه. وكم كان نصره رائعا ومروعا فى وقت واحد !! لقد أفزع ، هو والمخلصون من أتباعه من أهل الجليل، كل من حوّل الهيكل المقدس إلى سوق تجارة. على أن نصره هذا لم يدم طويلا، إذ كان ليوم واحد فقط، ذلك لأن الكهنة - وقد أحسوا بخطورة ماهو مقدم عليه - تآمروا كيف يهلكونه.

وبدأ يسوع يحس أنه غريب فى أورشليم، شعر أن هناك حائطا من المقاومة لايستطيع النفاذ منه، تحيط به المكائد والمصائد فى كل خطوة يخطوها، ويطارده الفريسيون والكهنة بسوء نية مبيتة. قوبل بعدم تصديق فى

(١) مرقص ١١ : ١٧.

كل خطوة يخطوها، وعومل تلاميذه باحتقار لمجرد أنهم من الجليل، أأنت أيضا من الجليل؟ كانوا يسألون فى استعلاء، ثم يضيفون فى ازدراء : لايمكن أن يخرج من الجليل نبى.

كان ضجيج الباعة واستعلاء الكهنة، يجعل من الهيكل مكانا كئيبا بالنسبة ليسوع. وحين طلب منه بعض تلاميذه يوما أن يتأمل جمال أبنية الهيكل، وحسن اختيار المواد التى استخدمت فى بنيانه، والثراء الواضح فيه، ماكان منه إلا أن قال لهم :«الحق أقول لكم إنه لايترك ههنا حجر على حجر لاينقض»[١] . ماأعجبه شئ، باستثناء أرملة فقيرة مرت فى تلك اللحظة ورمت بقطعة نقود صغيرة فى الصندوق، وكان رأيه أنها رمت أكثر منهم جميعا، وهو يقصد بالطبع، أكثر من كل الأغنياء الذين يرمون بالزائد عن حاجتهم، أما هى فقد رمت بقوت يومها.

هذا الأسلوب فى انتقاد كل مايراه داخل الهيكل.. امتداح الفقراء الذين يعطون القليل، وذم الأغنياء الذين يعطون الكثير، ولوم الكهنة الذين لايفعلون شيئا لصالح الناس، واتهامه لخصومه من الفريسيين أنهم أبناء إبليس، ولشهوات أبيهم يعملون [٢]..كل هذا وأكثر منه كان طبيعيا أن يثير ثائرة رجال الدين، ومن غير الممكن إطلاقاً، بل إنه من المستحيل، أن يقود إنسان ثورة ضد اليهودية من داخل معبد يهودى، هذا ضد طبيعة الأشياء.

كان يسوع يتوجه فى المساء من أورشليم إلى «بيت عنيا» وهى قرية صغيرة تقع على قمة تل يطل على البحر الميت والأردن، وعلى بعد مسيرة مايقرب من ساعة ونصف من أورشليم - هناك كان يقضى الليل فى بيت مريم ومرثا وسمعان الأبرص، الذى كان يبدو أنه هو صاحب البيت، إن لم

---

(١) متى ٢٤ : ٢.

(٢) انظر : يوحنا ٨ : ٤٤.

يكن أخ الأختين. ومع هذه الصحبة الطيبة، كان يسوع ينسى متاعب الحياة العامة وإهانات الكتبة ومضايقات الفريسيين. وغالبا ماكان يجلس على جبل الزيتون، فى مواجهة جبل موريا Moriah ، وتحت ناظرية تتشامخ مبانى الهيكل.. منظر كان يثير إعجاب الأجانب الغرباء، لكنه كان يبعث فى نفسه الحزن والأسى. وفى لحظات المرارة القاسية، كان لايتمالك نفسه فيصيح : «أورشليم يا أورشليم ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها. كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا، هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا لأنى أقول لكم إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب»(١).

هكذا ظل يسوع فى أورشليم : قروى يعجب به القرويون من أمثاله، على حين ترفضه أرستقراطية الأمة كلها، ولم يكن لصوته فيهم أى تأثير إيجابى، بل العكس هو الصحيح، وفى هذا الجو العدائى - كان لابد وأن يعترى تعاليمه الكثير من التغيير. إن أحاديثه الجميلة التى كان لها وقع السحر على خيال الشباب، لم تواجه فى أورشليم إلا بعقول كالحجر. أما هو، الذى كان يشعر بالارتياح والألفة بجانب البحيرة الصغيرة الرائعة البساطة، فقد كان يحس هنا بالغربة والقلق وعدم الأمان فى مواجهة المتعالمين والمتعالين عليه والمتربصين به . لقد وجد نفسه مضطرا لأن يصبح محاورا ومفسرا وقاضيا ولاهوتيا. أما عن محادثاته التى كانت تتميز بسحرها وجاذبيتها، فقد أصبحت جدلا ناريا زاحفا ومعارك كلامية تقليدية لانهاية لها. وبعثرت عبقريته، المتناسقة المتأنقة، فى جدل عن الشريعة والأنبياء، لكنه كان ينتصر دائما، وهو يستخدم عقليته الفريدة فى نوعها.

لقد أرادوا إثارة حيرته يوما، فقدم له الكتبة والفريسيون إمرأة أمسكت وهى تزنى. قالوا له: يامعلم هذه المرأة أمسكت فى ذات الفعل، أى وهى تزنى،

(١) متى ٢٣ : ٣٧-٣٩.

وموسى أوصانا بأن نرجم مثل هذه، فماذا تقول أنت ؟ إنحنى يسوع، وأخذ يخط بأصبعه على الأرض، وماأجاب، ولما ألحوا عليه فى السؤال، انتصب واقفا، وقال عبارته المشهورة :« من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر» ثم انحنى إلى أسفل، وأخذ يكتب ثانية على الأرض « وأما هم فلما سمعوا وكانت ضمائرهم تبكتهم خرجوا واحدا فواحدا مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين، وبقى يسوع وحده والمرأة واقفة فى الوسط. فلما انتصب يسوع ولم ينظر أحدا سوى المرأة قال لها يا امرأة أين هم أولئك المشتكون عليك أما دانك أحد، فقالت لا أحد ياسيد. فقال لها يسوع ولا أنا أدينك إذهبى ولا تخطئى أيضا» (١) .

لم يكن كبار الكهنة والصدوقيون يكرهونه فقط، بل كانوا يستخفون به ويتعالون عليه، أما الذين أصيبوا بالفزع، فهى الطبقة المتوسطة من الفريسيين، ذلك العدد الهائل من الكتبة الذين كانوا يعيشون من ارتزاقهم بعلم التراث، لأن مصالحهم كانت مهددة بتعاليم هذا المعلم الجديد.

لقد بذل الفريسيون الكثير من الجهد لكى يجروا يسوع إلى مناقشة الأوضاع السياسية، وبذلك يسهل اتهامه على أنه ضد السلطة. وكانت أساليبهم تتسم بالذكاء والدهاء، وتتطلب الكثير من حكمة يسوع، لكى يتجنب الاصطدام بالسلطة الرومانية الحاكمة، وهو يبشر بملكوت الله. سأله بعض الفريسيين يوما، وهم يتظاهرون بالتقوى : يامعلم، نعلم أنك صادق، وتعلم الطريق إلى الله بالحقيقة، ولاتخشى الناس ، قل لنا – إذن – ماذا تظن .. أمن الشرع أن نعطى الجزية لقيصر أم لا ؟ كانوا يأملون فى إجابة تمكنهم من تسليمه لبيلاطس. وشعر يسوع بمكرهم. طلب منهم دينارا، ولما قدموا له الدينار، سأل : لمن الصورة والكتابة؟ قالوا: لقيصر. وهنا نطق بحكمته البالغة،

---

(١) يوحنا ٨ : ٧-١١.

التى مانسيتها الأجيال أبدا:« أعطوا إذن مالقيصر لقيصر ومالله لله» [١] كانت إجابته مثيرة للإعجاب، لدرجة أنهم سكتوا ولم يستطيعوا أن يمسكوه بكلمة. بهذه الكلمات البسيطة العميقة، تحدد مستقبل المسيحية الحقة، إذ عبرت - فى صدق - عن الروحانية الخالصة، والعدالة الرائعة ووضعت حدا بين ماهو روحى خالد وماهو مادى مؤقت.

لقد رأى الكهنة والفريسيون أن يسوع يهدد سلطانهم، وكذا دخلهم المادى من «صناعة» الكهنوت، وعلى ذلك، فإنه عندما كان يسير ويعلم فى أروقة الهيكل، سأله بعضهم: بأى سلطان تفعل هذا؟ ومن أعطاك هذا السلطان؟ فأجاب يسوع، والكل شغوف بأن يستمع إلى ماسيقول: «وأنا أيضا أسألكم كلمة واحدة فإن قلتم لى عنها أقول لكم أنا أيضا بأى سلطان أفعل هذا. معمودية يوحنا من أين كانت، من السماء أم من الناس»[٢]، ويبدو هذا السؤال، لأول وهلة، وكأنه مراوغة لعدم الإجابة على السؤال. غير أن سؤال يسوع - فى الواقع - كان مباشرا وفى لب الموضوع. لقد كانت معمودية يوحنا ذات أثر جوهرى فى حياته، فبهذه المعمودية بدأ يسوع الطريق إلى حيث هو الآن، فى قلب الهيكل، أى فى قلعة اليهودية ومعقلها، يخوض معركة الإيمان والعقيدة، مع سدنة الشريعة وأبطال التوراه. كان يسوع يعرف جيدا أن الارستقراطية الكهنوتية لن تسمح بالاعتراف بقدسية ماكان يفعله يوحنا. لكن الجمع الذين كانوا يحيطون بيسوع فى الهيكل، كانوا يؤمنون أن يوحنا مرسل من عند الله. كانت دعوى يسوع واضحة فى سؤاله، وهى ببساطة أنه حقا نبى تدثر بعباءة يوحنا لحظة معموديته، وهذا هو الادعاء الظاهرى الوحيد الذى كان بإمكانه أن يقول به. أما عن سلطانه الداخلى فقد كان يسطع فى كل أفعاله وأقواله. ولو قال إنه يستمد سلطانه من الله -

---

(٢) لوقا ٢٠ : ٢٥.

(١) متى ٢١ : ٢٤-٢٥.

بأسلوب مباشر – أمام الصدوقيين والفريسيين لاتهموه بالجنون، كما حدث واتهموه من قبل، لذلك لم يقل أكثر من أنه قد رسم لرسالته، بمعمودية يوحنا. ثم سألهم من أين كانت.. من السماء أم من الناس؟ ولم يستطيعوا الإجابة : « ففكروا فى أنفسهم قائلين إن قلنا من السماء يقول لنا فلماذا لم تؤمنوا به، وإن قلنا من الناس نخاف من الشعب لأن يوحنا عند الجميع مثل نبى. فأجابوا يسوع وقالوا لانعلم. فقال لهم هو أيضا ولا أنا أقول لكم بأى سلطان أفعل هذا» (١).

هكذا تجلت – بوضوح – عبقريته الرائعة فى قوتها وبساطتها، وهو يخوض صراعه مع خصوم ذوى قوة وعلم وبأس شديد. وقد تجلى ذكاء فكره، ونقاء روحه، فى كلماته القاطعة. هذه ليست كلمات حالم، أو صاحب رؤى، بل إنها كلمات رجل يعيش بين الرجال، لكنه يتسم بالكمال والجلال. ويل لكم أيها الناموسيون، يقول لهم فى حزن وغضب، «لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة، مادخلتم أنتم والداخلون منعتوهم»(٢).

ورغم ذلك كله لم يستطع يسوع أن يقيم له كنيسة فى أورشليم، فذلك المعلم الشاب الرائع الجاذبية والذى كان يحب ويغفر بشرط أن يحبه الناس ويتبعوه، لم يجد إلا قليلا من التعاطف فى هذا الهيكل المشغول بضجيج مناقشات لا طائل من ورائها، وصيحات بائعى الحمام، ورنين نقود الصيارفة. وعندما كان يدفع إلى أقصى حدود الاحتمال، كان يرفع الحجاب تماما، ويعلن بكل وضوح : أن الشريعة لم يعد لها سلطان: «ليس أحد يضع رقعة من ثوب جديد على ثوب عتيق، وإلا فالجديد يشقه والعتيق لا توافقه الرقعة التى من الجديد، وليس أحد يجعل خمرا جديدة فى زقاق عتيقة لئلا

---

(٢) متى ٢١ : ٢٥-٢٧.

(١) لوقا ١١ : ٥٢.

تشق الخمر الجديدة الزقاق فهى تهرق والزقاق تتلف»[١].

لقد كان هؤلاء المتزمتون، قساة القلوب، المتمسكون بالشريعة، يعتبرون أنفسهم - هم فقط - أبناء إبراهيم. وأعلن يسوع كذب هذا الإدعاء: إن كل إنسان خير متوجه بقلبه إلى الله، وكل من يحسن استقباله ويعامله فى حب هو ابن لإبراهيم. وبدا له أن كبرياء الدم، والاعتزاز بتفرد الجنس، هو العدو الأكبر الذى يجب محاربته، وهذا معناه أن يسوع لم يعد يهوديا. لقد كان فى أقصى درجات الثورية عندما دعا الناس إلى دين يقوم على أساس أن الخلق جميعا أبناء الله. لقد أعلن حقوق الإنسان، لاحقوق اليهود. الدين الذى أتى به، هو دين للبشرية كلها.. لايقوم على صلة الدم، بل على إيمان القلب.وهذا معناه أنه قد تم إبطال الشريعة، وأصبح الهيكل بلاقيمة تذكر. وهكذا أصبح يسوع بالنسبة للصدوقيين - الذين هم سدنة الهيكل وارستقراطيته - خطرا يجب التخلص منه : لايمكن أن يعيش يسوع واليهودية جنبا إلى جنب.

كان الكاهن الأعظم، فى ذلك الوقت، هو يوسف قيافا Joseph kaiapha، ذلك الذى لايعرف الكثير عن شخصيته، ويبدو أن سلطته كانت اسمية فقط، ذلك لأن شخصا آخر كان دائما ما يبدو بجانبه، وربما كان أكثر منه سلطانا، وهذا الشخص هو حنانيا Hanan ، أب زوجة قيافا، الذى كان من قبل هو الكاهن الأعظم، لكنه ظل محتفظا بقدر هائل من احترام الآخرين له، وعلى الرغم من إنه ترك السلطة الرسمية فأنه ظل يعرف باسم الكاهن الأعظم، وكان دائما ما يرجع إليه فى عظائم الأمور. وهذا معناه أن «حنانيا» كان هو السلطة الرئيسية، ولم يكن فى استطاعة قيافا أن يفعل شيئا بدونه. وكان من المألوف ذكر اسميهما معا، غير أن اسم حنانيا كان

---

(٢) لوقا ٥ : ٣٦-٣٧.

(١) يوحنا ١١ : ٥٠

يذكر أولا. وككل أرستقراطية الهيكل، كان «حنانيا» ينتمى إلى الصدوقيين، وهم فرقة تتسم بشدة القسوة فى أحكامها. وكانت روح أسرة «حنانيا» كلها قوية متغطرسة، تتميز بذلك النوع من الشر الحرون، الذى عادة مايميز ساسة اليهود. وعلى ذلك، فإن ماتلا ذلك من أحداث إنما تقع مسئوليتها على عاتق «حنانيا» وأسرته وجماعة الصدوقيين. وبإيعاز من «حنانيا»، ونيابة عنهم جميعا، نطق «قيافا»، رئيس الكهنة، بالحكم: «خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولاتهلك الأمة كلها» (١).

وبعد النطق بهذا الحكم تلاحقت أحداث المأساة المرعبة.. مأساة المحاكمة والصلب.

---

(١) يوحنا ١١: ٥٠.

الفصل الثامن

المحاكمة والصلب

الفصل الثامن

المحاكمة والصلب

يقول «يوحنا» فى إنجيله : إنه قبل عيد الفصح بستة أيام، أتى يسوع إلى بيت عنيا، حيث كان ينزل فى بيت « لعازر» الميت الذى أقامه من الأموات. كانت «مرثا» تقوم بالخدمة كعادتها، وهنا تقدمت مريم، أخت مرثا، وفى يدها قارورة من طيب ناردين، خالص ونادر وكثير الثمن، فصبت الطيب على قدمى يسوع، دهنتهما ثم مسحتهما بشعر رأسها، اعترض واحد من تلاميذه، وهو يهوذا سمعان الإسخريوطى، قال «لماذا لم يبع هذا الطيب بثلثمائة دينار ويعط للفقراء. قال هذا ليس لأنه كان يبالى بالفقراء بل لأنه كان سارقاً وكان الصندوق عنده وكان يحمل مايلقى فيه [١]»، وكانت إجابة يسوع على اعتراض يهوذا قاطعة فى دلالتها على ماتخبئه الأيام التالية، قال يسوغ «أتركوها، إنها ليوم تكفينى قد حفظته»[٢].

إنه يدرك بحاسته التنبؤية أن الموت يحوم حوله، وأنه قريب ولامفر، وكأنه قد نقل إحساسه هذا - بقوته الداخلية المسيطرة - إلى أعماق مريم فطيبته ودهنته وأعدته لمواجهة قدره.

أما متى فيقول : إن المرأة قد سكبت الطيب على رأس يسوع، لاعلى قدميه، وإن ذلك كان فى بيت سمعان الأبرص، وإن تلاميذه قد اغتاظوا واعترضوا.

وهذا معناه أنه لم يكن يهوذا وحده هو الذى اغتاظ واعترض. ويتفق

---

(١) يوحنا ١٢ : ٥-٦.
(٢) يوحنا ١٢ : ٧.

مرقص مع متى فى أن ذلك قد حدث فى بيت سمعان الأبرص، وأن الطيب قد سكب على رأس يسوع، لاعلى قدميه، وأن الذين اعترضوا «قوم»، ولايشير مطلقا إلى أن يهوذا بمفرده قد احتج أو اعترض. كذلك يمكن أن نستخلص مما جاء فى الأناجيل الثلاثة، أن لعازر وسمعان الأبرص، كانا شخصا واحدا لاشخصين.

وهنا اختلاف آخر كبير وخطير، فيما يختص باليوم الذى مسحت فيه المرأة يسوع بالطيب لكى تعده - كما قال - للتكفين. يقول «يوحنا» إن ذلك قد حدث قبل الفصح بستة أيام(١). أما «متى» فيقرر أن ذلك قد حدث قبل الفصح بيومين اثنين :«ولما أكمل يسوع هذه الأقوال كلها قال لتلاميذه تعلمون أنه بعد يومين يكون الفصح وابن الإنسان يسلم ليصلب... تقدمت إليه امرأة معها قارورة طيب كثير الثمن فسكبته على رأسه وهو متكئ» (٢). ويتفق «مرقص» مع «متى» فى تحديد نفس التوقيت : كان ذلك قبل الفصح وأيام الفطير بيومين فقط(٣).

وقصة اليومين الأخيرين فى حياة يسوع تبدو مشوشة إلى حد ما، كما جاءت فى الأناجيل، إذ تجمع الأناجيل الثلاثة الأولى - «متى» و« مرقص» و«لوقا» - على أن يسوع قد أكل الفصح مع تلاميذه فى أول أيام عيد الفطير، وكان ذلك يوم جمعه. وعلى الرغم من ذلك يجمعون على أن يسوع قد صلب ودفن فى نفس اليوم، وأنه ظل فى القبر طوال السبت، ثم قام فى يوم الأحد. ومن الصعب التوفيق بين الروايتين، إلا إذا افترضنا أن العشاء الأخير قد احتل مكانة مبجلة وخالدة، فى ذاكرة الحواريين وفى طقوس الكنيسة القديمة، لدرجة أنهم خلطوا بينه وبين عيد الفصح اليهودى.

---

(١) يوحنا ١٢ : ١-٨.
(٢) متى ٢٦ : ١-٧.
(٣) يوحنا ١٤ : ١-٣.

ومن المنطقى، أن يكون العشاء الأخير قد تم مساء الخميس، لامساء الجمعة، أى قبل عيد الفصح بيوم واحد. وكان من الضرورى أن يكون ذلك كذلك، لأن يسوع كان قد قرر أن يكون - هو نفسه - حمل الفصح الذى يضحى به، وأن يموت يوم الجمعة (فى الرابع عشر من نيسان). ولقد مات يسوع - كما تنص الأناجيل - فى ذلك اليوم، حوالى الساعة الثالثة، فى نفس الوقت الذى يذبح فيه الحملان فى الهيكل لإعداد وليمة الفصح.

أما يوحنا وحده، فهو الذى أكد أن العشاء الأخير كان قبل عيد الفصح. وقد تم تفصيل ذلك فى الأصحاح الثالث عشر من إنجيله. وهو رأى يتفق تماما مع مجريات الأحداث ومع مسلمات المنطق. وربما يسأل سائل : كيف استطاع يسوع أن يحدد هذا الوضع العميق فى رمزيته ؟ حقا، لاتوجد إجابة محددة عن كيفية تحقيقه للنهاية التى رسمها لنفسه، إذ كان يخفى تحركاته بمهارة، باستثناء الوقت الذى كان يظهر فيه فى وضح النهار فى الهيكل، مع جمهور من الراغبين فى الاستماع إليه. ومن المحتمل أنه فى اللحظة التى اختارها، قدم نفسه لكى يقبض عليه، وفى نفس الوقت، رتب كيفية تسريب سره كمسيح للسلطة الدينية فى أورشليم. أما عن كون يهوذا واعيا وهو يحقق هدف «يسوع»، أو أن يسوع قد اتخذ منه أداة دون وعى منه .. فهذا ماسنناقشه فى الصفحات التالية، على الرغم من صعوبة، إن لم يكن استحالة، إثباته.

فى اليوم السابق على عيد الفصح، أرسل يسوع اثنين من تلاميذه - بطرس ويوحنا - من بيت عنيا إلى أورشليم، حيث اتفق مع شخص فى المدينة على أن يعد له حجرة، يستطيع أن يتناول فيها عشاءه الأخير مع تلاميذه، دون أن يزعجه أحد. لقد كان فى حاجة إلى أن يخفى تحركاته، خصوصا أثناء الليل. واتفق كذلك على علامة سرية مع صاحب الحجرة، بحيث يتعرف عليه التلميذان، ويتعرف هو أيضا عليهما. قال لهما يسوع : اذهبا إلى المدينة

فيلاقيكما إنسان حامل جرة ماء اتبعاه، وحينما يدخل فقولا لرب البيت إن المعلم يقول أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذى، فهو يريكما علّيةً كبيرة مفروشة معدة، هناك أعدا لنا[١]. ونفذ التلميذان تعليمات معلمهما.. فقد تبعا الرجل حامل الجرة، ووجها السؤال لصاحب البيت، فقادهما إلى حجرة علوية واسعة، وهناك أعد التلميذان الطعام. لم تكن وجبة عيد الفصح اليهودى. على أنه لايوجد هناك أدنى شك فى صحة كلمات يسوع عندما أشار إليها، وهو يحدث تلاميذه، على أنها «هذا الفصح» فقد كان - حقا - يرسى دعائم عيد جديد.. عيد رمزى مقدس.

قال يسوع، بعد أن اتكأ هو والإثنا عشر رسولا معه : « بشهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم لأنى أقول لكم إنى لا آكل منه بعد حتى يكمل فى ملكوت الله»[٢]. ثم تناول يسوع كأسا وشكر وأعطاها لهم لكى يقتسموها بينهم معلنا أنه لن يشرب من نتاج الكرمة حتى يأتى ملكوت الله. وأخذ خبزا وشكر « وكسر وأعطاهم قائلا هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم، اصنعوا هذا لذكرى. وكذلك الكأس أيضا بعد العشاء قائلا هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى الذى يسفك عنكم»[٣]. وهكذا، فى نهاية العشاء، أصبح للخبز والخمر معنى رمزيا عميقا بالنسبة ليسوع.. إنهما رمز لجسده ودمه، اللذين لابد أن يضحى بهما لكى يحل ملكوت الله. لابد أن يكون هو الأضحية، وبدمه يضمن بداية عهد جديد بين المخلوق وخالقه.

وبينما هم يأكلون فاجأ يسوع تلاميذه بقوله : «الحق أقول لكم إن واحدا منكم يسلمنى». وبدأ كل واحد منهم يسأل فى دهشة :هل هو أنا؟ والحقيقة، أنه لاطائل من وراء السؤال، فلقد حدد يسوع بنفسه ذلك الرجل

---

(١) مرقص ١٤ : ١٣-١٥.
(٢) لوقا ٢٢ : ١٥-١٦.
(٣) لوقا ٢٢ : ١٩-٢٠.

الذى سيقوم بأصعب مهمة عرفها إنسان، وهى أن يسلم معلمه وسيده لكى يوضع على الصليب، وبذلك يخلق أعظم أسطورة عرفتها البشرية على مدى التاريخ كله: أسطورة المسيح المصلوب.« الذى يغمس معى فى هذه الصفحة هو يسلمنى». قضى الأمر. تم اختيار الشخص الذى عن طريقه يصل قدر يسوع إلى منتهاه، وبذلك تتحقق نبوءات «العهد القديم»، فيما يختص بالمسيح. كان يهوذا هو الذى غمس معه فى نفس الصفحة، وكان من أذكى تلاميذ يسوع وأكثرهم فهما له، ولقد سأله فى الحال :«هل أنا هو ياسيدى. قال له أنت قلت»(١).

هل كانت هذه علامة ليهوذا، لكى يحقق يسوع قدره ؟ هذا احتمال كبير، يؤكده ماجاء فى إنجيل «يوحنا»، عندما قال يسوع لتلاميذه إن ذلك الذى سيسلمه هو « ذاك الذى أغمس أنا اللقمة وأعطيه. فغمس اللقمة وأعطاها ليهوذا سمعان الإسخريوطى»(٢). لقد كان إعطاء اللقمة ليهوذا أمرا واجب التنفيذ، وماكان على التلميذ أن يعصى سيده، خصوصا وأن كلمات يسوع كانت قاطعة باترة: «ماأنت تعمله فأعمله بأكثر سرعة». كان عليه أن يتحرك، وقد بدا كأنه قد فقد إرادته وأصبح مجرد أداة طيعة فى يد معلمه. فما أن أخذ اللقمة «الأمر» حتى خرج فى الحال. عندها هلل يسوع فى نشوة نصره. لقد سيطر على أداته وحقق إرادته: «فذاك لما أخذ اللقمة خرج للوقت، وكان ليلا، فلما خرج قال يسوع الآن تمجد ابن الإنسان وتمجد الله فيه»(٣). هل كان من الممكن أن يتمجد ابن الإنسان، ويتمجد الله فيه - دون يهوذا ؟؟!!.

ربما كان يهوذا أصدق وأشجع كل التلاميذ وأكثرهم فهما لسيده،

---

(١) متى ٢٦ : ٢٥.
(٢) يوحنا ١٣ : ٢٦.
(٣) يوحنا ١٣ : ٣٠ . ٣١.

فلقد دفع هو نفسه - فى شجاعة نادرة - حياته ثمنا، لكى يصل يسوع إلى الصليب ويموت كمسيح - حمل الله فى عيد فصحه - «مكفرا عن خطايا البشر». أية خيانة هنا ؟؟ هل باع يهوذا«يسوع» من أجل ثلاثين قطعة من الفضة؟ يقول «متى» فى إنجيله : «حينئذ ذهب واحد من الإثنى عشر الذى يدعى يهوذا الإسخريوطى إلى رؤساء الكهنة وقال ماذا تريدون أن تعطونى وأنا أسلمه إليكم، فجعلوا له ثلاثين من الفضة»(١). الفضة إذن - طبقاً لرواية متى - هى التى أغرت يهوذا لكى يخون سيده ومعلمه، ويبيع دمه ... ثلاثين قطعة من الفضة !! ومثل هذا المنطق لايستقيم مع حقيقة الواقع، فقد كان يهوذا هو حامل الصندوق، أى صراف الجماعة، والمختص بكل النواحى المالية: «إذ كان الصندوق مع يهوذا ظنوا أن يسوع قال له اشتر مانحتاج إليه للعيد أو أن يعطى شيئا للفقراء»(٢) ألم يكن من الأسهل والأكثر أمنا وحكمة أن يختلس يهوذا من الصندوق ثلاثين قطعة أو مايزيد، بدلا من أن يحمل فوق رأسه دم سيده، ويصبح خائنا ملعونا إلى آخر الزمن ؟ لقد كانت لديه فرص لاتحصى لكى يختلس مبالغ صغيرة، وبصورة منتظمة، وربما تزيد كثيرا عما عرضه عليه اليهود ثمنا لحياة يسوع. الصفقة - إذن - لاتستقيم مع طبيعة الأشياء، فما باع يهوذا سيده وإنما فعل مافعل «كى تكمل كتب الأنبياء»(٣).

وما يدل على عدم خيانة يهوذا وعلى سلامة موقفه هو أن يسوع لم يستثنه من هؤلاء الذين سيأكلون ويشربون على مائدته وفى ملكوته، على الرغم من أنه كان قد أعلن قبلها مباشرة أن أحدهم سيسلمه. لقد وقعت بين التلاميذ مشادة، أيهم سيكون الأعظم فى ملكوت الله ؟ وحسم يسوع الأمر: «أنتم الذين ثبتوا معى فى تجاربى، وأنا أجعل لكم كما جعل لى أبى ملكوتا،

(٢) متى ٢٦ : ١٤-١٥.
(٢) يوحنا ١٣ : ٢٩.
(٣) متى ٢٦ : ٥٦.

لتأكلوا وتشربوا على مائدتى فى ملكوتى وتجلسوا على كراسى تدينون أسباط إسرائيل الإثنى عشر»[١]. ويؤكد «متى» هذا المعنى، عندما يذكر قول يسوع لتلاميذه: «الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتمونى فى التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسى عرشه تجلسون أنتم أيضا على اثنى عشر كرسيا تدينون أسباط إسرائيل الإثنى عشر»[٢]. وهذا معناه أن يهوذا سيكون بين الإثنى عشر، ولم يستثنه يسوع، وإلا فكيف يجلس الأحد عشر على الكراسى الإثنى عشر ؟ !

وحتى قبل أن يوضع يسوع على الصليب، أسرع يهوذا بشجاعة فذة، وواجه الموت، لكى يكون فى استقبال معلمه وسيده، على أبواب ملكوت الله. لم يتردد لحظة، بل «مضى وخنق نفسه»[٣]. هل توفرت هذه الشجاعة لأى من الحواريين ؟ لقد هربوا جميعا عندما قبض على يسوع. تركوا سيدهم وفروا. حتى بطرس، الصخرة التى قال يسوع إنه سيقيم عليها كنيسته، أنكر سيده ثلاثا رغم تأكيده أنه لن يتخلى عنه أبدا، ولو اضطر إلى أن يموت معه.

لقد كان سلوك يهوذا سلوكا بطوليا، إذ لولاه ماتحولت الأسطورة المسيحية من مجرد كلمات إلى واقع حتمى فرض وجوده على الدنيا كلها.. ولولاه لعاش يسوع حتى آخر أيامه ومات مجهولا لايعرفه أحد، كعشرات الأنبياء فى تاريخ بنى إسرائيل.. ولولاه ماكان هناك صلب أو مسيح. إن يهوذا هو أهم ثانى رجل فى تاريخ المسيحية كلها.

قبل أن يُسلِّم يسوع، وبعد انتهاء العشاء الأخير، ترنموا بأحد المزامير، ربما بذلك المزمور الذى كان كثيرا مايسيطر على فكر يسوع وهو يخوض فى بحر الجدل مع خصومه داخل الهيكل :« أحمدك لأنك استجبت لى وصرت

---

(١) لوقا ٢٢ : ٢٨-٣٠.

(٢) متى ١٩ : ٢٨.

(٣) متى ٢٧ : ٥.

لى خلاصا، الحجر الذى رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية، من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا، هذا هو اليوم الذى صنعه الرب، نبتهج ونفرح فيه. آه يارب خلص، آه يارب أنقذ. مبارك الآتى باسم الرب. باركناكم من بيت الرب، الرب هو الله وقد أنار لنا. أوثقوا الذبيحة بربطٍ إلى قرون المذبح»(١).

وفى الطريق إلى جبل الزيتون - ولم يلحظ أى من التلاميذ غياب يهوذا - قال لهم يسوع : هذه الليلة كلكم تشكون فى لأنه مكتوب «أنى أضرب الراعى فتتبدد خراف الرعية». طلب من بطرس أن يشد من عضد إخوانه وأخبره أنه قد صلى من أجله لكى لايتزعزع إيمانه. أجاب سمعان بطرس قائلا :«يارب إنى مستعد أن أمضى معك حتى السجن وإلى الموت، فقال أقول لك يابطرس لايصيح الديك اليوم قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفنى»(٢) وأكد له بطرس أنه لن ينكره أبدا حتى ولو مات معه. وهكذا قال أيضا كل التلاميذ.

وعندما وصلوا إلى ضيعة جثسيمانى، سأل يسوع تلاميذه عما يملكون من سلاح، فالموقف حرج، وقد يضطروا للدفاع عن أنفسهم، قال لهم :«حين أرسلتكم بلا كيس ولامزود ولا أحذية هل أعوزكم شئ فقالوا لا، فقال لهم لكن الآن من ليس له كيس فليأخذه ومزود كذلك، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا»(٣). وهذا التحول يبدو مفاجئا وغريبا فى سلوك يسوع ودعوته التى تقوم فى جوهرها على المحبة والتعاطف والتسامح : من صفعك على خدك الأيمن أدر له الأيسر أيضا.. وسامحوا سبعين سبعا.. إلى آخر ماقاله من كلام فى هذا المجال، وفاضت به صفحات الأناجيل.

---

(١) مزامير ١١٨ : ٢١-٢٧.
(٢) لوقا ٢٢ : ٣٣-٣٤.
(٣) لوقا ٢٢ : ٣٥-٣٦.

أجاب تلاميذه على سؤاله بأن معهم سيفين «قالوا يارب هو ذا هنا سيفان فقال لهم يكفى»(١). ويدعى البعض - لكى يؤكدوا صورة يسوع الداعية إلى الوداعة والسلام - أن السيوف لم تكن سيوفا حقيقية، بل كانت سيوفا روحية، وهذا بالطبع ادعاء غير مقنع، فمن العبث أن نقول إن يسوع قد طلب من تلاميذ أن يبيعوا ثيابهم لكى يشتروا سيوفا روحية.. ومن المضحك أن نقول إن أحد تلاميذ يسوع قد ضرب عبد رئيس الكهنة - عند القبض على يسوع - وقطع أذنه بسيف روحى .

يقول «لوقا» إن يسوع خرج كعادته، ومضى إلى جبل الزيتون، وتبعه تلاميذه. هناك ابتعد عن تلاميذه قليلا، بعد أن طلب منهم أن يمكثوا فى المكان وأن يسهروا، وابتدأ وحده يصلى. كانت نفسه حزينة حتى الموت، خر على الأرض وابتهل «لكى تعبر عنه الساعة إن أمكن، وقال ياأبا الآب كل شئ مستطاع لك، فأجز عنى هذه الكأس، ولكن ليكن لا ماأريد أنا بل ماتريد أنت»(٢). جاء إلى تلاميذه فوجدهم نياما، رغم أنه طلب منهم أن يسهروا، فأيقظهم، وقال لهم: «اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة». عاد واستغرق فى صلاته، ثم رجع إلى تلاميذه ثانية وثالثة، كانت أعينهم ثقيلة، قال لهم فى يأس مستسلم: «ناموا الآن واستريحوا، يكفى. قد أتت الساعة، هو ذا ابن الإنسان يسلم إلى أيدى الخطاة»(٣).

كان وحيدا حقا، فقد نام الكل من حوله. لم يكن هناك من يحذره من اقتراب أعدائه، لكنه رأى ضوء المشاعل فى الظلام، وسمع الأصوات. لقد حانت الساعة فعلا، ولامفر: الآن يسلم ابن الإنسان إلى أيدى الخطاه.

---

(١) لوقا ٢٢ : ٣٨.

(٢) مرقص ١٤ : ٣٥-٣٦.

(٣) مرقص ١٤ : ٤١.

ظهر يهوذا على رأس مجموعة تحمل السيوف والعصى.. تقدم مباشرة إلى يسوع ونطق كلمة واحده : «سيدى»، ثم قبله. وكانت هذه علامة متفق عليها بين يهوذا ومن معه، عندها أحاطوا بيسوع وقبضوا عليه. قال يسوع – للقائد والجند وخدام اليهود الذين أتوا للقبض عليه : – «كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصى إذ كنت معكم كل يوم فى الهيكل لم تمدوا على الأيادى، ولكن هذه ساعتكم وسلطان الظلمة»(١).

حاول بعض تلاميذ يسوع الدفاع عنه، قالوا: أنضرب بالسيف ؟ ودون انتظار لإجابة يسوع، كان أحدهم قد ضرب عبد رئيس الكهنة بأحد السيفين، فقطع أذنه اليمنى. ورأى يسوع أن المقاومة غير مجدية ولاطائل من ورائها، فجند الرومان وخدم الكهنة، كثرة مسلحة ومدربة. كان يدرك أن مقاومة تلاميذه الناعسين المنهكين، معناها الهلاك لهم جميعا. هنا قال يسوع لتلميذه، الذى قطع أذن عبد رئيس الكهنة :« رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون. أتظن أنى لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبى فيقدم لى أكثر من اثنى عشر جيشا من الملائكة. فكيف تكمل الكتب أنه هكذا ينبغى أن يكون»(٢). وعندئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا.

شاب واحد فقط – مجهول الاسم – حاول أن يظل إلى جانب يسوع، ومن المحتمل أن يكون هذا الشاب هو يوحنا مرقص نفسه، الذى كتب – فيما بعد – الإنجيل الوحيد الذى يسجل حضوره. ربما أقيم العشاء الأخير فى بيت أمه، ومن الممكن أن نفترض أن يوحنا مرقص – وقد كان صبيا آنذاك – قد استيقظ من نومه على صوت التراتيل ورأى يسوع يقود تلاميذه، خارجا فى الليل، فتملكه حب الاستطلاع، فوضع على جسده إزارا وتبعهم، حيث

---

(١) لوقا ٢٢ : ٥٢ - ٥٣.

(٢) متى ٢٦ : ٥٣ - ٥٤.

راقب واستمع إلى ابتهالات يسوع فى الحديقة، كما شاهد القبض عليه، وهروب تلاميذه - فتبعه هو. لكن عندما أمسك به الحرس، خانته شجاعته وهرب عريانا، بعد أن ترك الإزار فى أيديهم :« فتركه الجميع وهربوا، وتبعه شاب لابسا إزارا على عريه فأمسكه الشبان فترك الإزار وهرب منهم عريانا(١)».

إقتاد الحرس «يسوع» إلى بيت «قيافا»، رئيس الكهنة، حيث اجتمع الكتبة والشيوخ، وقد وضعوه فى حجرة تطل على فناء واسع، به نار موقدة. ولكى يسلوا أنفسهم وهم يجلدونه وضع آسروه على عينيه غمامة، وبدأوا يضربون وجهه، ويطلبون منه فى سخرية أن يتنبأ بمن ضربه، « وأشياء أخرى كثيرة كانوا يقولون عليه مجدفين». فى نفس الوقت، استعاد بطرس شجاعته، شق طريقه فى جرأة إلى الفناء، وجلس بين جماعة الخدم الملتفين حول النار. ومن المكان الذى جلس فيه، كان يستطيع رؤية سيده فى الحجرة المضاءة، ويستطيع سيده أن يرى وجهه فى ضوء لهب المدفأة. وفجأة لمحته جارية، حملقت فيه، تذكرت وجهه، لقد رأته من قبل فى الهيكل مع يسوع.

صاحت : «هذا كان معه»، وفى الصمت الذى ساد، كان باستطاعة يسوع أن يسمع صوت بطرس وهو ينكره، قائلا: « لست أعرفه يا امرأة». ولم يمر سوى وقت قليل، حتى رآه آخر وقال له : «وأنت منهم»، فأنكر بطرس ثانية، وهو يقول: «يا إنسان لست أنا». وبعد قرابة ساعة، استعاد بطرس شعوره بالأمان، وبدأ يتحدث إلى الخدم، إلا أن لهجته الجليلية قد خانته وكان تعليق أحد الحضور : أنت جليلى أنت أيضا كنت معه. وللمرة الثالثة ينكر بطرس سيده، ويكون رده : «ياإنسان لست أعرف ماتقول».(٢) التفت يسوع ونظر إليه، وصاح الديك، واندفع بطرس إلى خارج ثم انفجر فى البكاء.

كانت خطة أعداء يسوع هى أن يدينوه باعترافاته وبشهادة الشهود،

---

(١) مرقص ١٤ : ٥٠-٥٢.

(٢) لوقا ٢٢ : ٥٦-٦١.

ويوجهوا إليه تهمة الكفر والتمرد على الديانة الموسوية، ثم يصدروا عليه حكمهم بالموت، طبقا للشريعة، ولايتبقى بعد ذلك إلا الحصول على تصديق بيلاطس بالإدانة وتنفيذ الحكم.

كانت السلطة الكهنوتية كلها آنذاك فى يد «حنانيا»، ومن المحتمل أن يكون الحكم بالقبض على يسوع قد صدر منه هو نفسه، وعلى ذلك فقد توجهوا بيسوع أولا إلى هذه الشخصية القوية المسيطرة، على الرغم من أنه لم يكن رسميا رئيس الكهنة. سأله حنانيا عن تلاميذه وعن تعليمه، وبكبرياء لائق ومناسب للموقف، رفض يسوع أن يدخل فى شروح مطولة، أشار على «حنانيا» أن يرجع إلى تعاليمه، وكلها عامة ومعروفة.. إنه لم يقل فى السر مالم يقله فى العلن.. وطلب من رئيس الكهنة السابق - لو رغب - أن يسأل أولئك الذين كانوا يستمعون إليه.

كانت الإجابة طبيعية تماما، لكن الاحترام المبالغ فيه، الذى كان الكاهن العجوز يحيط نفسه به، جعلها تبدو على قدر كبير من الجرأة، مما دفع أحد الخدم إلى لطم يسوع على وجهه، قائلا : «أهكذا تجاوب رئيس الكهنة. أجابه يسوع إن كنت تكلمت رديا فاشهد على الردى وإن حسنا فلماذا تضربنى»(١).

لم يكن حنانياً يملك سلطة النطق بالحكم، على الرغم من أنه هو الذى دبر كل شئ، وعلى ذلك فقد أرسله لزوج ابنته، قيافا، ذلك الذى كان يحمل اللقب الرسمى، كرئيس للكهنة، وكان مجرد ألعوبة فى يد أب زوجته.

وفى الفجر اجتمع «السنهدرين» فى بيت قيافا، وبدأت المحاكمة بعد أن تم إعداد مجموعة من الشهود. وكانت العبارة المدمرة التى كان يسوع قد

---

(١) يوحنا : ١٨ : ٢٣.

نطق بها حقا، هى: إننى قادر على أن أنقض هذا الهيكل، وفى ثلاثة أيام أقيمه. وعلى الرغم من اختلاف شهادة الشهود، فإن يسوع ظل صامتا لاينطق . لقد رفض أن يشرح معنى العبارة التى أدين بسببها، وكان يعلم حق العلم أنه طبقا للشريعة اليهودية كان أى تجديف أو كفر بالهيكل إنما يعتبر تجديفا وكفرا بالله.

وقام رئيس الكهنة فى الوسط، وسأل يسوع، قائلا : أما تجيب بشئ ؟ وظل يسوع صامتا ولم يجب . هنا سأله رئيس الكهنة فجأة، وكان يهوذا قد باح له بسر يسوع : أأنت المسيح المبارك ؟

فقال يسوع «أنا هو، وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة وآتيا فى سحاب السماء».

اعترف يسوع - إذن - أنه هو المسيح... أعلن أمام الجميع أن حكم السماء على وشك الحلول. لقد قرر أن يموت. ومزق رئيس الكهنة ثيابه، وقال :«ماحاجتنا إلى شهود قد سمعتم التجديف مارأيكم»[١]. وحكم عليه الجميع بالموت.

ومع أنه لم يكن من حق السنهدرين تنفيذ الحكم بالموت فإن يسوع منذ تلك اللحظة أصبح مدانا ومعرضا لسوء معاملة الخدم، الذين لم يتركوا وسيلة لإهانته إلا اتبعوها، «فابتدأ قوم يبصقون عليه ويغطون وجهه ويلكمونه ويقولون له تنبأ، وكان الخدام يلطمونه»[٢].

وفى الصباح اجتمع كبار الكهنة والحكماء مرة أخرى. كان الهدف هو أن يحصلوا على تصديق بيلاطس على الحكم بإدانة يسوع، حيث إنه منذ الاحتلال الرومانى، لم يكن حكمهم على شخص بالموت كافيا لتنفيذ

---

(١) مرقص ١٤ : ٥٨ - ٦٤.
(٢) مرقص ١٤ : ٦٥.

الحكم، بل كان لابد من موافقة الحاكم لكى يأخذ الحكم مجراه ويصبح واجب التنفيذ.

قيدوا يسوع وأرسلوه إلى بيلاطس، وذهب معه كل أعضاء السنهدرين. كان ذلك فى صباح الجمعة (١٤نيسان :٣ إبريل). ورفض قادة اليهود الدخول إلى ساحة المحكمة لكى لايتدنسوا، وبذلك يستحيل عليهم الاشتراك فى العيد المقدس (الفصح)، وإنما ظلوا بالخارج. وعندما علم بحضورهم خرج إليهم، وكانت ساحة القضاء تقع فى الهواء الطلق، وما كادوا يخبرونه بالتهمة، حتى أبدى ضيقه من الاشتراك فى مثل هذه القضية. بعدها اختلى بيسوع داخل قاعة المحكمة، ودار بينهما حديث، لكن لايوجد إثبات لما قيل، فلم يكن هناك شهود ليخبروا الحواريين بالتفاصيل.

لم يكن بيلاطس يحب اليهود، ولم يكن يكترث بمنازعاتهم الداخلية، فقد كانت - من وجهة نظره - نتيجة خيال مريض وعقول مختلة. وكان اليهود يمقتونه، ويعتبرونه قاسيا ومتكبرا ومندفعا، كما اتهموه بارتكاب جرائم غير محتملة. على أن تاريخ بيلاطس، يثبت أنه كان إداريا جيدا. حقيقة، إنه فى بداية حكمه واجه صعابا جمة من رعيته، قضى عليها بطريقة وحشية، لكن يبدو أنه كان على صواب، إذ بدا له اليهود كشعب بدائى متخلف.

على أية حال، استاء بيلاطس إلى حد كبير، عندما وجد نفسه مدفوعا إلى الاشتراك فى أمر لايروق له، ومن أجل شريعة يكرهها.

كانت تتملكه الرغبة فى أن ينقذ يسوع .. ربما أثر فيه المتهم بهدوئه ورباطة جأشه، واحتفاظه بكرامته. كما أن يسوع - دون أن يدرى - وجد له سندا فى زوجة بيلاطس نفسه، التى أكدت لزوجها أنها رأته فى حلم أثار فزعها.. ربما رأت ذلك الجليلى الرقيق من أحد نوافذ القصر المطلة على الهيكل.. وربما رأته ثانية فى أحلامها.. وربما كانت فكرة أن دم ذلك الشاب

الجميل على وشك أن يراق سببا لذلك الكابوس، لهذا أرسلت زوجة بيلاطس إليه، وهو جالس على كرسى الولاية، تقول:« إياك وذلك البار، لأنى تألمت اليوم كثيرا فى حلم من أجله»(١).

ومن المؤكد أن يسوع وجد بيلاطس فى موقف غير عدائى، إن لم يكن متعاطفا معه. كان الحاكم يستجوبه فى لطف، وقد تملكته الرغبة فى أن يجد سببا للعفو عنه، وقد استشف فيه نبلا يميزه عن بقية اليهود، وهو يقف أمامه فى صمت مهيب.

كان لقب «ملك اليهود»، الذى لم يطلقه يسوع على نفسه، هو المحور الرئيسى، الذى أقام عليه أعداؤه كل ادعاءاتهم أمام الحاكم، لكى يثيروا شكوك السلطة الرومانية، ولقد اتهموه - وعلى هذا الأساس - بالتحريض على الفتنة، وخيانة الحكومة، وادعوا أنه يدعو إلى عدم دفع الجزية لقيصر. ولم يكن هناك ماهو أكثر ظلما، لقد اعترف يسوع دائما بالحكومة الرومانية كسلطة قائمة.

سأله بيلاطس عما إذا كان هو حقا ملك اليهود ؟!

أجابه يسوع :«أمن ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عنى. قال له بيلاطس ألعلى أنا يهودى. أمتك ورؤساء الكهنة أسلموك إلى. ماذا فعلت. أجاب يسوع مملكتى ليست من هذا العالم... فقال له بيلاطس أفأنت إذن ملك، أجاب يسوع أنت تقول إنى ملك، لهذا قد ولدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق»(٢).

لم يخف يسوع شيئا من أفكاره، إلا أن غموض أسلوبه فى الكلام - ذلك كان مصدراً من مصادر قوته فى حياته، ومؤسسا لمملكته بعد موته -

---

(١) متى ٢٧ : ١٩.

(٢) يوحنا ١٨ : ٣٤-٣٧.

أساء إليه فى هذه المناسبة. كانت كلماته كسلاح ذى حدين، لأنها لم تفرق بين ماهو روحى وماهو مادى، ولم تكن لترضى السلطة الدنيوية. ويروى «يوحنا» فى إنجيله : اعترف يسوع صراحة بنبل مولده ومقصده، مفصحا عن طبيعة مملكته، ومعلنا أنها تتحقق باعتناق الحق وإعلانه والعمل به، على حين لم يكترث بيلاطس بهذه المثالية الرائعة، وربما لم يفهم منها شيئا، بيد أن يسوع بدا له - دون شك - حالما، لاخطر منه.

ولكى يوفق بين مشاعره، وبين مطالب الكهنة والشعب المتعصب، وجد بيلاطس مخرجا فى عادة الإفراج عن سجين فى عيد الفصح. كان يعرف أن يسوع قد قبض عليه نتيجة لغيرة الكهنة وحقدهم، لذا فقد رأى أن يستغل هذه العادة فى صالحه، إذ خرج ثانية، واقترح على الجماهير إطلاق سراح «ملك اليهود». قال لهم :«أنا لست أجد فيه علة واحدة، ولكم عادة أن أطلق لكم واحدا فى عيد الفصح، أفتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود»[1]. وأحس الكهنة بالخطر المحدق، وكان رد فعلهم مباشرا، فقد طلبوا من الجموع المحتشدة أن تطالب بالأفراج عن شخصية مشهورة فى أورشليم - رجل إسمه باراباس Bar-Abba ، كان قد قبض عليه لاشتراكه فى أحد الاضطرابات التى تمت فيها جريمة قتل، أما إنجيل «يوحنا» فيصفه بأنه كان لصا. وتعالى صياح الجموع المحتشدة : ليس هذا، بل باراباس. ووجد بيلاطس نفسه مضطرا للإفراج عن باراباس.

لكن بيلاطس كان لايزال مترددا فى إراقة دم يسوع، لكى يرضى أناسا يكرههم، لذا قرر - بشئ من المزاح - اعتبار موضوع «ملك اليهود» مجرد فكاهة، وتظاهر بالسخرية من اللقب الأجوف، فأمر بجلد يسوع. كان الجلد عادة هو المقدمة للصلب على أن بيلاطس كان يتمنى أن يكون هذا العقاب كافيا، وينتهى كل شئ.. ربما كان يود إشباع كراهية اليهود وحقدهم، ثم

(١) يوحنا ١٨ : ٣٨-٣٩.

ينتهى الأمر عند هذا الحد، ولو فرض أن هذه الفكرة، كانت فكرته فعلا، فإنها لم تكن ناجحه.

لقد ازداد الصياح وتحول إلى شغب، أصلبه.. أصلبه.. تعالت الصيحات من كل جانب.. وأعلن الكهنة أن الشريعة فى خطر إن لم يمت يسوع.

حاول بيلاطس أن يكسب بعض الوقت. وتقول إحدى الروايات إنه عندما علم أن يسوع جليلى، قرر أن يرسله إلى هيرودس أنتيباس حاكم الجليل، الذى تصادف وجوده فى أورشليم. وربما كانت فرصة لبيلاطس لكى يحسن علاقته بهيرودس، تلك التى كانت - آنذاك - تتسم بالجفاء. وكان هيرودس، مندفعا بقوة فضوله، يود رؤية هذا النبى، منذ أن سمع عنه بعد قتله ليوحنا، إذ كانت تقلقه فكرة أن يسوع هو يوحنا، وقد قام من بين الموتى. والآن، هاهو ذا يرى يسوع واقفا أمامه يحيط به كبار الكهنة والكتبة، ويكيلون له الاتهامات. سأله هيرودس عن معجزاته وقواه الخارقة، ولم يحر يسوع جوابا. استخف به هيرودس وحاشيته، فسخروا منه وأعادوه إلى بيلاطس. لقد اتخذ هيرودس أنتيباس نفس موقف بيلاطس، إن ملك اليهود هذا لايمكن أن يعامل - بجدية - على أنه ثورى وخارج على القانون. وربما تملك هيرودس الإحساس بأنه يجب عليه ألا يريق دم نبى آخر، ويتحمل وزره. ولم يشارك يسوع - ولو بكلمة - فى كل هذه المحاولات لإنقاذه، بل ظل - كعهده - صامتا، محتفظا بوقاره وكرامته، مما أثار دهشة بيلاطس.

تزايد الصياح، وبدأ الكهنة يعلنون أن الحاكم يحمى عدو القيصر. هكذا تحول أعداء الحكم الرومانى إلى رعايا مخلصين للقيصر تايبيريوس Tiberius. وكان من الممكن أن يصل بهم الأمر إلى توجيه تهمة الخيانة إلى بيلاطس : لاملك لنا إلا القيصر، إن أعطيت هذا الرجل حريته فأنت لست صديقا للقيصر، كل من يعلن نفسه ملكا عدو للقيصر.

وخضع بيلاطس، ضعف أمامهم، وتصور التقرير الذى يمكن أن يرسلوه إلى روما وقد اتهموه فيه بحماية ملك غير تاييريوس • إستسلم وخضع، ملقيا بمسئولية مايحدث عليهم « أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلا إنى برئ من دم هذا البار، أبصروا أنتم»(١) •

وقبل اليهود تحمل المسئولية صائحين :دمه علينا وعلى أولادنا. هكذا أجاب جميع الشعب•

حقاً، لم يصدر بيلاطس، أو تاييريوس حكما بإعدام يسوع، إنما الذى أصدر الحكم هو الحزب اليهودى الصدوقى العتيق.. إنها الشريعة الموسوية. كان الموت – من وجهة نظرهم – قانونيا لأنه تطبيق لشريعة تعتبر روح الأمة وجوهر وجودها• إن القانون الموسوى ينص على أن الموت هو العقاب، لكل من يحاول مس العقيدة أو الخروج عليها أو تغييرها، ولاشك أن يسوع قد حاول ذلك، لذا كان من الحتمى أن يصدر الحكم بالموت•

هنا قد يتداعى إلى الذهن سؤال : لماذا انقلبت الجماهير – هكذا فجأة – ضد يسوع، على الرغم من أنها نفس الجماهير التى استقبلته عند دخوله أورشليم، والتى كانت تستمع إليه فى الهيكل فى ابتهاج ومسرة؟ ربما تكون الإجابة شديدة البساطة، شديدة الوضوح : لايمكن للرعاع أن يروا نبيا فى الأغلال، ويظلوا على اعتقادهم أنه نبى• لم يعودوا يرون الهالة التى كانت تحيط به وهو يجادل الكهنة فى الهيكل ويتعامل معهم فى شموخ. لم يروا فيه – فى تلك اللحظة – إلا الأسير الصامت، المهان، الضعيف. على أن هناك سببا أشد وأقوى وهو أن الجماهير قد عرفت بعد القبض عليه، أنه يدعى أنه المسيح الملك، ذلك القوى القادم من فوق السحاب، والذى بشر بمقدمه يوحنا المعمدان. لقد علموا بهذا، فى نفس اللحظة التى ظهر فيها أمامهم

---

(١) متى ٢٧ : ٢٤•

أسيرا مجرما. وفى وقفته الصامتة، بدا يسوع - لرجل الشارع اليهودى - كتجسيد للكفر.

ثم فجأة، حدث مشهد مقزز ومثير للاشمئزاز، فقد ألبس الجنود يسوع رداء قرمزيا، ووضعوا على رأسه تاج شوك، وفى يده قصبة، ثم اقتادوه فى مواجهة الجماهير الصاخبة.. مروا من أمامه، كل - بدوره - يسجد فى سخرية، ثم يضربه وهو يصيح: مرحبا ياملك اليهود. ويقال إن آخرين بصقوا عليه وضربوه بالقصبة على رأسه. ومن الصعب أن نفهم كيف انحدرت الكرامة الرومانية إلى هذا الحد المشين ؟ ويصور لنا «متى» هذا المنظر تصويرا رائعا ومرعبا عندما يقول: «فأخذ عسكر الوالى يسوع إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة، فعروه وألبسوه رداءً قرمزيا، وضفروا إكليلا من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة فى يمينه، وكانوا يجثون أمامه ويستهزئون به قائلين السلام ياملك اليهود، وبصقوا عليه وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه، وبعد ماستهزأوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب»(١).

خرج العسكر من دار الولاية، وهم يحيطون بيسوع واثنين من اللصوص، يحمل كل منهما صليبه، أما يسوع فقد كان فى حالة من الضعف لاتسمح له بالقدرة على حمل الصليب: «و فيما هم خارجون وجدوا إنسانا قيروانيا اسمه سمعان فسخروه ليحمل صليبه»(٢). حقاً، لم يضع اسم هذا الرجل أو يطويه النسيان، ذلك لأن ولديه - ألكسندرس وروفس - أصبحا فيما بعد عضوين من بين أعضاء الكنيسة القديمة. وتتفق الأناجيل الثلاثة الأولى على هذه الحادثة، أما «يوحنا» فيذكر أن يسوع قد حمل صليبه بنفسه ولم يحمله أحد غيره :

«فأخذوا يسوع ومضوا به، فخرج وهو حامل صليبه إلى الموقع الذى

(١) متى ٢٧ : ٣١.

(٢) متى ٢٧ : ٣٣.

يقال له موضع الجمجمة ويقال له بالعبرية جلجثة حيث صلبوه»(١).

سارت المجموعة حتى وصلت إلى المكان المحدد لتنفيذ الحكم، وهو موضع يقال له: جلجثة، وربما اكتسب اسمه من شكله الذى يشبه الجمجمة ويقع فى شمال المدينة، ومانعرفه عن قصة الصلب يتوقف على شهادة سمعان القيروانى، حامل الصليب، إذ لم يكن هناك أحد من التلاميذ الذين تركوا جميعا سيدهم وفروا، كما أن النساء اللائى تبعنه كن يقفن بعيداً عن المكان الفعلى للصلب. كانت عمليات الإعدام منظرا تتزاحم عليه جماهير الرعاع اليهودية، كما كانت كذلك - فيما بعد - لجماهير الرعاع المسيحية.

ولقد كانت الجماهير غاضبة ومتعطشة لسفك الدم، بعد أن أثار يسوع تعصبها لمعتقداتها. وعلى ذلك، فقد كان من الأفضل أن تبتعد النساء، وأن يختفى التلاميذ كليه، لو كانوا يقيمون وزنا لحياتهم . لكن وجود سمعان القيروانى وفر للكنيسة المسيحية شاهدا على الأحداث الأخيرة : فقد كان مع يسوع أثناء السير، وكان بالقرب منه عند الصلب، وهو بالتأكيد، الذى نقل كلمات يسوع، التى وجهها إلى بنات أورشليم حيث كان فى طريقه إلى النهاية.

لم يكن الجمهور كله عدائيا وعدوانيا، فقد كان بين الجمع نساء يبكين وينتحبن عليه، التفت إليهن يسوع، وقال : «يابنات أورشليم لاتبكين علىّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن لأنه هو ذا أيام تأتى يقال فيها طوبى للعواقر والبطون التى لم تلد والثدى التى لم ترضع حينئذ يبتدئون يقولون للجبال اسقطى علينا وللآكام غطينا، لأنه إن كان بالعود الرطب يفعلون ذلك هذا فماذا يكون باليابس»(٢).

لقد جرد الجند يسوع من ثيابه، واقتسموها بأن اقترعوا عليها، وكان

(١) يوحنا ١٩ : ١٦ : ١٨.
(٢) لوقا ٢٣ : ٢٨ - ٣٢.

سمعان - وهو يعمل مع الجند فى نصب الصليب - يرقب مايفعله الجميع أحدهم قد كان ينزع عن يسوع ثيابه، وآخر يحاول حثه على شرب الخمر الممزوج بالمر، وثالث ينشر ملابسه على الأرض، ورابع يضع الحجارة فى قلنسوة لإجراء القرعة، وخامس يجهز الكلمات التى ستوضع فوق رأسه : هذا هو ملك اليهود، كتبت بثلاث لغات هى العبرية واليونانية واللاتينية. وكان مافيها شيئ مؤلم ومهين.

كانت الساعة الثالثة، بالتوقيت العبرى، عندما دقت المسامير فى يدى وقدمى يسوع، على حين صلب اللصان على جانبيه، واحد عن اليمين وواحد عن اليسار. لم يكن أحد من التلاميذ هناك.

النساء الصادقات المخلصات من أتباعه - كن يقفن بعيدا يبكين، وبينهن وبين الصليب جمهور غاضب بشع يسخر من يسوع وهو على الصليب، يواجه قدره وحده: «ياناقض الهيكل وبانيه فى ثلاثة أيام خلص نفسك. إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب»(١). أما أعضاء السنهدرين الذين حضروا ليشهدوا تنفيذ الحكم، فلم يسكتوا هم أيضا، كانوا يستهزئون وهم يقولون :« خلص آخرين أما نفسه فلم يقدر أن يخلصها، إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به، وقد اتكل على الله فلينقذه الآن إن أراده لأنه قال أنا ابن الله»(٢). حتى المجرمان المصلوبان وجها له السباب أيضا .

فى حوالى الساعة السادسة، غمرت الظلمة وجه الأرض كلها، واستمرت الظلمة حتى الساعة التاسعة(٣)، ست ساعات كاملة ويسوع فى كامل وعيه على الصليب، بعد أن رفض شرب الخمر الممزوج بالمر. لقد

---

(١) متى ٢٧ : ٤٠.

(٢) متى ٢٧ : ٤٢-٤٣.

(٣) بالتوقيت العبري، أي الثالثة بعد الظهر.

رفضت طبيعته المتساميه هذا النوع من العزاء، وفضل أن يترك الحياة وهو متمالك لكل صفاء ذهنه، وأن ينتظر - بوعى كامل - تلك اللحظة التى أرادها واختارها لنفسه. لابد أنه كان يفكر. لابد أنه كان ينتظر. يفكر وينتظر تلك اللحظة التى تفوق الوصف، والتى سيرفع فيها إلى رحاب الله، إلى جوار الأب، الذى وجده وعبده ودعا البشر جميعا إليه، حتى واجه النهاية المريرة، المروعة الرائعة. كان ينتظر اللحظة الحتمية فى مسار قدره، لحظة أن يدعى إلى مقعده عن يمين الله. إنتظر والحياة تتسرب من جسده، ولم يتبق منها سوى مجرد وميض. عندئذ صرخ صرخته العظيمة اليائسة: «إلهى إلهى لماذا تركتنى»[١] إنها نفس الكلمات التى يبدأ بها المزمور الثانى والعشرون: «إلهى إلهى لماذا تركتنى بعيدا عن خلاصى عن كلام زفيرى، إلهى فى النهار أدعو فلاتستجيب وفى الليل أدعو فلاهدو لى»[٢] ربما كانت روحه تفيض بتلك الأنشودة الحزينة، وهو يواجه النهاية الأكثر حزنا.

جرى أحد الحاضرين - بعد أن هزته الصرخة المدوية - وملأ اسفنجة خلا وسقاه، عندها صرخ يسوع بصوت عظيم، وأسلم الروح. كان غريبا أن يموت بتلك السرعة غير المتوقعة، كانت الساعات الست غير كافية لكى يموت رجل على الصليب، لكن الضعف الناتج عن الإنفعال والقلق والتوتر العصبى، كان قد سيطر عليه فى أيامه الأخيرة، لدرجة أنه لم يستطع حمل الصليب. كان جسده يحيا بقوة روحه، وعندما تملك اليأس روحه، فى نفس اللحظة، سيطر الموت على جسده. واعترت الدهشة نفس قائد المائة الواقف مقابله، فقد كان مايحدث أمامه شيئا غريبا ومحيرا:« وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل والأرض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين.. وأما قائد المئة والذين معه

---

(١) مرقص ١٥ : ٣٤.

(٢) مزامير ٢٢ : ١-٢.

يحرسون يسوع فلما رأوا الزلزلة وماكان خافوا جدا وقالوا حقا كان هذا ابن الله(١).

وعلى الرغم من أن الدافع الحقيقى لموت يسوع كان دافعا دينيا خالصا، فإن أعداءه نجحوا فى أن يصوروه أمام الحاكم على أنه متهم بالخيانة ضد الدولة، إذ لم يكن فى استطاعتهم أن يحصلوا على موافقة «بيلاطس» بإدانته على أسس دينية. وتمشيا مع هذه الفكرة، طلب الكهنة - من خلال الجمهور - بصلب يسوع. وهذه العقوبة لم تكن فى الأصل عقوبة يهودية، ولو قام اتهام يسوع على أسس ديانة موسوية خالصة، لتم رجمه، إذ كان الصلب عقوبة رومانية مخصصة للعبيد وللحالات التى يراد فيها التشهير والتحقير إلى الموت.

وعلى ذلك فقد عومل يسوع معاملة اللصوص وقطاع الطرق والأعداء الذين ينظر إليهم باحتقار، ولايرى الرومان منحهم شرف الموت بالسيف.

لقد كان العقاب منصبا على ملك اليهود الوهمى، لاعلى صاحب العقيدة «الهرطقى»، وعلى ذلك، نقد ترك تنفيذ الحكم للجنود الرومان، تحت قيادة قائد مائة وقد استخدموا ضده كل أنواع القسوة، التى تم ذكرها من قبل.

وربما كان السبب الحقيقى للموت السريع، هو اضطراب مخيف فى الدورة الدموية، وغزارة فقدان الدم، وآلام رهيبة فى الرأس والقلب، نتيجة للوضع غير الطبيعى للجسد، وأخيرا تيبس الأطراف. وكان من الممكن لأصحاب الأجساد القوية أن يناموا حتى يموتوا من الجوع فقط، أو من الجوع ونزف الدم معا وهذا يستغرق وقتا طويلا، إذ لم يكن الهدف من هذه العقوبة القاسية هو قتل المذنب مباشرة ، بل التشهير به وتركه يموت فى بطء،

---

(١) متى ٢٧ : ٥١-٥٤.

ويتعفن على الصليب. ويعتقد الكثيرون أنه مات مباشرة بعد أن شرب الخل، إذ كانوا يعتقدون - آنذاك - أن أى مشروب يقدم للمصلوب يعجل بموته. لكن الأكثر احتمالا، هو أن سكتة قلبية فجائية، أو انفجار فى أحد شرايين القلب هو الذى تسبب فى الموت المفاجئ، إذ أن صوته - قبل موته بلحظات - كان لايزال قويا وهو يصيح صيحته المدوية: إلهى إلهى لماذا تركتنى ؟!

وطبقا لما ترويه الأناجيل، فاضت روح يسوع فى الساعة الثالثة بعد الظهر تقريبا. وكان القانون اليهودى يمنع أن تظل الجثة معلقة على الصليب بعد مساء اليوم الذى تم فيه الصلب، ولم تكن هذه بالطبع هى القاعدة فى قوانين الصلب الرومانية التى تنص على أن تظل الجثة على الصليب حتى تتعفن، وربما تأكلها الجوارح. ولأن اليوم التالى كان يوم سبت، وللسبت قدسيته الخاصة، فقد عبر اليهود للمسئولين الرومان عن رغبتهم بألا يدنس هذا اليوم المقدس، بمثل هذا المشهد. وتمت الموافقة على طلبهم، فصدرت الأوامر بالإسراع فى موت المذنبين الثلاثة، وانزال جثثهم من فوق الصلبان. ونفذ الجند الأوامر، بأن طبقوا على اللصين عقوبة ثانية أسرع من عقوبة الصلب، ألا وهى عقوبة تكسير الساقين، ولم تكن هذه العقوبة تطبق إلا فى حالة العبيد وأسرى الحرب. أما يسوع فقد وجدوه ميتا، ورأوا أنه من غير الضرورى تكسير ساقيه، لكن أحدهم أخرق جنبه بحربة، ليتأكد من موته الحقيقى، واعتقدوا أنهم رأوا دما وماء يسيلان من الجسد. وكان هذا فى رأيهم يعتبر علامة على انعدام الحياة.

وطبقا للشريعة اليهودية كذلك كان من الممكن أن يدفن يسوع فى «مقابر المهانة والعار» وهى المقابر المخصصة لدفن هؤلاء الذين يتم إعدامهم، لأنهم بمجرد إعدامهم يعدون نجسا، يجب ألا يقترب منه أحد. ولو لم يكن ليسوع سوى تلاميذه من أهل الجليل الفقراء، لتم دفنه فى تلك المقابر، لكنه، على الرغم من نجاحه الضئيل فى أورشليم، كان قد اكتسب تعاطفا مع

بعض الأشخاص المهمين، الذين كانوا هم أيضا يتنظرون ملكوت الله، والذين ارتبطوا بيسوع، على الرغم من عدم اعترافهم أنهم من تلاميذه.

أحد هؤلاء الأشخاص، كان يوسف الرامانى Joseph of Arimathea الذى ذهب فى المساء إلى بيلاطس لكى يطالب بالجسد. كان يوسف من الأشراف الأغنياء، وعضو فى السنهدرين، وكان القانون الرومانى يبيح تسليم جثة المصلوب لمن يطالب بها.

ولبى بيلاطس طلب يوسف، وتم تسليم الجسد له. صديق آخر ممن اتبعوا يسوع فى السر، هو نيقوديموس، تقدم فى هذه اللحظة، وهو يحمل كمية مناسبة من المواد اللازمة لإعداد الجثة للدفن، حيث تم تضميخ الجسد بالمر والعود - طبقا للعادات اليهودية - ثم لفاه بأكفان من الكتان.

كانت النساء الجليليات يرقبن الموقف. كانت من بينهن: مريم المجدلية، ومريم أم يعقوب، ويوسى، وأم ابنى زبدى. انتهى كل شئ بسرعة كبيرة، إذ كان الوقت متأخرا، ولم يكن تم بعد اختيار المكان الذى سيتم فيه الدفن بصفة نهائية. ولكى لاتستغرق هذه العملية وقتاً طويلاً، مما يؤدى إلى تدنيس السبت المقدس، تم اختيار مكان دفن مؤقت. يقول «يوحنا» إن يسوع قد صلب فى بستان - وهذا بالطبع يناقض ماجاء فى الأناجيل الأخرى - وفى البستان قبر جديد لم يوضع فيه أحد قط «فهناك وضعا يسوع لسبب استعداد اليهود لأن القبر كان قريباً»(١) ودحرج حجر كبير على باب المقبرة، لكى يتم غلقه. لم يكن هناك وقت لإقامة شعائر دفن كاملة، وربما أجلا ذلك إلى يوم الأحد.

ويقرر رينان أن هناك شكوكا بخصوص موت يسوع على الصليب. إن الساعات القليلة التى قضاها يسوع معلقا على الصليب تبدو غير كافية

---

(١) يوحنا ١٩ : ٤٢.

للوصول به إلى مثل هذا الموت السريع. وهناك أمثلة كثيرة لأشخاص تم صلبهم لساعات طويلة وبعد أن أنزلوا من فوق الصليب أمكن إعادتهم إلى الحياة ثانية بعلاج شديد المفعول، ولقد عبر أريجن Origen فيما بعد عن اعتقاده بأن مثل هذا الموت المفاجئ فى حاجة إلى معجزة[١] ونفس الدهشة موجودة فى القصة كما رواها «مرقص»: فتعجب بيلاطس أنه مات هكذا سريعا.

ويتفق مؤلفو كتاب «الدم المقدس...» مع مايقول به «رينان»، بل ويزيدون عليه. إنهم يعتقدون أن عملية الصلب كلها كانت مجرد خدعة يكتنفها الغموض ويعتورها الكثير من المتناقضات. يتساءلون عن سبب موته بعد ساعات قليلة، وهذا مخالف تماما لما يحدث عند الموت على الصليب، الذى قد يستغرق عدة أيام. هل هى الحربة التى غرسها الحارس فى جنبه ؟ بالطبع لا. إن إنجيل «يوحنا» ينص على أن يسوع كان قد مات، قبل أن يطعنه الجندى بالحربة. هل هو الإرهاق والإعياء والضعف، أو ربما الجروح التى سببها الجلد؟ هذه الأسباب مجتمعة - ربما تكون هى التى أدت للموت. لكنهم يدعون أن هناك شك فى العملية كلها. لقد صرخ يسوع صرخته المدوية التى أعلنت عن موته « الظاهرى» فى اللحظة المناسبة جدا، وذلك قبل أن يقوم جلادوه بتكسير ساقيه، ولو أنهم فعلوا لمات فعلا، لكنهم لم يفعلوا، وبذلك أمكن تحقيق نبوءة العهد القديم «يحفظ جميع عظامه، واحد منها لاينكسر»[٢]. كما تم إنقاذ يسوع فى اللحظة المناسبة، بطريقة شديدة الإتقان، لكنها تدعو إلى الشك، إذ لايمكن أن يكون ماحدث مجرد مصادفة.

وفى الإنجيل الرابع، يروى «يوحنا» أن يسوع قد أعلن أنه عطشان.

---

(١) رينان، ص ٢٨٨.

(٢) مزامير ٣٤ : ٢٠

واستجابة لذلك تقدم له إسفنجة «يقال» إنها مغموسة فى الخل، وهذا مذكور أيضا فى بقية الأناجيل. ويفسر مؤلفو «الدم المقدس» هذا الحدث بأنه تم عن قصد لإنقاذ يسوع، مدعين أن الخل أو الخمر الحامض إنما يستخدم كمنشط مؤقت. وبالنسبة لشخص مرهق مجروح، فإن شم الخل أو لحسه يكون له تأثير كبير فى استعادة الوعى واسترجاع الطاقة الحيوية فى الجسد. ورغم ذلك، ففى حالة يسوع كان التأثير عكسياً: بعد أن تصل الإسفنجة المغموسة فى الخل إلى شفتيه مباشرة، يصرخ صرخته الأخيرة « ويسلم الروح، وهذا رد فعل لرائحة الخل لايمكن تفسيره فسيولوجيا»، ويدعى هؤلاء المؤلفون أن الإسفنجة لم تغمس فى الخل، لكن ربما غمست فى مخدر منوم، خليط من الأفيون والبلادونه على سبيل المثال. إن عملية الصلب، من وجهة نظرهم كانت تطبيقا لخطة معقدة وشديدة الإحكام، وهى خطة مرسومة بحيث تظهر الضحية، وكأنه قد مات فعلا، على حين أنه لايزال على قيد الحياة.

ويواصل هؤلاء المؤلفون ادعاءاتهم، عندما يقررون أن هناك عناصر أخرى فى عملية الصلب تشير إلى نفس الاستراتيجية، إذ ينص إنجيل «يوحنا» على أن يسوع قد صلب فى موضع فيه بستان، وفى البستان قبر لم يدفن فيه أحد قط. وهذا معناه أن يسوع لم يصلب فوق تل قاحل، أو فى أى مكان عام للإعدام. لقد صلب فى - أو بالقرب مباشرة من - حديقة بها مقبرة خاصة. وطبقا لما جاء فى إنجيل «متى» كانت الحديقة والمقبرة ملكا ليوسف الراماتى[1] وهذا معناه أن عملية الصلب كانت تقام على ممتلكات خاصة، شاهدها أغلب الناس بما فيهم النساء عن بعد :« وكان جميع معارفه ونساء كن قد تبعنه من الجليل واقفين من بعيد ينظرون ذلك»[2].

ويصل المؤلفون الثلاثة، بناء على ذلك، إلى استنتاج خاص بهم وهو :

---

(٢) متى ٢٧ : ٦٠.

(٣) لوقا ٢٣ : ٤٩.

أن عملية صلب خاصة، تقام على ممتلكات خاصة، تتيح الفرصة للخداع، وتصبح عملية الصلب مجرد طقوس تمثيلية لايشهدها إلا القليل من الحضور، أما عامة الناس فقد شهدوا «المسرحية» من بعيد. وبالطبع، لايمكن أن يعرف من ذلك الذى صلب، وإن كان قد مات حقا أم لم يمت. مثل هذه « التمثيلية» من وجهة نظر المؤلفين الثلاثة – تتطلب تواطؤ وتستر بيلاطس أو أى شخص له نفوذ كبير فى الإدارة الرومانية. ومثل هذا التواطؤ والتستر محتمل بدرجة كبيرة، إذ أنه من المسلم به أن بيلاطس كان طاغية شديد القسوة، غير أنه أيضا كان فاسدا، ولايتورع عن قبول الرشوة.

ويواصل الكتاب الثلاثة شرح وجهة نظرهم، بقولهم. إنه فى الترجمة الإنجليزية لإنجيل «مرقص» يطلب يوسف من بيلاطس جسد يسوع، ويبدى بيلاطس دهشته لموت يسوع هكذا سريعا، ثم يستفسر من قائد مائة، وبعد أن يقتنع برأى القائد يوافق على طلب يوسف. وللوهلة الأولى يبدو هذا السلوك سليما ومستقيما، لكن فى الأصل اليونانى، عندما يطلب يوسف جسد يسوع فإنه يستخدم كلمة Soma وهى كلمة لاتطلق إلا على الجسد الحى، وعندما يوافق بيلاطس على طلبه يستخدم كلمة ptoma ومعناها «جثة». وطبقا للنسخة اليونانية – إذن – فإن يوسف يطلب بوضوح جسدا حيا، ويمنحه بيلاطس مايظن – أو يتظاهر أنه يظن – أنه جسد ميت. ومن الغرابة بمكان أن يطالب يوسف بالجسد على وجه الإطلاق، إذ أنه على أى أساس يطالب به وعلى أى أساس يمنح له ؟ إنه لو كان أحد تلاميذ يسوع واتبعه فى الخفاء، فإن مطالبته بالجسد كان لابد أن تفضح سره، إلا إذا كان بيلاطس على دراية بذلك من قبل.

ويدعى مؤلفو «الدم المقدس...» أن يسوع كان له أصدقاء وأتباع فى مراكز مرموقة، وهؤلاء الأصدقاء – بالتواطؤ مع حاكم رومانى فاسد – أعدوا مشهد صلب صورى زائف فى أرض خاصة لايصل إليها إلا القلة المختارة. وأمام عامة الناس هؤلاء الذين كانوا يقفون على مسافة بعيدة، تم «تمثيل»

عملية الصلب، لكنه فى الحقيقة لم يمت. وعند الغسق - وهذا بالطبع يزيد من صعوبة الرؤية - أنزل «جسد» ونقل إلى مقبرة مجاورة، ذات موقع مناسب، وبعد يومين اختفى الجسد منها، بصورة «إعجازية».

فأين ذهب يسوع إذن؟ لم يستطع المؤلفون الثلاثة إعطاء إجابة محددة على هذا السؤال، إذ يقولون إنه : ربما مات فى عمر متقدم فى مكان ما فى الشرق، وربما فى كشمير، وربما مكث فى أورشليم ليتابع تحقيق أهدافه.. باختصار، لايوجد هناك اقتراح محدد، بخصوص ماآل إليه مصيره[١].

ويدلل المؤلفون الثلاثة على صدق وجهة نظرهم، بالإستشهاد بما وجد فى بعض لفائف نجع حمادى التى تم اكتشافها عام ١٩٤٥م والتى يرجع تاريخ أغلبها إلى ماقبل عام ١٥٠م.. وبعضها مثل : إنجيل توماس The Gospel of Thomas، وأنجيل المصريين The Gospel of the Egyptians وإنجيل الحقيقة The Gospel of the Truth - قد ذكرها من قبل آباء الكنيسة الأول، من أمثال: كلمنت الأسكندرى Clement of Alexandria وأيرينيس Ireheaus ، وأريجن origen. ويقول الكتاب الثلاثة إن هذه الوثائق تتمتع بصدق نادر، وبعضها يمكن أن يقف على قدم المساواه مع الأناجيل الأربعة، إذ أنها تعتمد على منابع أصلية، وشهود عيان من الدرجة الأولى، وربما أيضا معارف شخصيين ورفقاء ليسوع.

وإحدى هذه اللفائف - كما يقرر المؤلفون - تثبت أن يسوع قد هرب من الموت على الصليب، وفيها يتحدث يسوع بنفسه عن نفسه :«لم أقع فى أيديهم كما خططوا لذلك.. ولم أمت فى الحقيقة، لكن بدا لهم ذلك، لكى لايجلبوا لى العار.. ذلك لأنهم فى خطئهم وعميانهم ظنوا أن موتى قد حدث، فى حين أنهم قد صلبوا رجلهم حتى الموت.. لقد كان رجلا آخر،

---

(١) ارجع إلى كتاب : Holy Blood, Holy Grail، ص ص ٣٥٢-٣٥٨.

ذلك الذى شرب الخل والعلقم، ولم يكن أنا .. لقد كان شخصا آخر.. سمعان ذلك الذى حمل الصليب على كتفيه.. ولقد كان شخصا آخر ذلك الذى وضعوا على رأسه تاج الشوك.. وكنت أنا أضحك من جهلهم»[١].

ويرجع المؤلفون الثلاثة إلى رأى باسيليدز وكذلك ماقال به مانى. ويؤكدون صحة ماجاء فى القرآن !![٢].

كان باسيليدز عالم سكندرى انتشرت كتاباته مابين عامى ١٢٠ - ١٣٠ ميلادية، وكان متعمقا فى دراسته للديانة اليهودية، وكذا للأناجيل المسيحية، كما كان دارسا متمكنا من الفكر المصرى والهللينى، ويقال إنه كتب مالايقل عن أربعة وعشرين بحثا عن الأناجيل. ويدعى « باسيليدز» أن الصلب كان مجرد خدعة، وأن يسوع لم يمت على الصليب وأن بديلا له وهو سمعان القيروانى قد حل محله. ولقد أثبت هذا الرأى أنه مقنع واستمر فى الدوام بدرجة غير عادية [٣].

أما «مانى» الذى ولد بالقرب من بغداد عام ٢١٤ ميلادية، والذى اشتهر - كما اشتهر يسوع - بالعلاج الروحى وطرد الأرواح النجسة، لدرجة أن أعلن أتباعه أنه هو المسيح الجديد وأنه هو أيضا قد ولد من عذراء - أعلن مانى هذا، كما أعلن باسيليدز من قبل أن يسوع لم يمت على الصليب، وإنما صلب شخص آخر بدلا منه. وفى عام ٢٧٦ ميلادية، أمر الملك بسجن مانى وسلخ جلده حتى الموت، ثم قطعت رأسه ، ومزقت أوصاله وعرضت على الجمهور، تجنبا لادعاء أنه قام من بين الموتى[٤].

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣٨١، انظر: The Second Treatise of The Great Seth in Robinson, J. Nag Hammadi Library in English, p. 332.

(٢) ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً﴾ سورة النساء ١٥٧ - ١٥٨.

(٣) الدم المقدس .. ص ٣٧٩.

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٨٤.

ويختتم المؤلفون الثلاثة مناقشتهم لهذا الموضوع بقولهم : وفى القرن السابع أعلن القرآن نفس الرأى تماما، وهو أن بديلا قد حل محل يسوع. وكأنهم يؤمنون بالقرآن !! وإنه لمن النادر جدا، إن لم يكن من المستحيل، أن يستشهد مسيحيون بالقرآن لإثبات أن يسوع لم يمت على الصليب، لكنه قد حدث !!

ويثير البعض سؤالا، هو : كيف يحرر يسوع البشرية من اللعنة بموته، إذا كان هو نفسه - إن كان قد صلب حقا - قد مات «ملعونا» ؟ هذا مايؤكده العهد القديم الذى استخدم يسوع نصوصه، وأشار إلى نبوءاته فى أكثر من موضع، على أنها دلالات جازمة حاسمة على مقدمة هو كالمسيح المنتظر• فى العهد القديم، الذى استخدمه يسوع وآمن به، يقول النص :« وإذا كان على إنسان خطية حقها الموت فقتل وعلقته على خشبة فلاتبت جثته على الخشبة بل تدفن فى ذلك اليوم لأن المعلق ملعون من الله»(١)•

المعلق ملعون من الله، هذا هو النص الصريح فى العهد القديم وعلى ذلك فإذا كان المسيح قد علق فعلا، ومات على الصليب، فهذا معناه - بلاأدنى شك - أنه قد أصبح ملعونا من الله•

وهذا منطق مرفوض تماما، إذ أنه من المستحيل أن يلعن الله رسوله، أو أن يلعن «ابنه» الذى أرسله لتخليص البشر. ومن المستغرب أن يقال إن يسوع قد قتل تكفيرا عن خطايا البشر، وفى التوراه - وهى كلام الله الذى أوحى به إلى موسى والذى آمن به يسوع - نص يقول: «لايقتل الآباء عن الأولاد ولايقتل الأولاد عن الآباء• كل إنسان بخطيئته يقتل»(٢)•

على أية حال، ذهبت مريم المجدلية مبكرة إلى المقبرة صباح يوم الأحد.

---

(١) تثنية ٢١ : ٢٢-٢٣•

(٢) تثنية ٢٤ : ١٦•

وجدت الحجر مزحزحا عن مكانه، ورأت القبر مفتوحا.

نظرت . أصابها الذهول. لم يكن هناك جسد، وفى الحال انتشرت صيحة رائعة مروعة فى مدلولها وإعجازها: لقد قام!!

وبدافع الحب الفياض المتدفق، وجدت الصيحة تصديقا فوريا فى المجتمع المسيحى : لقد قام !! هكذا بدأت حكاية البعث. وبالنسبة للمؤرخ، كما يقول «رينان»، تنتهى حياة يسوع مع آخر كلمة قالها، وآخر زفرة صدرت منه. لكن هذا هو الانطباع الذى تركه فى قلوب تلاميذه، وقلة من النساء المتفانيات فى حبه. وخلال أسابيع قليلة بدا لهم أنه يعيش معهم ويواسيهم. ويضيف «رينان» أنه لايمكن التأكد - إلى درجة اليقين - من حقيقة ماحدث. كل مايمكن قوله هو أن الخيال المتقد لمريم المجدلية قد لعب دورا هاما فى هذا الحدث. إنها قوة الحب الإلهى، لحظات مقدسة لامرأة سيطر عليها الحب وتملكها، فمنحت العالم بخيالها إلها من بين الموتى.

ڤيلا الكرمتان

طنطا - يناير ١٩٩٦

قائمة المراجع

- Aborno, Theodor W., and Others, The Authoritarian Personality, New York, 1950.

- Albright, W. F., Archaeology and the Religion of Israel, Baltimore, Maryland, The Johns Hopkins Press, 1942.

- Baigent, Michael' Richard Leigh. and Henry Lincoln, Holy Blood, Holy Grail, Dell Publishing Co., New York, 1983.

- Bilton, Percy, Russia, Israel, Christ and You! Arthur James, London, 1959.

- Bruce, F.F., The New Testament Documents: Are The Reliable? The Inter-Varsity Fekowship, London, 1960.

- Bruce, F.F., Second Thohghts on the Dead Sea Scrolls, Grand Rapids, Mich, Eerdmans Publishing Company, 1961.

- Good New For Modern Man: The New Testamenk Today's English Version, Collins, London, 1968.

- Grubb, Edward, The Personality of God, Headley Brothers, London, n.d.

- Heaton, E.W., The Old Testament Prophets, Penguin Books, Middlesex, I1961.

- Henry, Carl, Christian Personal Ethics, Grand Rapids, Mich., 1967.

- Herford, R. Traverse, Judaism In The New Testament Period, The Lindsey Press, London, 1928.

- Jones, L. Bevan, Christianity Explained to Muslims, Calcutta, M.C.A. Publishing House, 1962.

- Khan, Abdus Samad, Replies Salman Rushdi and His Supporters, Sughara Publications, Karachi Pakistan, n.d.

- Kahl, Joachim, The Misery of Christanity, Translated from German by N.d. Smith, Penguin Books, Middlesex, 1971.

- Lindsay, Thomas M., ed., The New Testament, J.M. Dent & Sons, London, 1928.

- Lodge, Sir Oliver, Reason And Belief, Mathuen of Co., LTD., London, 1916.

- Morrison, Frank, Who Moved The Stone, Faber and Faber, London, 1962.

- Murry, John Middleton, The Life of Jesus, Jonatham Cape, London, n.d.

- ----------, God, Jonathan Cape, London, 1929.

----------, To the Unknown God, Jonathan Cape, London , n.d.

----------, The Betrayal of Christ by the Churches, Andrew Dakers, London, 1942.

- Philips, J. B., The New Testament in Modern English, Geoffrey Bles Ltd., London, 1960.

- Pieters, Albertus, Can We Trust Bible History? Society for Reformed Publications, Mich., 1954.

- Renan, Ernest, The Life of Jesus, J.M. Dent and Sons, London, n.d.

- Rimmer, Harry, That Lawsuit Against the Bible, Eerdmon Publishing Company, Grand Rapids. Mich., 1956.

- Robinson, James M. , A New Quest of the Historical Jesus., London, 1959.

- Russell, Bertrand, Why I am Not a Christian, London, 1966.

- Schaff, Philip, History of the Christian Church, Eerdmans Publishing Company, Grand Rapids, Mich., 1950.

- Scroggie, W., Graham, Is the Bible the Word of God? Moody Press, Chicago, 1922.

- Schonfield, Hugh J., TheBible Was Right, The New American Library of Wold Literature, Inc. , New York, 1959.

- Short, A. Randle, Why Believe? London, 1962.

- Stirling, John, Ed., The Bible: The Authorized Version, The British and Foreign Bible Society, London, 1955.

- Taylor, Kenneth, Is Christianity Credible? Chicago, 1948.

- Tillich, Panl, On the Boundary, London, 1967.

- Young, Edward, An Introduction to the Old Teactment, The Tyndale Press, London, 1960.

- الكتاب المقدس : أي كتب العهد القديم والعهد الجديد، دار الكتاب المقدس، القاهرة، ١٩٨٢،

المحتويات

مقدمة ٩

الفصل الأول الحالة الدينية والاجتماعية فى فلسطين قبل ميلاد المسيح ١١

الفصل الثاني الأناجيل ٤١

الفصل الثالث الميلاد والنشأة ٥١

الفصل الرابع يوحنا المعمدان ٦٩

الفصل الخامس الحواريون وبداية الدعوة ٨٧

الفصل السادس جوهر الرسالة ١٠٩

الفصل السابع المسيح ١٤٩

الفصل الثامن المحاكمة والصلب ١٧٧

قائمة المراجع ٢١١

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٩٦/٢٩٢٨
الترقيم الدولي I.S.B.N. 977-5659-22-1

هذا الكتاب
يعرض آراء بعض كبار رجال
الدين المسيحى . فضلا عن
آراء المتعمقين فى الفكر الدينى
من الدارسين المسيحيين ....
وعلى ضوء ذلك فإننا نناقش
آراء المسيحيين أنفسهم فيما
يختص بشخصية المسيح،ومنهج
فكره ، وجوهر تعاليمه .
على أننا قد أستبعدنا من هذه
الدراسة تماماً كل مايمت
للإسلام بصلة وللمسلمين
بنسبة ، حتى لايقال:دين ضد دين
وفكر ضد فكر ، إبتغاء الفتنة .
حاشا لله

مطبعة السماح الحديثة بطنطا